

تاريخ الدولة العثمانية

منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي

تأليف
د. أحمد فؤاد متولي
كلية الآداب - جامعة عين شمس



السلطان محمد الفاتح

إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة ٢٠٠٢ م

تاريخ الدولة العثمانية

منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي

د. أحمد فؤاد متولى

كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

د. هويدا محمد فهمى

كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

القاهرة

٢٠٠٥

رقم الإيداع

٢٠٠٢/٩١٢٨

الترقيم الدولى I.S.B.N.

977-5723-71-8

ايتــراك للنشــر والتــوزيع

طريق غرب مطار ألماظة عمارة (١٢) شقة (٢) ص.ب : ٥٦٦٢

هليوبوليس غرب – مصر الجديدة

القاهرة ت : ٤١٧٢٧٤٩   فاكس : ٤١٧٢٧٤٩


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

أسس العثمانيون إمارة صغيرة على حدود العالم الإسلامي، كرست جهودها منذ أن قامت على الغزو في سبيل الله. ولم تلبث هذه الإمارة الصغيرة أن غزت الولايات البيزنطية في الأناضول وفي البلقان.

ولما فتح العثمانيون الشام ومصر وضموا الحجاز ١٥١٧م (٩٢٣هـ)، أصبحوا أكبر قوة في العالم الإسلامي.

وفي عهد سليمان القانوني (١٥٢٠_١٥٦٦م) استمر العثمانيون في النجاح العسكري في منطقة تمتد من وسط أوروبا إلى المحيط الهندي. مما جعل الإمبراطورية العثمانية في مرتبة القوى العالمية. إلا أن الحروب الطويلة التي حدثت في القرن السابع عشر الميلادي جعلت الميزان يتأرجح في صالح أوروبا. وانحطت القوة العثمانية، ومع التسليم بالتفوق الغربي في القرن الثامن عشر، فقد اعتمد العثمانيون على أوروبا سياسياً واقتصادياً في هذه الفترة[١]

إن قصة تاريخ الإمبراطورية العثمانية معقدة ومتشعبة. إنها لا تشمل تاريخ الأسرة العثمانية فقط، ولكنها تضم أيضاً تاريخ كثير من الشعوب التي فتح العثمانيون بلادهم. فقد حكم العثمانيون شعوباً متعددة منها الترك والعرب والصرب واليونان والأرمن والبلغار والهنغاريين والألبانيين وغيرهم الكثير. وكان للدولة العثمانية مع جيرانها في أوروبا وآسيا علاقات متنوعة، فمنها الحروب ومنها الفتح ومنها العلاقات الدبلوماسية ومنها التجارية وغيرها.

---

(1) Dr. Halil Inalcik: The Ottoman Empire, the Classical Age 1300-1600.Translated by: Itzkovitz and Colen Imber, P. 3 London 1975

إنها تشمل التاريخ السياسي والإداري والاجتماعي والاقتصادي، لامبراطورية امتزجت فيها القوميات والثقافات العديدة.. وهذه الإمبراطورية الواسعة التي عمرت طويلاً، تحتاج منا إلى دراسات علمية مطولة دقيقة وعميقة[1]

ولا يمكن لنا والأمر كذلك أن ندرس تاريخ العرب مثلاً منفصلاً و منعزلاً عن التاريخ العام للإمبراطورية العثمانية، فمظاهر الضعف في الإدارة العثمانية، لها علاقة بالانهيار الاقتصادي والفوضى السياسية التي حلت بالولايات العربية خلال تلك الفترة.[2]

ومنذ أن وطأت أقدام العثمانيين البلقان، والأوروبيون لا يكفون عن إقامة الأحلاف لطرد العثمانيين وإرجاعهم إلى الأناضول. ولكن هذه الجهود الأوروبية رغم كثرتها، لم تتمكن من تنفيذ أغراضها عندما كانت الدولة العثمانية في عنفوان شبابها ومجدها.

رفعت الدولة العثمانية لواء الإسلام خفاقاً في ربوع أوروبا حتى أسوار فينا، وتصدت للقوى الأوروبية التي كانت تناصبها العداء.

إن الفتح الإسلامي للأندلس 'الذي جعل البحر الأبيض بحيرة إسلامية، انتهى خلال القرون الأولى لقيام الدولة العثمانية. وقد أعاد السلطان محمد الثاني للأذهان أمجاد الإسلام في الأندلس، عندما فتح القسطنطينية معقل المسيحية

---

(1) Stanford Shaw: History of the Ottoman Empire, Vol. 1, Preface New York 1976

(٢) د. عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ١٠٠٩ بيروت ١٩٧٨

الأرثوذكسية. واستحق القائد بجدارة أن يطلق عليه **"أبو الفتح"** أو **"الفاتح"**. وهو ذلك البطل الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين من العمر ساعة هذا الفتح العظيم.

كانت عادة لدى العثمانيين إذا فتحوا بلدة أن يحولوا أكبر كنيسة فيها إلى جامع، ثم يأذنون للمسيحيين بإنشاء مكان آخر للعبادة. وبعد فتح أي مدينة يؤذن للصلاة فوق قلاعها، ثم تقام صلاة الجمعة الأولى في كنيستها التي حُولت إلى جامع في احتفال ديني مهيب، وتُقرأ الخطبة باسم السلطان، ثم تُرفع الدعوات لله سبحانه وتعالى على ما منّ به على العثمانيين من التوفيق في الفتح. وأكبر مثال على ذلك الكنيسة العريقة أيا صوفيا باستانبول التي حُولت بعد الفتح إلى جامع كبير يُرفع الأذان من فوق مآذنه[1]. ومن الجدير بالذكر أن مصطفى كمال أتاتورك حول الجامع فيما بعد إلى متحف ترتاده جميع طوائف السياح.

لقد شق الأذان عنان السماء بعد تحويل الكنيسة إلى جامع، وعلت الابتهالات والتكبيرات، وازداد التضرع لله. وجثا الفاتح على ركبتيه وهو يدخل الجامع خضوعاً لله وخشوعاً لبارئ السماوات والأرض. وبكى الرجل بكاءً شديداً متأثراً من نعمة الله التي أنعم بها عليه.. فلطالما حاول المسلمون فتح القسطنطينية، حتى يُقال أن المحاولات الجادة بلغت اثنتا عشرة محاولة. فمنذ عهد الخلفاء الراشدين والمحاولات مستمرة لا تتوقف، كل يريد أن يكسب نعمة الفتح التي وردت في الحديث النبوي الشريف **"لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"**.

---

(1) Yılmaz Öztuna: Türkiye Tarihi, cilt. 3, S. 12 **Istanbul 1964**

إن قصة اقتحام جند الفاتح للقسطنطينية، ملحمة إسلامية رائعة، أعادت للأذهان أمجاد الأندلس الماضية، حين عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد مضيق جبل طارق سنة ٧١١م، واجتاحوا بلاد الأندلس في القرن الثامن الميلادي. لقد خسر المسلمون أرضاً في الأندلس، فأعادها الفاتح في البلقان.

وتعتبر القسطنطينية مركزاً تجارياً وإدارياً وعسكرياً كبيراً، يسر استيعاب الفتوحات العثمانية، وسهل التحكم فيها والدفاع عنها ، بينما سيطر على الممرات المائية بين البحرين الأبيض والأسود، التي تتحكم في التجارة الدولية.(١)

ولما كان موقع القسطنطينية الطبيعي والجغرافي من أعظم المواقع السياسية في الكرة الأرضية، كان انتصار الدولة التي تستقر فيها على سائر الدول أمراً طبيعياً على حد قول المؤرخ التركي الشهير أحمد جودت. كما نُقل عن نابليون بونابرت أنه قال: **لو كانت الكرة الأرضية في حوزة دولة واحدة، لكان يلزمها أن تتخذ القسطنطينية عاصمة لها.**(٢)

فتح السلطان سليم الأول الشام ومصر وضم الحجاز، وأضاف للإمبراطورية العثمانية مساحات شاسعة من الأراضي. وبعد انتصاره على الغوري في موقعة مرج دابق دخل حلب في يوم الجمعة غرة شعبان سنة ٩٢٢هـ (٢٩ أغسطس سنة ١٥١٦م)، وأقام صلاة الجمعة في جامع الملك الظاهر. وقد قُرئت الخطبة باسم السلطان العثماني ، ووصفه الخطيب في خطبته بأنه "مالك الحرمين الشريفين". فأجهش سليم بالبكاء، ونهض لتوه واقفاً، وقال:

(1) Stanford Shaw: Op. Cit, p.57

(٢) أحمد جودت: تاريخ جودت، م١، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا، ص٤١ بيروت ١٣٠٨هـ ، وأنظر الأصل التركي، م١، ص٣٠ من تاريخ جودت استانبول ١٣٠٢هـ

"من أنا حتى أكون مالكاً للحرمين الشريفين، إنني أفتخر بأن أكون خادم الحرمين لا مالكا لهما".(١)

وارتأى للسلطان سليم بعد عودته من فتح الشام ومصر، أن يجعل جميع المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية يهتدون بالإسلام بالقوة أو عن طريق الإقناع.(٢) وقد ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث فكر في أن يتخذ من العربية لغة للإمبراطورية كافة.. ولم يمنعه من تحقيق هذه الأهداف إلا المفتي علي جمالي أفندي،(٣) الذي ذكّره بحرية الوجدان والعقيدة التي مُنحت من قبل السلطان محمد الفاتح.

إن قصص البطولة التي سطرها الجيش العثماني في الفتح كثيرة ومتعددة. ورغم قوة الدولة العثمانية، إلا أنها كانت تمارس التسامح الديني بأعظم صوره وأحسن أشكاله.

كان العثمانيون يمارسون الحرية الدينية والوجدانية في مناطق أوروبا التي فتحوها، ويتسامحون في هذا الخصوص إلى أبعد الحدود، رغم قدرتهم العسكرية الكبيرة.(٤)

وأكبر مثال على ذلك أن الجزية المفروضة على المناطق المسيحية المفتوحة، كانت ترفع عن الفقراء والمساكين وذوي العاهات والمرضى والشيوخ

---

(١) أحمد راسم: عثمانلي تاريخي، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ استانبول ١٣٢٦هـ

(2) Halide Edib: The Conflict of East and West in Turkey, P. 24 Lahore 1963

(٣) د. أحمد السعيد سليمان: التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة، ص١٧ القاهرة ١٩٦١

(4) Dr. Ismail Hakkı Uzunçarşılı: Osmanlı Tarihi, cilt I, S.162 Ankara 1972

والأولاد والسيدات ورجال الدين ومن صدر بشأنه فرمان خاص من السـلطان مراعاة لظروفه وأحواله.[1] وهذا هو أعلى درجات التسامح الديني..

•••••

(1) Yılmaz Öztuna: Adigeçen Eser, cilt3, S. 13

منهج الكتاب

يجدر بنا ونحن نتحدث عن تاريخ العثمانيين الطويـــل، أن نقســمه إلــى فترات ومراحل تبعاً للخط البياني الذي سارت فيه أحوال العثمانيين وأوضاعــهم بين القوة والضعف؛ لأن هذه الإمبراطــورية خضعت لحكم أســرة واحـــــدة هي أسرة "**آل عثمان**".

يُقسم المؤرخون الثقاة من الأوروبيين المعاصرين هذه الدولة إلــى ســبع مراحل أو فترات، سنتناول أربعا منها بالبحث والدراسة وهي:

١ – فترة ما قبل تركيا العثمانية (Pre-Ottoman Turkey)

وتمتد من سنة ١٠٧١ ـ ١٣٠٠م (٤٦٤ ـ ٦٩٩هـ)

٢ – فترة الإمارة في الأناضول (The Beylicate Period in Anatolia)

وتمتد من سنة ١٣٠٠ ـ ١٣٧٠م (٦٩٩ ـ ٧٧٢هـ)

٣ – فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية (From Statehood to Empire)

وتمتد من سنة ١٣٧٠ ـ ١٤٨١م (٧٧٢ ـ ٨٨٦هـ)

٤ – فترة العصر الذهبي (The Golden Age)

وتمتد من سنة ١٤٨١ ـ ١٥٩٠م (٨٨٦ ـ ٩٩٨هـ)





الفصل الأول

فترة ما قبل تركيا العثمانية

١٠٧١ ـ ١٣٠٠م (٤٦٤ ـ ٦٩٩هـ)



موطن الترك :

ينحدر العثمانيون من قبائل رعوية كانت تجوب منطقة جبال ألتاى، إلى الشرق من سهول أوراسيا Eurasia، وإلى الجنوب من نهر ينيسي Yenisei وبحيرة بيكال في الأراضي التي تُعتبر حالياً جزءاً من سهوب منغوليا.

وكانت لهم حضارة بدائية متنقلة قائمة على التنظيم القبلي، والعادات والأعراف الاجتماعية، من غير تنظيم حكومي أساسي أو قوانين خاصة لمجتمعات أكثر تقدماً.

العرب والترك :

بدأت العلاقات بين العرب والترك قبل ظهور الإسلام بقليل بصورة غير مباشرة لبعد المسافة بين الشعبين، ولعبت فيها الإمبراطورية الساسانية في بلاد فارس دور الوسيط.[1]

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٣هـ = ٦٣٤-٦٤٤م) بدأت الجيوش الإسلامية الزحف على إيران.[2] وقد استنجد يزدجرد بخاقان الترك فيما وراء النهر بعد أن هُزم أمام العرب في نهاوند سنة ٢١هـ (٦٤١م)، ولم يتمكن من إيقاف تدفقهم على بلاد فارس وهم تحت قيادة الأحنف بن قيس. تحرك خاقان الترك على رأس جنود له من فرغانة والصغد، وتوجه ومعه يزدجرد إلى بلخ للالتقاء بالعرب.

---

(1) Dr. Hakkı Dursun Yıldız: Islamiyet ve Türkler s.3 Istanbul 1980

(2) Ziya Kazıcı ve Dr. Mehmet Şeker: Islam-Türk Medeniyeti Tarihi, s.33 Istanbul 1981

ولم يتمكن الأحنف من الصمود أمام هذه الحشود الهائلة، فتراجع عن بعض المناطق في بلاد فارس.وعلى الرغم من ذلك انسحب من ميدان المعركة بعد ذلك. ويُقال أنه انسحب لعلمه بحشود صينية على حدوده فيما وراء النهر، أو لأنه وجد أنه لا قبل له بالعرب على حد قول الطبري.(١) وقد اجتاز العرب النهر وتقدموا فيما وراءه إلى المناطق الداخلية في ذلك العصر.

وفي عهد عثمان رضي الله عنه (٢٣_٣٥هـ = ٦٤٤_٦٥٦م) فتح الأحنف بعض المناطق فيما وراء النهر شملت بلخ وخوارزم.

ورغم ما بذله العرب من جهد لفتح بلاد ما وراء النهر في عهد الخلفاء الراشدين، فقد كان تقدمهم بطيئاً، وكانوا يواجهون مقاومة شديدة من سكانها الترك.

ومن كتاب الترك المحدثين من يذهب إلى أن العلاقة بين الترك والعرب نشأت منذ فجر التاريخ حيث كانت أقوام العرب تعيش مع أقوام الترك في أواسط آسيا. ولكن هذا الكلام يحتاج إلى دليل.(٢)

وفي عهد بني أمية (٤١_١٣٢هـ = ٦٦١_٧٥٠م) استولى قواد معاوية بن أبي سفيان (٤٠_٦٠هـ = ٦٦٠_٦٨٠م) على خراسان وولى معاوية عبيد الله بن زياد لحكمها سنة ٥٤هـ، واستولى على بخارى ورامدين وبيكند. ثم ولّى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان ٥٥هـ ففتح سمرقند.

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٤، ص٢٦٥، القاهرة ١٣٣٦هـ.

(2) Naim Hazim Onat: Arapçanın Türk Diliyle Kuruluşu, s. 4 Ankara 1935.

وتولى الحجاج بن يوسف حكم العراق (٨٦ـ٩٥هـ = ٧٠٥ـ٧١٣م) من قبل الوليد بن عبد الملك (٨٦ـ٩٦هـ = ٧٠٥ـ٧١٥م)، وضمت إليه الولايات الشرقية، فولى قتيبة بن مسلم على بلاد خراسان (٨٦ـ٩٦هـ = ٧٠٥ـ٧١٤م)، وأمره بتوطيد الحكم فيما وراء النهر، وفتح بعض البلاد الأخرى، فأعاد فتح بيكند ٨٧هـ، وبخارى ٩٠هـ ثم سمرقند. وبعد ذلك فتح فرغانة والشاش (طشقند) ٩٤هـ وكاشغر ٩٥هـ، حتى صار على حدود الصين. ولم تتوقف حركة الفتح الإسلامي بموت قتيبة، بل استمر فيها الذين خلفوه في حكم خراسان، وتوطدت أقدام العرب فيما وراء النهر.

وفي ١٢٥هـ توفى هشام بن عبد الملك (تولى ١٠٥ـ١٢٥هـ = ٧٢٤ـ٧٤٣م) وتضعضع مركز الخلافة، فأقام نصر بن سيار في خراسان، وأقلع عن غزواته فيما وراء النهر خوفاً من القلاقل والفتن.

ثم ظهرت دعوة بني العباس، وانتهت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية في (١٣٢ـ٦٥٦هـ = ٧٥٠ـ١٢٥٨م) وبانتهاء الدولة الأموية، انتهت الفتوحات الإسلامية التي وصلت حدودها في الشرق إلى الصين وفي الغرب إلى الأندلس.[1]

استخدم الترك على نطاق ضيق في الجيش والإدارة منذ العصر الأموي. وقد بدأ تسربهم إلى بعض البلاد العربية ـ خاصة الشام والعراق ـ منذ أن احتك العرب بهم في أواسط آسيا زمن الفتوحات العربية.

---

(١) أنظر: زكريا كتابجي: الترك في مؤلفات الجاحظ، ومكانتهم في التاريخ الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، ص٥٤-٧٤، بيروت ١٩٧٢.

وأول من اعتمد على الترك بشكل واسع بعد ذلك هو الخليفة العباسي المعتصم[١] (٢١٨-٢٢٧هـ = ٨٣٣-٨٤٢م) ليوازن بهم الفرس والعرب على حد سواء[٢]، خاصة وأن هذه القوات التركية كانت بدون جذور محلية، مما جعل ولاءها يتجه بالدرجة الأولى نحو السلطة المركزية. وامتاز الأتراك هؤلاء بصفات عسكرية جيدة، وخاصة في مجال الفروسية. ومما زاد في تسلطهم شدة اعتماد الدولة عليهم، لمجابهة الأخطار الداخلية والخارجية. ولكن دخول الأتراك إلى الخلافة العباسية، الذي تم في البدء بصورة فردية عن طريق الأسر أو الشراء أو لقاء الضرائب، سرعان ما تحول إلى هجرة قبائل بكاملها، تستهويها إمكانيات السيطرة على الخلافة العباسية المزدهرة.[٣] ومما ساعد أيضاً في توجيه هذه القبائل نحو الغرب صعوبة توسعهم باتجاه الصين، التي ظهرت فيها آنذاك أسرة سونغ القوية بعد فترة من الفوضى.[٤]

دخول الترك في الإسلام :

كان الأتراك في بداية أمرهم يعبدون الطبيعة ممثلة في خمسة عناصر، هي: **الأرض والغابة والمعدن والنار والماء**. وكانوا يقدسون إلى هذا أجدادهم.

---

(١) كانت أمه تركية الأصل.

(٢) بلغ عددهم سبعين أو ثمانين ألفاً. (زكريا كتابجي: نفس المصدر، ص١٢٨). ترجع السياسة التي أوحت باستخدام العنصر التركي في الدولة العثمانية، إلا أن العباسيين تخلوا في أول الأمر عن العنصر العربي وأساءوا الظن به على اعتبار أنه نصير الأمويين. وقد دلت الحوادث على أن العنصر الفارسي طموح حريص على مصلحته القومية، فساء ظنهم بالفرس أيضاً. ولم يبق أمامهم إلا الترك، فأتوا بهم من بلادهم. (د. محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ص١٩، ٢٠) مصر ١٩٦٥.

(٣) لتفصيل ذلك أنظر: زكريا كتابجي: المرجع السابق، ص٩٥-١٨٤.

(٤) د. عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون (١٥١٦-١٩١٦)، ط١، ص٢،١ دمشق ١٩٧٤.

وكان أهم المعادن وأكثرها قداسة عندهم هو الحديد، الذي كانوا يقيمون له عيداً كل عام. وأما تقديس الأجداد فإن له علاقة بالطوطمية التركية القديمة، وذلك أن الترك يعتقدون أنهم منحدرون من رجل وذئبة وأحياناً من ذئب وامرأة، ومن هنا كان تقديس الآباء عندهم مرتبطاً بتقديس المغارات وهي مأوى الذئب.

ودخل الترك بعد ذلك في ديانات كثيرة: فدخلوا في الزرادشتية التي وصلت إليهم من إيران. ودخلوا في البوذية التي وصلتهم من الهند. وقد راجت بينهم هذه الديانة حتى صارت ديناً رسمياً كانوا يدافعون عنه حتى الموت، بل كانوا يدافعون عن المانويين الخاضعين لدول أخرى غير تركية. وكان الأتراك الأويغور على المانوية حين دعاهم العرب إلى الإسلام. ودخل الترك في المسيحية على المذهب النسطوري، ولكنها لم تثبت فيهم. ولم يبق منها إلا قليل من شواهد القبور يستنبط منها علماء الآثار من الأوروبيين أنها لقوم من الترك كانوا قد تنصروا.

كان الإسلام خاتم الديانات التي وفدت على الترك في آسيا الوسطى، وقد وقعت أهم الانتصارات التي أحرزها الإسلام والعرب في مواطن الترك بين سنتي ٨٦ ، ٩٦هـ (٧٠٥ ، ٧١٤م)، وهي الفترة التي حكم فيها قتيبة بن مسلم بلاد خراسان، فقد كان الإسلام رغم مقاومة الأتراك المعروفين بـ (تو - كيو) يتقدم باتجاه الشرق.

كان سكان سمرقند وبخارا يقاومون العرب[١]، على صورة اضطر معها العرب إلى حمل أسلحتهم في الأماكن العامة وفي داخل المساجد، ولكنهم مع هذا

(١) لما وفد قتيبة بن مسلم علي سمرقند، وجد هناك كثيراً من الأصنام كان عبدتها يعتقدون أن كل من أثار حنقها تعرض للموت. على أن الفاتح المسلم لم يأبه بهذه المخاوف التي أثارتها تلك الخرافات، ومن ثم لم يحجم عن إحراق الأصنام. وكان من أثر ذلك العمل أن دان للإسلام عدد كبير من الناس. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ/ ص٢١٨، القاهرة ١٢٧٤هـ)، (توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: د./ حسن إبراهيم حسن وآخرون، ص٢٤٣) القاهرة ١٩٧١.

كانوا يؤلفون قلوب الترك فكانوا يمنحون درهمين لكل تركي في كل مرة يذهب فيها إلى المسجد.[1] كما سمحوا بقراءة القرآن الكريم باللغة الفارسية، بدلاً من العربية، حتى يستطيعوا جميعاً فهمه في سهولة ويسر.[2]

وأسس قتيبة المساجد في بخارا وسمرقند.

وبالإضافة إلى ذلك كان هناك نشاط للدعوة الإسلامية في عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩_١٠١هـ = ٧١٧_٧٢٠م)، وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥_١٢٥هـ = ٧٢٤_٧٤٣م).

وهكذا أخذ الإسلام يتقدم إلى أن جاء العصر العباسي، وعصر المأمون بوجه خاص (١٩٧_٢١٨هـ = ٨١٣_٨٣٣م)، فزاد دخول الترك في الإسلام. إذ كان المأمون يدعو أعيان الترك ويخلع عليهم ويقدم لهم الهدايا. فلما كان عهد المعتصم (٢١٨_٢٢٧هـ = ٨٣٣_٨٤٢م) كانت غالبية الترك قد أسلمت. ثم زاد تدفقهم على بغداد للانخراط في سلك الجيش بعد أن انتصر عليهم. وظل الأتراك يدخلون في الإسلام إلى منتصف القرن الرابع الهجري **(منتصف العاشر الميلادي)**. وكان الأعيان إذا أسلموا أسلم أتباعهم معهم. ومن كبار من أسلموا في ذلك الوقت ساتوق بغراخان مؤسس دولة إيليك خان، فقد أسلم معه قومه وهم ألفا أسرة. وكذلك أسلم سلجوق رأس الأسرة السلجوقية، وأسلمت قبيلته في بداية القرن الرابع الهجري **(بداية العاشر الميلادي)**.[3]

---

(١) د. أحمد السعيد سليمان: التيارات القومية، ص١١-١٣

(٢) البلاذري (٢٧٩هـ = ٨٩٢م): فتوح البلدان، ص٤٠٧، القاهرة ١٣١٨هـ، توماس أرنولد: المرجع السابق، ص٢٤٣

(٣) د. أحمد السعيد سليمان: نفس المصدر. ص١٣، ١٤.

توطن الترك في الأناضول :

كان في الأناضول كثير من الترك قبل ظهور السلاجقة بأكثر من قرنين[1]، وذلك أن الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ = ٧٥٥-٧٨٥م) كان يستقدم البطون التركية من آسيا ويسكنها الأناضول، وبخاصة في مدن طرطوس والمصيصة وعين زربة وأطنة ومرعش وملطية وديار بكر.

وكان هؤلاء الترك في جملتهم من فرغانة واسفيجاب وبلخ وخوارزم وهراة وسمرقند. وهكذا احتل الترك من منتصف القرن الثاني الهجري (**منتصف الثامن الميلادي**) القسمين الشرقي والجنوبي من الأناضول.

وما زال عدد الأتراك يتزايد في عهد الخلفاء العباسيين وبخاصة المأمون والمعتصم.

ولما انتقلت السلطات العسكرية إلى أيدي الترك وصار أمراء الجيش في دار الخلافة منهم قويت علاقات هؤلاء الأمراء بإخوانهم المقيمين على الحدود. وقد ظل هؤلاء المرابطون على الحدود يغيرون على الأناضول طوراً لحسابهم الخاص وطوراً بإيعاز من الحكومة المركزية في بغداد، فكانوا يخربون المدن ويعودون بالأسلاب والغنائم.

وكانوا في نفس الوقت عيوناً على تحركات الجيوش البيزنطية..

ومنذ القرن الخامس الهجري (**الحادي عشر الميلادي**) اندفعت قبائل تركمانية من أواسط آسيا، بضغط المغول المتجهين غرباً، نحو مناطق الثغور

---

(١) ظهر سلاجقة إيران ٤٢٩هـ (١٠٣٧م). وظهر سلاجقة الروم ٤٧٠هـ (١٠٧٧م).

في آسيا الصغرى. ولعبت هذه القبائل دوراً هاماً في تكثيف العنصر البشـري، في مناطق الحدود البيزنطية، وبالتالي في خرق هذه الحدود في أعقاب معركـة ملازكرد[١]، التي قُهرت فيها جيوش الأتراك السلاجقة بقيـادة ألـب أرسـلان، جيوش البيزنطيين بقيادة الإمبراطور رومانس ديوجينس سنة ٤٦٤هـ (١٠٧١م). وقد فتح هذا النصر أبواب الأناضول لجماعات التركمان الوافـدة مـن آسـيا. وكانت هجرة هذه الجماعات كفيلة بالإخلال بالأمن وبإفساد الحياة الاقتصاديـة والاجتماعية في إيران. ولكن السلاجقة ـ بعـد انتصـارهم فـي ملازكـرد ـ استطاعوا أن يصرفوا تيار هؤلاء البدو نحو الأناضول. وهكذا تضخمـت فيـه كتلة الترك بعد سنة ٤٦٤هـ (١٠٧١م)[٢]، وقامت دول تركية كثيرة هناك قبـل قيام الدولة العثمانية، وهي: دولة الدانشمنديين فـي سـيواس (٤٦٤ـ٥٧٠هـ = ١٠٧١ـ١١٧٤م) وقام فرع لـها بعـد ذلـك فـي ملطيـة (٥٣٧ـ٥٧٣هـ = ١١٤٣ـ١١٨٠م)، ودولة بني منكوجـك فـي أرزنجـان وكمـاخ وديوركـى (٤٦٤ـ٦٥٠هـ = ١٠٧١ـ١٢٥٢م)، ودولـة بنـي سـلدق فـي أرضـروم (٤٦٤ـ٥٩٨هـ = ١٠٧١ـ١٢٠١م). ثم قامت دولة سلاجقة الروم، وهي أكـبر دولة تركية قامت في الأناضول قبل قيام الدولة العثمانية، عمرت زهاء قرنيـن من الزمان (٤٧٠ـ٧٠٨هـ = ١٠٧٧ـ١٣٠٨م) . وقد كان ظهورها إيذاناً باختفاء هذه الدول الثلاث التي قامت قبلها.[٣]

على أن المغول لاحقوا الترك في آخر ملاجئهم وهي الأناضول، ودُحـر الجيش السلجوقي بقيادة غياث الدين كيخسرو الثاني بالقرب من الجبل الأقـرع

(١) د. عبد الكريم رافق: المصدر السابق ص١٢.

(٢) د. أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق ص١٤،١٥.

(٣) انظر: الدكتور أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ٢، القاهرة ١٩٧٢.

٦٤١هـ (١٢٤٣م) ووقع الأناضول في قبضتهم.[١] ولقد كان المغول يرسلون إلى الأناضول بعد فتحه بالجيوش المغولية في مناسبات كثيرة ولغايات مختلفة. وقد كانت عساكر المغول تدخل الأناضول مصطحبة نساءها وأطفالها وماشيتها. وكانت الحكومة الإلخانية تقيّم هؤلاء الجنود بحسب الحاجة في أنحاء مختلفة بالأناضول.

وقد كانت القبائل التركية التي تقيم منذ زمن قديم في الأناضول تضطر أمام زحف الوافدين الجدد إلى الانسحاب نحو الغرب إلى المناطق البعيدة عن الطرق الاستراتيجية.

وهكذا أخذ التركمان يتقدمون نحو المناطق الساحلية التي كانت حتى ذلك الوقت خاضعة للامبراطورية البيزنطية. ولما كان الدفاع عن الإمبراطورية ضعيفاً في ذلك الوقت، وكانت القوات البيزنطية المعروفة بالهراطقة قد اضمحلت ؛ فإن هؤلاء التركمان كانوا يستولون على الأراضي البيزنطية ويقيمون فيها إمارات خاضعة بعيدة عن نفوذ السلاجقة وعن نفوذ سادتهم المغول، حتى إذا كانت سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) كانت معظم الأراضي البيزنطية في الأناضول قد دخلت في حوزة عدد من الأمراء الترك[٢]، الذين بدأوا في تكوين دول لهم في فترة اضمحلال دولة سلاجقة الروم وبعد تمام انهيارها. وأشهر هذه الدول، هي، دولة بني قرمان (٦٥٤ـ٨٨٨هـ = ١٢٥٦ ـ ١٤٨٣م) في أرمناك، ودولة أمراء دنزلى (٦٧٦ـ٧٧٠هـ = ١٢٧٧ـ١٣٦٨م) في دنزلى،

---

(١) أظهر سلاجقة الروم تبعيتهم للمغول منذ عام ٦٥٧هـ (١٢٥٨م) إلى أن انتهت دولتهم بوفاة غياث الدين مسعود الثاني ٧٠٨هـ (١٣٠٨م)
(Dr. Ismail Hakkı Uzunçarşılı; Adigeçen Eser, cilt, 1, s. 111)

(٢) د. أحمد السعيد سليمان: انتشار الإسلام في آسيا، ص٢٧،٢٨ الرياض ١٣٩٧هـ

ودولة بني جاندار أو أبناء أسفنديار على حد قول العثمـــانيين (٦٩١ـ٨٦٦هـ = ١٢٩٢ـ١٤٦٩م) في قسطموني، ودولة بني حميد (أواخر القرن السابع الـهجري ـ٧٩٣هـ = أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ـ١٣٩١م) في بيســيديا القديمـة (ديار حميد)، ودولة بني قراسى (٧٠٠ـ٧٣٧هـ = ١٣٠٠ـ١٣٣٦م) في منطقـة ميسيا القديمة، ودولة بني آيدين (٧٠٠ـ٨٠٥هـ = ١٣٠٠ـ١٤٠٣م) في إزمـير، ودولة بني منتشا (٧٠٠ـ٨٢٩هـ = ١٣٠٠ـ١٤٢٥م) في إقليم قاريا القديم (**ولاية منتشا**)، ودولة بني صاروخان (٧٠٠ـ٨١٣هـ = ١٣٠٠ـ١٤١٠م) في منطقـة ليديا القديمة (**كانت عاصمتهم مغنيسيا**)، ودولة بني كرميـان (٧٠٠ـ٨٣٢هـ = ١٣٠٠ـ١٤٢٨م) في منطقة فريكيا القديمة (**كانت عاصمتهم كوتاهية**).

وكان بين هذه الدول، إمارة صغيرة في الشمال الغربي من الأناضول هي إمارة عثمان، التي قيض لها بعد أن عظم شأنها، أن تبتلع هذه الدول تباعاً.[1]



---

(١) انظر: د. أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، د. أحمد السعيد سليمان: مذكرات في تـاريخ الدولـة العثمانية، ص٤-٩ الرياض ١٣٩٧هـ.

الفصل الثاني

فترة الإمارة في الأناضول

١٣٠٠ ـ ١٣٧٠م (٦٩٩ ـ ٧٧٢هـ)



قيام الدولة العثمانية:

قبل أن نستطرد في الحديث عن "آل عثمان"، ينبغي علينا أولاً أن نوضح كيف قامت الدولة العثمانية. فقد اختلفت آراء المؤرخين والمستشرقين وأقوالهم حول هذا الموضوع اختلافاً بيناً. فبعض هؤلاء اعتمد في تاريخ قيام الدولة العثمانية على الأساطير والروايات المتواترة كما وردت أو بعد فحصها وتمحيصها، والبعض الآخر رفض هذه الأساطير والروايات رفضاً قاطعاً لعدم اتفاقها مع العقل والمنطق، واجتهد في تأريخ قيام الدولة على المنطق التاريخي، مستفيداً مما كُتب عن الدول والشعوب التي جاورت العثمانيين في الأناضول أو كانت لهم معهم علاقات.

يكتنف الغموض قيام الدولة العثمانية كمعظم الدول في بداية عهدها بالحياة. فعند ميلاد دولة من الدول يبدو الأمر في حينه لا يستحق الانتباه والتسجيل، إلى أن يُكتب لهذه الدولة البقاء والدوام وتظهر على مسرح الأحداث، فينتبه المؤرخون والكتاب لتسجيل أحداث تلك الدولة الآخذة في النمو، فقد تستهويهم أحداثها الداخلية وعلاقاتها الخارجية بالدول الأخرى أو تثير فيهم الاهتمام. وكلما تأخرت تلك الفترة ـ التي يبدأ فيها المؤرخون تسجيل أحداث تلك الدولة ـ عن مرحلة النشأة والقيام، كلما كانت تلك الكتابات التي تسطر عن نشأتها غير صحيحة كل الصحة، حيث يلجأ هؤلاء في بعض الأحيان لملء فترات الفراغ، بتسجيل الأساطير والروايات المتواترة غير المحققة عن هذا الموضوع. وبهذا يكتنف الغموض مرحلة الميلاد هذه ويشوبها التناقض والتضارب وتكثر فيها الأقوال والافتراضات والتأويلات وتملؤها المعلومات السطحية غير المؤكدة. وهذا ما يصادقنا بالنسبة لمرحلة النشأة عند العثمانيين.

ويعزو المؤرخ التركي "**يلماز أوزطونه**" غموض المراحل الأولى من تاريخ العثمانيين حتى فتح القسطنطينية بعامة، إلى عدم توفر المعلومات. فقد أحرق تيمورلنك الوثائق التركية عند إغارته على بروصه سنة ١٤٠٢م (٨٠٤هـ). ولهذا فالوثائق الرسمية المتعلقة بالفترة من نشأة الدولة وحتى غارة تيمور قليلة جداً.[١]

رحل العثمانيون من أواسط آسيا واستقروا في الأناضول، ولم تكن هويتهم قد اتضحت بعد، فقد كانوا في تلك المرحلة يعتبرون ضمن العناصر التركية. وكانت العناصر التركية التي استوطنت الأناضول كثيرة ومتنوعة ويصعب في تلك الفترة التحديد والتمييز بينها[٢]. حتى أن الكتابات العربية التي عاصرت استقرار العثمانيين في الأناضول كانت تطلق عليهم تسميات مختلفة تمييزاً لهم عن غيرهم من الترك. فكانت تطلق على كل سلطان "**ابن عثمان**" نسبة إلى الجد عثمان، ثم أطلقت عليهم خطأ "**الروم**"[٣] وعلى كل سلطان "**ابن عثمان الرومي**" ثم تطورت فيما بعد إلى العثامنة فالعثمانية وأبناء عثمان. وهذه الكتابات تذكر بعض المعلومات البسيطة عن علاقة ابن عثمان بجيرانه.

اضمحلت دولة السلاجقة في القرن السابع الهجري (**الثالث عشر الميلادي**)، بعد أن دهمتها غارات المغول المخربة. وفي تلك الآونة، ظهرت إمارة صغيرة على الحدود بين السلاجقة والبيزنطيين سُميت إمارة عثمان.

---

(1) Yılmaz Öztuna: Adigeçen Eser, cilt3, s. 8

(٢) اختلفت على الأناضول عناصر تركية كثيرة، منها: القارلوق والقبچاق والبچنك والأوغوز (التركمان).

(٣) كانت كلمة "الروم" شائعة في الكتابات العربية في العصور الوسطى، وكان المقصود بها "الترك"؛ لأنهم استوطنوا أراضي الروم (البيزنطيين) في الأناضول، فأطلق عليهم العرب هذه التسمية، وخير مثال على ذلك اسم كبير المتصوفة الترك "جلال الدين الرومي"، وسلاجقة الروم أيضاً.

اختلفت الآراء وتباينت حول قيام الدولة العثمانية، وتأثرت هذه الآراء بمصادر العصور الوسطى التي تمتلئ بالأساطير عن هذا الموضوع.[1] وقد تمكن المؤرخ التركي الكبير محمد فؤاد كوبريلي، من أن يقوّم هذه الأخطاء في العقد الثاني من القرن العشرين، بكتابه قيام الدولة العثمانية "**عثمانلي دولتنك قورولوشي**"، ويرد على ادعاءات بعض كبار المستشرقين الذين كتبوا في الموضوع مثل جيبونز Gibbons الذي تحدث سنة ١٩١٦م عن "**تأسيس الإمبراطورية العثمانية**" في كتابه The Foundation of the Ottoman Empire

(١) تذكر الأساطير أن أرطغرل بن سليمان شاه التركماني كان قائد إحدى قبائل الترك النازحين من سهول آسيا الغربية إلى بلاد آسيا الصغرى. وعندما كان راجعاً إلى بلاد العجم بعد موت أبيه غرقاً عند اجتيازه أحد الأنهر، شاهد جيشين مشتبكين. فوقف على مرتفع من الأرض ليمتع نظره بهذا المنظر المألوف لدى الرحل من القبائل الحربية. ولما آنس الضعف في أحد الجيشين وتحقق انكساره وخذلانه إن لم يُمد له يد المساعدة، دبت فيه النخوة الحربية، ونزل هو وفرسانه مسرعين لنجدة أضعف الجيشين. وهاجم الجيش الثاني بقوة وشجاعة عظيمتين، حتى وقع الرعب في قلوب الذين كادوا يفوزون بالنصر، لولا هذا المدد الفجائي، وأعمل فيهم السيف والرمح ضرباً ووخزاً حتى هزمهم شر هزيمة وكان ذلك في أواخر القرن السابع للهجرة.

وبعد تمام النصر علم أرطغرل بأن الله قد قيضه لنجدة الأمير علاء الدين سلطان قونية التي تعتبر إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب انحلال دولة آل سلجوق بموت السلطان (ملك شاه) في ١٨ نوفمبر ١٠٩٢ (١٥ شوال ٤٨٥هـ). فكافأه علاء الدين على مساعدته له بإقطاعه عدة أقاليم ومدن. وصار لا يعتمد في حروبه مع مجاورية، إلا عليه وعلى رجاله. وكان عقب كل انتصار، يقطعه أراض جديدة، ويمنحه أموالاً جزيلة؛ ثم لقب قبيلته بمقدمة السلطان، لوجودها دائماً في مقدمة الجيوش، وتمام النصر على يديه.

وفي غضون ذلك تزوج عثمان ببنت رجل صالح يدعى (الشيخ أده بالي). كان رآها مصادفة عند والدها وعلق بها، ولكن الدها أبى أن يزوجها له، فحزن عثمان لذلك وأظهر الصبر والجلد. ولم يرغب الاقتران بغيرها، حتى قبل أبوها، بعد أن قص عليه عثمان مناماً رآه ذات ليلة في بيت هذا الصالح. وهو أنه رأى القمر يصعد من صدر هذا الشيخ، وبعد أن صار بدراً، نزل في صدره أي في صدر عثمان. ثم خرجت من صلبه شجرة نمت في الحال غطت الأكوان بظلها. ونظر فوجد أكبر الجبال تحتها وخرج النيل والدجلة والفرات والطونة من جذعها. ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف يحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية. فتفاءل الشيخ من هذا المنام وزوجه ابنته (مال خاتون). (محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص٣٩، ٤٠ نسخة بالأوفست صورتها دار الجيل، بيروت ١٩٧٧).

وقد اتضحت معالم الموضوع، بعد أن كتب فيه كوبريلي، وأصبح الجميع يعتقدون في آرائه في هذا الصدد ويأخذون بأقواله في هذا الموضوع.

يقول جيبونز:[1]

إن أرطغرل[2] أبا عثمان كان رئيس قبيلة صغيرة وفدت على الأناضول في عهد السلطان السلجوقي علاء الدين الأول فارة من خوارزم أمام زحف جنكيزخان، واستقرت في سكود Sögût في شمال غرب الأناضول.

كان عثمان وقبيلته وثنيين رعاة، فلما استقروا في المناطق الإسلامية بالأناضول اعتنقوا الإسلام كمن سبقهم من الترك.

وأثار فيهم الإسلام تعصباً شديداً، حملهم على إرغام جيرانهم الإغريق على اعتناق الإسلام. ولم يكن تحت إمرة عثمان قبل دخوله في الإسلام إلا أربعمائة محارب يقيمون في دورهم ويزاولون حياة وادعة.

ولكن عدد العثمانيين ما لبث أن ضوعف بين سنتي ١٢٩٠-١٣٠٠م، وامتدت حدودهم حتى جاورت حدود البيزنطيين. وأدى ذلك إلى ظهور جنس جديد انتسب إلى رئيسه، ألا وهو الجنس العثماني. ولم يكن هذا الجنس تركياً خالصاً منذ بداية أمره، ولكنه كان جنساً جديداً مختلطاً قوامه الترك الذين كانوا على الوثنية والإغريق الذين كانوا على المسيحية ثم أسلموا جميعاً.

---

(١) آراء جيبونز وكوبريلي مختصرة عن ترجمة للدكتور أحمد السعيد سليمان لكتاب محمد فؤاد كوبريلي: قيام الدولة العثمانية، القاهرة ١٩٦٧. وقد استعنت في ذلك أيضاً بما ورد في "مذكرات في تاريخ الدولة العثمانية" للدكتور أحمد السعيد سليمان.

(٢) يوجد قبر أرطغرل في سكود، وصورته في كتاب:
(Dr.Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt 1, s. 128)

ويرى جيبونز خطأ تعليل زيادة العثمانيين الكبيرة في وقت قصير بالإمدادات البدوية الجديدة الوافدة من الشرق، لأن أراضي العثمانيين كانت تقع في أقصى غرب الأناضول. وكان لابد للكتل التركية لكي تبلغ ذلك المكان أن تلتحق أولاً بخدمة حكام آخرين في شرق الأناضول، وأن تأخذ منهم أراضي. ومن هنا لا يمكن عنده تعليل هذه الزيادة، إلا بذوبان العنصر المحلي المكون كله من الإغريق. هذا عن الأناضول.

أما عن توطن العثمانيين في البلقان، فيرى جيبونز أنه لا يمكن تعليله بمجرد الهجرة ثم ذوبان العناصر المحلية، بل يجب أن نُدخل في اعتبارنا الموقف في بيزنطة وفي البلقان وفي العالم الغربي، بالإضافة إلى قوة شخصية السلاطين العثمانيين. ولجيبونز رأي خاص في دخول نصارى البلقان في الإسلام خلاصته، أن هؤلاء النصارى لم يعيشوا مع المسلمين قروناً طويلة كما عاش نصارى الأناضول، ولهذا ابتُدعت في عهد السلطان مراد الأول ٧٦١-٧٩٢هـ (١٣٥٩-١٣٨٩م) طرق لإدخالهم في الإسلام. من هذه الطرق أن أسارى الحرب كانوا يعتقون من الرق، إذا هم دخلوا في الإسلام. ولكن، لما كانت نتائج هذه الوسيلة من وسائل نشر الإسلام محدودة، فقد أسس العثمانيون الجيش الانكشاري ووضعوا نظام الدوشرمة[1] الذي يدخل الشباب المسيحيين كرهاً في الإسلام.

ولقد كانت العناصر الإغريقية والصقلية تفضل أن تدخل في الإسلام أفواجاً على أن تسلم أبناءها للعثمانيين. وإذا ذكرنا أن الجيش الانكشاري لم يكن له حتى في القرن التاسع الهجري (**الخامس عشر الميلادي**) أهمية عددية، ولم

---

(١) انظر "الدوشرمة" في عهد السلطان محمد الأول في هذا الكتاب ص ٩٦.

يكوّن العنصر الأساسي في الجيش العثماني؛ رجحنا أنه لم يكن تشكيلا يراد به زيادة القوة العسكرية، وأنه إنما كان ببساطة وسيلة لنشر الإسلام.

هذه هي أفكار جيبونز وآراؤه، وقد لاحظ المؤرخ التركي محمد فؤاد كوبريلي عليه: أنه يحاول إرجاع قيام الدولة العثمانية لسبب ديني محض. وأنه اعتقد أن الدخول في الإسلام أظهر جنساً جديداً هو الجنس العثماني.

ثم إنه لم ينظر في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للعناصر التركية المتوطنة في الأناضول، والمشابهة للعثمانيين والمعاصرة لهم، مع أن من بينها عناصر أقامت دولاً كانت من القوة بحيث دفعت لهم بيزنطة الجزية.

ويعترف كوبريلي أن الإسلام كان ينتشر في نصارى الأناضول في العصر السلجوقي، وأن بعض رجالات الدولة السلجوقية كانوا حديثي عهد بالإسلام ، وأن منهم من كان ينتمي إلى الأرستقراطية البيزنطية كأسرة كومنين، وأن بعض العلماء والصناع في عصر سلاجقة الروم (٤٧١-٧٠٨هـ = ١٠٧٨-١٣٠٨م) قد تحولوا هم بأنفسهم أو تحول آباؤهم عن المسيحية إلى الإسلام. ويعلل كوبريلي لانتشار الإسلام، بأن المخالطة الطويلة، وما كان للمسلمين من مركز خاص في إدارة الدولة، ورغبة غير المسلمين في التخلص من بعض التكاليف، كل ذلك كان من العوامل السيكولوجية والاقتصادية التي ساعدت على حركة الدخول في الإسلام.

ويرى كوبريلي أن انتشار الإسلام في نصارى شرق الأناضول ووسطه لم يبلغ في العهدين السلجوقي والإيلخاني مبلغاً كبيراً. ويستند في ذلك إلى ما أورده المؤرخ الأقسرايي من أن الجزية التي كانت تجبي من نصارى هذه المناطق

كانت تكون في القرن السابع الهجري (**الثالث عشر الميلادي**) قسماً هاماً من الإيرادات العامة.

وأما عن انتشار الإسلام في غرب الأناضول، فيرى أنه لم يكن سريعاً ولا جماعياً كما تصور جيبونز. ويستند كوبريلي في ذلك إلى ما ورد في بعض الوثائق الرسمية من أن كثيراً من قرى غرب الأناضول، كانت لا تزال آهلة بالنصارى في عهد السلطانين العثمانيين محمد الأول ٨١٦ـ٨٢٤هـ (١٤١٣ـ١٤٢١م) ومحمد الفاتح ٨٥٥ـ٨٨٦هـ (١٤٥١ـ١٤٨١م). أما عن الزيادة السكانية وكثافة الكتلة الإسلامية في إمارات غرب الأناضول، فيعللها كوبريلي بأن هذه الإمارات كانت مهيأة بحكم موقعها للتزايد المطرد في السكان إذ كانت تتدفق عليها باستمرار عناصر تركية وإسلامية. ويعترف كوبريلي بأن قسماً كبيراً من نصارى غرب الأناضول قد هُدي إلى الإسلام في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (**الرابع عشر الميلادي**)، وذلك بسبب تفوق العنصر الإسلامي من ناحية، وتهافت الكنيسة وعجزها عن السيطرة على جمهور المسيحيين من ناحية أخرى. فقد أدى هذا الضعف في الكنيسة مع سعي المسيحيين إلى تحقيق مصالحهم الاقتصادية إلى زيادة الدخول في الإسلام. وقد دخلت في الإسلام عناصر مسيحية كانت على خلاف مع الكنيسة، فأدرجتها الكنيسة في فرق الهراطقة.

ويخلص كوبريلي من كل هذا إلى القول بأن الدخول في الإسلام في الأناضول قد تم ببطء وبنسبة محدودة إبان تكوّن الدولة العثمانية، وأن نسبة الدخول في الإسلام لم ترتفع في عهد العثمانيين إلا بعد أن رسخت أقدامهم في البلقان أي في القرن التاسع الهجري (**الخامس عشر الميلادي**) على الأكثر. ثم ما زال الدخول

في الإسلام يتزايد بعد ذلك في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (السادس عشر والسابع عشر الميلاديين).

أما عن ادعاء جيبونز بأن اختلاط الترك بالإغريق أدى إلى ظهور جنس جديد هو الجنس العثماني، فيرد عليه كوبريلي قائلاً أن جيبونز لم يفهم المصادر العثمانية. وذلك أن كلمة عثماني اصطلاح سياسي لا أنتوغرافي. كان يُطلق في كتب المؤرخين العثمانيين القدماء على طبقة رجال الحكومة والإدارة التي تعيش في خدمة الدولة وتتقاضى منها الأجر.

وبعد أن فند كوبريلي أقوال جيبونز، أورد نظريته في قيام الدولة العثمانية، وهي تتلخص فيما يأتي:

في أواخر القرن السابع الهجري (أواخر الثالث عشر الميلادي) كان أرطغرل ثم عثمان[1] من بعده رئيسين لعشيرة من عشائر الحدود، تنتمي إلى قبيلة (قايي)، وكانت هذه العشيرة تخضع نظرياً لسلاطين السلاجقة في قونية ثم للإيلخانيين. وكان موطن هذه العشيرة هو منطقة دريليام Drylaeum (أسكى شَهِر) الواقعة على الحدود التركية البيزنطية[2].

وما أن ولى عثمان[3] (١٢٩٩ـ١٣٢٦هـ = ٦٩٩ـ٧٢٦م) رياسة عشيرته[1]، حتى أخذ يوسع أراضيه بالتدريج، مستغلاً الفوضى والإهمال

(١) وُلد عثمان سنة ١٢٥٨م تقريباً في سكود Sögüt في الشمال الغربي لآسيا الصغرى.
(Stanford Shaw: Op. Cit., P. 13)

(٢) انظر خريطة "مهد الدولة العثمانية" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (١).

(٣) لُقب حكام العثمانيين الثلاثة الأول، وهم عثمان وأورخان ومراد الأول بلقب "بك". أما البقية الباقية فلقبت بـ "سلطان". أنظر ص: ر، من مقدمة د. أحمد السعيد سليمان. لترجمة كتاب محمد فؤاد كوبريلي: قيام الدولة العثمانية).

=

المسيطرين على الأراضي البيزنطية بالأناضول، ولم يكن قد بقي للبيزنطيين في تلك المنطقة غير الركن الشمالي الغربي للأناضول وشريط حول بحري مرمره وأيجه ومنطقة طرابزون.

و"بك" لقب شاع استعماله عند الترك القدامى والألتائيين ثم انتقل إلى العثمانيين. يقول بعض الباحثين أنه مأخوذ من اللقب الصيني القديم بك، ويذكر البعض الآخر أنه مأخوذ من كلمة باغه التي كانت تطلق على حكام السامانيين. ويقول محمد فؤاد كوبريلي في دائرة المعارف الإسلامية: على أي ما يكون منشأ هذا اللقب، فقد استعمله العثمانيون أولاً ثم أخذه الألتائيون عنهم.

(Mehmet Zeki Pakalın: Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, cilt I. S. 213 Ist. 1971)

وكلمة "سلطان" كلمة سريانية الأصل تعني "صاحب القدرة". وهي لقب أطلق على الحكام المسلمين خاصة السنيين منهم. كانت هذه الكلمة تُطلق في إيران على الولاة والأمراء. وقد أطلق ابن بطوطة في كتابه كلمة "سلطان" على حكام البلاد الصغيرة عندما كان يتجول في الأناضول، حتى أنه ذكر هذا اللقب قرين اسم أورخان الغازي أيضاً. أما أولياچلبي فلم يكن على حق حين أطلق على الحكام العثمانيين حتى السلطان محمد الفاتح لقب "بك"، واستعمل لقب سلطان في المخطوطات والنقود (اعتباراً من أورخان الغازي في المخطوطات، وابتداء من مراد الأول في السكة). ويُطلق عليهم في المصادر المصرية والإيرانية لقب "بك" أو "ملك الروم". أما ابن إياس فقد ذكر الفاتح بلقب "السلطان المعظم" عندما كان يتحدث عن وفاته.

وتذكر كتب التاريخ العثماني أن سلطان المماليك طلب من الخليفة العباسي في مصر أن يمنح بايزيد الصاعقة لقب "سلطان" بعد انتصاره في معركة نيكوبوليس سنة ١٣٩٦م

(Bir Heyet: Mufassal Osmanlı Tarihi. Cilt I, s.73 Ist 1958)

ويقال أن ذلك حدث بعد أن ضم بايزيد إمارات الأناضول، لكي يكسب عمله صفة الشرعية كما سيجيء شرحه.

(١) اقتنع الأمراء الذين تركوا ولاءهم للسلاجقة وانضموا لخدمة العثمانيين بأن مجيء علاء الدين كيقباد إلى إيران ينبئ بنهاية دولة السلاجقة. كما وثقوا في أن إدارة دولة السلاجقة سوف تنتقل إلى أيدي المغول. ومن المحتمل أن يغتصب السلاجقة رئاسة قبيلة قايي التي ينتسب إليها عثمان، إلا أن رئاسة القبيلة ستعود يوماً في أبناء القبيلة ذاتها. وقد حان الوقت في نظرهم لتولي عثمان بك رئاسة هذه العشيرة. وأجمع رأي كبار رجال العشيرة على احتمال مهاجمة المغول لهم، وفي هذه الحالة ستكون هناك دولة قوية مستقلة قد تأسست، فتواجههم وتصدهم، لهذا قرر كبار رجال العشيرة وبكوات التركمان، والأمراء السلاجقة الذين رحلوا في طاعة العثمانيين، ضرورة أن يكون في هذه المنطقة حاكم يدافع عنها، فقد استولى المغول على دولة السلاجقة وقضوا عليها، ولم ينجح أمراء السلاجقة في إحياء دولتهم، ولم يتفقوا على اختيار حاكم لهم.

وعثمان بك تنطبق عليه الشروط، فهو جسور وجرئ وكريم يتحلى بالأخلاق الحميدة. وهو من نسل قايي من ناحية، ومسلم ومتدين من ناحية أخرى. ثم أخبروه بما أجمعوا عليه، فوافق

(Bir Heyet: Adigeçen Eser, cilt I, s. 49.)

ولما كانت بيزنطة مشغولة بالقلاقل والفتن في العاصمة وفي البلقان، فإنها لم تستطع ــ لمدة طويلة ــ أن تتحرك على نطاق واسع ضد العثمانيين، فسقطت في يد العثمانيين أماكن كثيرة، كان عليها أن تدافع عن نفسها بقوتها المحلية.

كان أول صدام بين البيزنطيين وعثمان الذي كان يــــهدد نيقيــه Nicaea **(إزنيق)** العاصمة البيزنطية السابقة، هو المعركة التي خاضها البيزنطيون فــــي بافيون Baphaeon **(قوين حصار)** بقيادة موزالون Muzalon في صيـــف سـنة ١٣٠١م.[١] وقد طارت شهرة عثمان بعد أن هُزم الجيش الإمبراطوري المكـون من ألفي رجل في هذه المعركة.[٢]

وتُعتبر **"ينى شَهر"**[٣] أول مدينة هامة في أملاك عثمـــان، فقــد اســتولى عليها، وجعلها عاصمة له، وبدأ بعد هذه الخطوة يحــول أتباعــه مــن الحيــاة الرعوية إلى حياة أكثر استقراراً. ثم اجتاح عثمان ومحاربوه سهول **"إينــــه گول"** إلى الشرق من نهر سقاريه، وهي تشمل حصون **"بيله جك"** و **"يـــار حصـــار"**. وبهذا فصل الأراضي الموصلة بين بروصه عاصمة بيثينيا Bithynia البيزنطية ونيقية، تاركاً البيزنطيين في المنطقة يتصلون بالقسطنطينية بالبحر فقــط عــن طريق مودانيا وبعض الموانئ الصغيرة على بحر مرمره. ولما انهارت دولـــة السلاجقة واختفت، فإن العثمانيين كغيرهم من التركمان في الأناضول يبدو أنــهم وافقوا على الخضوع للإيلخانيين، مقدمين الجزية المنظمة والمحاربين. ولـــهذا ترك المغول بالشرق عثمان وأتباعه أحراراً من أي تحكم مباشر أو اعتراض.

---

(١) د. أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، ص١٨٠.

(2) Dr. Halil Inalcik: Op. Cit., P.6

(٣) يكى شهر: كلمة تركية معناها المدينة الجديدة، يكى بمعنى جديد، وشهر بمعنى مدينة.

وبعد تأسيس الإمارة العثمانية في "**يني شهر**"، صرف عثمان بقية أيام حكمه في التوسع في اتجاهين: إلى الشمال حتى نهر سقاريه باتجاه البحر الأسود، وإلى الجنوب الغربي باتجاه بحر مرمره، محققاً أهدافه في كلا الاتجاهين حتى سنة ١٣٠٨م. وبهذا عزل آخر مدينة بيزنطية هامة في المنطقة وهي بروصه[١] التي تقع أسفل جبل أوليمبس (**اولو طاغ**). إنها لا تزال محصنة تحصيناً جيداً، ولا زال البيزنطيون قادرين على الاستمرار في فتح طرق الاتصال الخاصة بهم مع البحر، فلا زالوا يتلقون حاجياتهم من الإمدادات من القسطنطينية، ولا زالوا قادرين على الصمود مدة طويلة بعد سقوط المناطق المحيطة ببروصه في أيدي العثمانيين. ولكن عندما استولى عثمان على مودانيا، قطع آخر اتصال بين بروصه والعالم الخارجي سنة ١٣٢١م (٧٢١هـ).[٢] وكان على المدافعين عنها أن يقدموا الجزية للمغيرين لمدة خمس سنوات، لكي يضمنوا احتفاظهم بها، إلا أنها سقطت في النهاية في ٦ أبريل سنة ١٣٢٦م (٢ جمادي الأولى ٧٢٦هـ) على يد الجيش الذي قاده أورخان بن عثمان الذي يُعتبر قائم مقام أبيه الحقيقي في شئون الحرب والسياسة منذ ذلك الوقت.

كان فتح بروصه خطوة هامة إلى الأمام بالنسبة للعثمانيين. فقد تغيرت أملاكهم من إمارة ذات تخوم بدوية، إلى ولاية حقيقية، ذات عاصمة، وحدود،

---

(١) تقع بروصه (بروسه) عند سفح جبل أوليمبس Olympus الذي يسمى بالتركية (أولو طاغ) أي الجبل الكبير، وقد دُفن في هذه المدينة الستة الأول من حكام آل عثمان، وهم: عثمان، أورخان، مراد الأول، بايزيد الأول، محمد الأول، مراد الثاني. ولما فتح سابع السلاطين محمد الفاتح القسطنطينية، دُفن فيها السلاطين الباقون من آل عثمان، وأقدم جامع في بروصه هو "أولو جامع" الذي بناه مراد الأول.

(2) Ismail Hami Danişmend: Izahli Osmanlı Tarihi Kronolojisi, cilt I, s. 10 Istanbul 1971

وسكان مستقرين، ولديها الوسائل لتكوين جيش منظم للدفاع عنها ولتوسيع أملاكها، في الوقت الذي تملك فيه إدارة لتصريف شئون الحكم.

وأصبح العثمانيون مستقلين تماماً عن الإيلخانيين في كل شيء.(١)

ومن الجدير بالذكر أن أسلوب العثمانيين في الفتح كان يعتمد في المقام الأول على الحصار لمدة طويلة، وما كانوا يلجأون كثيراً إلى الفتح عنوة أو بالقوة.

وخلال الفترة التي حكم فيها عثمان لم يكن للعثمانيين اتصال فعلي بجيرانهم الشرقيين مثل الإمارات الشرقية أو القوة القرامانية، وكان احتكاكهم في الواقع يتم مع جيرانهم الغربيين مثل **"قراسي"** ووديان سقاريا. وقد تمكن عثمان من فتح بروسه، لتأمين حدوده. واضطر حاكمها أورنوس Evrenos إلى الاستسلام أمام القوة العثمانية، لما تأكد من ضعف القصر البيزنطي وتهالكه. وقد اعتنق الإسلام فيما بعد(٢) ودخل في خدمة الجيش العثماني. وتبعه آخرون من القواد الذين اجتذبتهم روح الإسلام السمحة وأضناهم النزاع البيزنطي.(٣)

وبدأ المتصارعون على العرش البيزنطي في القسطنطينية، يتجهون نحو العثمانيين طلباً للمساعدة في ذلك الوقت، فأصبح العثمانيون المساعدين للأباطرة والأمراء البيزنطيين على السواء. وكانت هذه القوات مفتوحة الأعين على مدى ما بلغه البيزنطيون من ضعف، وعلى الفرص المواتية للفوز عليهم(٤) .

---

(1) Stanford Shaw: Op. Cit., P. 14

(٢) خلط الأوروبيون في ذلك الوقت بين التركي والمسلم، وأطلقوا على من أسلم لفظ تركي
(Bernard Lewis: The Emergence of Modern Turkey, P.13 London 1968)

(3) Philips Price A History of Turkey, from Empire to republic, PP. 36,37 London 1961

(٤) انظر خريطة "عهد السلطان عثمان" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (٢).

وفي عهد أورخان[1] ١٣٢٦ـ١٣٥٩م (٧٢٦ـ٧٦١هـ) وُفق العثمانيون في الاستيلاء على نيقيه في ٢ مارس ١٣٣١م (٧٣١هـ). وقد جعلها أورخان عاصمة مؤقتة لإمارته بعد فتحها مباشرة، لقربها من ساحة القتال.[2]

وبعد ست سنوات من الحصار لمدينة نيقوميديا Nicomedia (إزميد) ــ التي تعد مركزاً تجارياً ــ تمت للعثمانيين السيطرة عليها بعد أن قطعوا اتصالها بالقسطنطينية، واستولوا على القلاع المحيطة بها. وفي السنة التالية فتحوا سكوتاري Scutari (أسكُدار).

وهكذا فتح أورخان معظم أراضي البيزنطيين في شمال غرب الأناضول بعد أن واجه بعض الصعوبات. وقد جعلت هذه الفتوحات إمارة العثمانيين واحدة من أقوى الإمارات في المنطقة، وقوت مركزها كرائدة للحرب ضد "**الكفار**". وكانت طرابزون في شمال شرق الأناضول لا تزال بيزنطية مستقلة عن القسطنطينية منذ الحرب الصليبية الرابعة. ولا زال البيزنطيون يسيطرون سيطرة مباشرة على الشريط الساحلي في غرب الأناضول الذي يمتد من "**شيله**"

---

(١) أوصى عثمان بالعرش ــ وهو على فراش الموت ــ لابنه الثاني أورخان لتمتعه بالشجاعة والإقدام، ولم يوص به لبكر أولاده علاء الدين لميله للورع والعزلة. ولم يعترض الابن الأكبر على هذه الوصية التي حرمته من السلطنة، بل قبلها بصدر رحب، ولم ينازع أخاه على الملك
ثم أوصى عثمان ولده أورخان بوصايا ثلاث، لكي يتمسك بها وهو يدير دفة الحكم، فقال:
أولاً: تمسك في كل أمورك بالشريعة الغراء، وشاور في المهمات أهل الرأي والدهاء.
ثانياً: أعط كل ذي حق حقه من التكريم والإنعام من الخواص والعوام لاسيما العلماء الأعلام الذين هم دعائم دين الإسلام لتكون من العاملين على تحقيق القول المشهور (خير الناس أنفعهم للناس).
ثالثاً: حيث أنك خليفتي من بعدي فتنبه لما هو أعظم ركن من أركان هذا المقام وهو (التعظيم لأوامر الله والشفقة على خلق الله)، واطلب العاقبة الطيبة بعد "إعلاء كلمة الله والغزو في سبيله".
(أحمد جودت: تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا، م١، ص٣٨،٣٩)

(٢) يؤكد الرحالة ابن بطوطة على ذلك عندما كان يتجول في الأناضول سنة ١٣٣٣م (٧٣٣هـ)، ويذهب المؤرخ سعد الدين مذهبه: (Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt I, s. 121)

على البحر الأسود حتى اسكدار؛ وكذلك مدينة أما ستريس، ولكنها كانت منعزلة تماماً ومشتتة لا تقدر على المقاومة الفعلية للعثمانية.

وسّع أورخان نشاطه أيضاً بحمايته لأراضي أمور بك (حكم ١٣٤٠ـ١٣٤٨م = ٧٤١ـ٧٤٩هـ) حول "**كوينوك**" على بحر مرمره[١] مثلما فعل مع إمارة قراسي ناحية الغرب. وقد حصل لذلك على امتيازات في الأجزاء الداخلية بتحالفه مع طرف ثم مع الطرف الآخر. وتلقى بعض الأراضي من كلا الطرفين مكافأة له عام ١٣٤٥م. وربما كان الاستيلاء على إمارة قراسي ضرورة ملحة بالنسبة للعثمانيين أكثر من انتصارهم على البيزنطيين، منذ أن مهدت لهم الطريق للوصول إلى چناق قلعة عبر الدردنيل من شبه جزيرة غاليبولي حتى تمكنوا من التحكم في الشاطئ الجنوبي لبحر مرمره تماماً. ومكنتهم من عبور الدردنيل إلى أوروبا حينما لاحت الفرصة أمامهم،[٢] وقد تمكن العثمانيون من ضم إمارة قراسي سنة ١٣٤٧م (٧٤٧هـ)[٣]، وهي أول

---

(١) تولى عمر بك ابن محمد المعروف باسم أمور بك إمارة آيدين سنة ١٣٤٠م (٧٤١هـ). وقد كون أسطولاً قوياً اقتحم به البلقان مرات كثيرة. ولكن الفرنجة استطاعوا بمساعدة البابا أن يكوّنوا أسطولاً صليبياً أحرق سفن أمور بك في، إزمير، واستولوا عليها سنة ١٣٤٤م (٧٤٢هـ) (د. أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، جـ٢، ص٢١٠)، فطلب أمور بك حماية أورخان له.

(2) Stanford Shaw: Op. Cit, vol.I, P. 14

(٣) توفي قراسي بك قبل سنة ١٣٢٨م، وبعد وفاته تصارع أبناؤه الثلاثة على العرش. فتولى دميرخان "باليكسر" وتولى يخشى برغمه، والتجأ طورسون إلى أورخان يطلب مساعدته تاركاً له بعض المناطق نظير المساعدة المنتظمة. تحرك أورخان ومعه طورسون إلى باليكسر، ففر منها دميرخان إلى برغمه، فلحق به أخوه طورسون واتفق معه على الصلح. وبعدها أصيب دميرخان بسهم من إحدى قلاع المدينة فخر صريعاً. وبناء عليه ألحق أورخان باليكسر وبعض المناطق الاخرى بإمارته. ثم حاصر برغمه، فاستسلم له يخشى طالباً العفو. وتمكن أورخان من ضم برغمه أيضاً. وبعدها البقية الباقية من إمارة قراسي ١٣٤٧م (٧٤٧هـ).

(Dr. Ismail Hakkı. Adigeçen Eser, cilt I, s. 78,79 :انظر)

ولاية إسلامية في الأناضول فتحها العثمانيون . وقد تـــم هـــذا الفتـــح بعـــد أن ساعدتهم هذه الإمارة كما أسلفنا ، لأنها كانت تملك أسطولاً قوياً غزت به البلقان مرات.(١)

وبهذه الفتوحات في غرب الأناضول، أصبح العثمانيون متحكميـــن فـــي المنطقة المواجهة لأوروبا، ومسيطرين على مضيق الدردنيل، فقد سقطت فـــي أيديهم أهم المدن في تلك المنطقة.

لم يكن لسقوط بروسه ونيقية ونيقوميديا صدى يُذكر في أوروبا. فظـــهور العثمانيين حدث دون أن يلقى إليه العالم المسيحي بالاً حتى البيزنطيون أنفســهم. والسبب في هذا راجع أولاً إلى الخلاف داخل الإمبراطورية حول العرش، ثـــم النزاع بين اللاتين والسلاف للسيطرة على أجزاء من الإمبراطورية البيزنطيـــة. وثانياً أن العالم المسيحي حين تنبه إلى الخطر الإسلامي، لم يكن هذا الخطر في ظنه من ناحية العثمانيين، بل كان يحس فقط بخطر الإمارات التركية المســـلمة المطلة على بحر أيجه، ولاسيما صاروخان وآيدين لوقوعهما على بحر أيجـــه، ولأن نشاطهما كان لاشك يعرقل تجارة عناصر اللاتين في هذا البحر.

وفي سنة (١٣٢٧م) ٧٢٧هـ أرسل أندرونيكس الثاني إلى البابا يوحنـــا الثاني والعشرين موجهاً نظره إلى ما يتهدد العالم المسيحي من ناحية الأتـــراك ويطلب منه المساعدة، ولكن لم يتمخض هذا الطلب عـــن شـــيء. وفـــي عـــام (١٣٣٣م) ٧٣٣هـ فاتح أندرونيكس الثالث البابا يوحنـــا فـــي أمـــر الخطـــر الإسلامي. وفي نفس السنة أخذت البندقية تدعو كلا من رودس وقـــبرص إلـــى

---

(١) د. أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، جـ٢، ص٣٠١.

الاشتراك في حملة ضد الأتراك. ولم تتمحض كل هذه الاتصالات بين البابا والبيزنطيين والبندقية في عهد أورخان إلا عن سقوط نيقوميديا في أيدي العثمانيين. على أن هذه اليقظة التي انتابت أوروبا من ناحية الخطر الإسلامي لم تسبب ضرراً لأورخان بل على العكس أفادته إلى حد بعيد، فقد أضعفت من ألد أعدائه في الأناضول وهم أمراء صاروخان وآيدين. ولذلك نجد أورخان بعد عام (١٣٤٠م) ٧٤٠هـ يستعد لمد أملاكه في أوروبا،[١] خاصة بعد أن استولى ابنه سليمان على أنقره[٢] عام (١٣٥٤م) ٧٥٥هـ، لكي تكون نقطة حصينة لأراضيه في الشرق.[٣]

والآن أصبحت الدولة العثمانية تشتمل على أربعة أقاليم: هي:

١ – الإمارة الأصلية، وتشمل سكود واسكى شهر.

٢ – إقليم السلطان الحاكم، ويضم بورصة وإزنيق، وتحكم على أنها من أملاك أورخان الخاصة.

٣ – "**قوجه الى**"، وتشمل إزميد.

٤ – إمارة قراسي، وتشمل باليكسر Palaeocastro وبرغمه Pergamum (بالتركية **Bergama**).[٤]

(١) د. محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي ص٢٢،٢٣ القاهرة ١٩٧٧.

(٢) كانت في يد أبناء علاء الدين أرتنا.

(3) Dr Ismail Hakkı Adigeçen Eser, cilt I, s 124

فقد مراد الأول أنقره في بداية عهده، ثم استردها مرة أخرى، كما سنوضحه فيما بعد.

(4) Stanford Shaw: Op. Cit., vol. I, P116

نواة الجيش العثماني:

عين أورخان بعد توليه العرش أخاه الأكبر علاء الدين صدراً أعظم، وكان علاء الدين أكبر عون لأخيه في كل فتوحاته، كما كان يهتم إلى جانب ذلك بالشئون الداخلية أيضاً، فقد سك العملة باسم أخيه،[١] ونسق اللباس العثماني ونظم الجيش. وفي صدارته، وبعد أن تمت للعثمانيين بعض هذه الفتوح، قدم إليه أحد كبار رجال الدولة ويدعي چاندرلي قره خليل فكرة إنشاء جيش منظم جديد.

أمر أورخان بعقد مجلس للمشورة حضره أخوه علاء الدين وقره خليل، لبحث وضع أسس التشكيلات الجديدة وأنظمتها. وكان بينها تقدير رواتب للعساكر، بلغت ربع درهم للواحد منهم. ومن الجدير بالذكر أن هذه الرواتب كانت تصرف للجند ساعة الحرب، وبانتهائها تقطع ويعود الجند إلى ديارهم وأعمالهم. وكانت هذه التشكيلات تتكون من "يايا" أى مشاة، و"مسلّمين".[٢] ويزداد عددها كلما اتسعت رقعة الدولة. وقد ظهرت الحاجة ماسة إلى تعديلها شيئاً ما في المستقبل، نظراً لأنها لم تكن كافية، وما كان من الممكن إحراز انتصار كبير والوضع كذلك. وقد أصيبت هذه القوات ببعض الهزائم، مما دفع السلطان مراد الأول للتفكير في تغييرها بفكرة أخرى، وهي فكرة إنشاء فرق الانكشارية[٣] التي سنتحدث عنها فيما بعد.

---

(١) أول عملة عثمانية ظهرت هي العملة التي سُكت من الفضة في عهد أورخان بمدينة بروصه ١٣٢٧م (٧٢٨هـ) أو ١٣٢٨م (٧٢٩هـ). ويُقال أن العملة الذهبية سُكت لأول مرة في الدولة العثمانية على عهد الفاتح، وفي قول آخر على عهد محمد چلبي (إسماعيل غالب بك: تقويم مسكوكات عثمانية، ص٢٢ استانبول ١٣٠٧م).

(٢) يُعتقد أن "المسلّمين" وضعوا أيديهم على أراض فيما بعد باعتبارهم "مسلّمين". (انظر: هاملتون جب وهارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، جـ١، حاشية ص٨٠، القاهرة ١٩٧١). ويبدو أنهم كانوا نواة السپاهية، وهم الجنود الإقطاعيون من الفرسان.

(3) Mehmet Zeki Pakalin: Adigeçen Eser, s. 617, 618

وتعتبر طائفتا "المشاة" و"المسلّمين" أولى طوائف العسكر لدى العثمانيين، وكان أفرادهما من الترك البدو على ما يبدو.[1]

وعلى الرغم من أن فكرة هاتين الطائفتين كانت بسيطة، والعدد كان محدوداً، إلا أنهما ساهمتا في تحمل مهام العبور إلى البر الأوروبي لمد الفتح العثماني هناك.

عبور العثمانيين إلى البلقان ورد الفعل لدى الأوروبيين:

شجعت أحوال الدولة البيزنطية المنهارة أورخان على اجتياز الدردنيل إلى البلقان[2]، فقد كان الصراع على العرش على أشده في تلك الفترة مما مكّن

---

(١) انظر: هاملتون جب وهارولد بوون: نفس المرجع، جـ١، ص٧٨.

(٢) عندما بدأ العثمانيون عبور الدردنيل إلى البلقان، كانت هناك دول كثيرة وإمارات تحكم هذه المنطقة: كان البيزنطيون يحكمون شرق تراقيا ومنطقة سلانيك وشبه جزيرة المورة وبعض المناطق المجاورة. وكان البلغار يحكمون شمال شرق البلقان. وكانت بلاد الصرب وسرز ومنطقة دراما تحت حكم الصرب. وكانت المنطقة التي تقع شمال نهر طونة ... وهي إمارات الصرب والأرناؤوط أو الأرناؤوط اللاتين تحت نفوذ جمهورية البندقية ومملكة نابولي. وكانت بعض موانئ جنوب شرق تراقيا تحت نفوذ جنوة. وكانت جزيرة أغريبوز والمدن الساحلية في المورة وبعض الموانئ الساحلية الأرناؤوطية على البحر الأدرياتيكي تحت حكم البنادقة. وكانت جمهورية راجوزة تقع في شبه الجزيرة الكائنة على سواحل دلماشيا في البحر الأدرياتيكي. وفي شمال غرب شبه جزيرة البلقان كانت مملكة البوسنة شبه المستقلة، التي انضوت فيما بعد تحت حكم المجر. وكان هناك أمراء متفرقون يحكمون المنطقة التي تشمل الحدود الشمالية لبلغاريا والساحل الشمالي للطونة ومنطقة دوبروجه في الأفلاق. وكانت دوبروجه نفسها تحت حكم أمير بلغاري.

هذه هي الدول والإمارات التي كانت موجودة عند بداية الفتح العثماني للبلقان. وكان النزاع الدائم بين دول البلقان القريبة من العثمانيين، مثل الروم والبلغار والصرب قد سهل على العثمانيين فتح البلقان. فبعد أن مات قيصر الصرب اصطفان دوشان، انقسمت بلاد الصرب ووزعت على الأمراء. وكان الروم والبلغار مشغولين بالنزاع الداخلي. وفضلاً عن ذلك كان ملك المجر لايوش الكبير (لودفيج)، متعصباً أشد التعصب للمذهب الكاثوليكي الذي يدين به. وبينما كان يفرض مذهبه بالعنف والقتل على البلقانيين الأرثوذكس، كان الفتح العثماني في هذه المناطق يمارس الحرية الدينية

=

العثمانيين من العبور إلى الجانب الآخر من أملاك البيزنطيين دون أن يتصدى لهم أحد.[١] وقد حانت الفرصة بعد وفاة الإمبراطور البيزنطي أندرونيكس الثالث ١٣٤١م ، وتنازع يوحنا السادس كانتا كوزين ويوحنا الخامس باليولوغوس على العرش. استنجد يوحنا السادس كانتا كوزين بأورخان ضد منافسه يوحنا الخامس باليولوغوس الذي طلب العون من أمير آيدين التركي أُمُور بك. وفي سنة ١٣٤٤م فشل أُمُور بك في مساعدة حليفه. فسارع كانتاكوزين بالإلحاح على آروخان لكي يسرع فى مساعدته . عبرت قوة من الجيش العثماني إلى الدردنيل إلى تراقيا عام ١٣٤٥م (٧٤٥هـ) تحت قيادة سليمان باشا أكبر أبناء أورخان، وساعدت هذه القوة المكونة من ستة آلاف جندي تقريباً الإمبراطور على اعتلاء العرش، بعد أن استولت على الشريط الساحلي الواقع على البحر الأسود شمال القسطنطينية وكان تابعاً لآن دي سافوى أم يوحنا الخامس. وقد كافأ كانتا كوزين أورخان على هذه المساعدة بأن زوجه ابنته تيودورا.[٢]

والوجدانية، ويتسامح في هذا الخصوص إلى أبعد الحدود مع هذه المناطق المفتوحة، رغم قدرة العثمانيين العسكرية الكبيرة. وهكذا كان العثمانيون يفتحون المدن والقلاع بسرعة، نظراً لقلة الاعتراض والمواجهة من قبل الأهالي. (Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt. I, s. 161,162)
لقد أنشأ العثمانيون إمبراطورية متحررة من جميع الأحقاد القومية والمحلية Cosmopolitan، تعامل كل العقائد والأجناس بمقياس واحد. فقد جمعت بين المسيحيين الأرثوذكس بالبلقان والمسلمين بالأناضول في دولة واحدة (Halil Inalcık: Op. Cit., P. 7)

(١) تذكر جمعية التاريخ العثماني "تاريخ عثماني انجمني" في كتابها: التاريخ العثماني "عثمانلي تاريخي"، ص٦٢١، أن العثمانيين عبروا بحر مرمره بعد أن استولوا على مودانيا (على الشاطئ الأسيوي للدردنيل) سنة ١٣٢١م (٧٢١هـ)، وأخذوا يتجولون في شرق تراقيا بقصد السلب والنهب لمدة ثمانية عشر شهراً، ثم عادوا إلى الأناضول مرة أخرى. وقد أفادتهم هذه الفرصة في معرفة هذه المنطقة. (نقلاً عن: Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt. I, s.155)

(2) انظر: Dr. Ismail Hakki: Adigeçen Eser , cilt. I, s. 155,156

وفي سنة ١٣٤٩م استولى اصطفان دوشان (١٣٣١ـ١٣٥٥م) على سلانيك، فاستنجد كانتا كوزين مرة أخرى بأورخان، الذي أرسل إليه ابنه سليمان على رأس عشرين ألف جندي.[1] تمكن سليمان من إرجاع سلانيك من الصربيين إلى البيزنطيين. وبعد فترة قصيرة هاجم كانتا كوزين باليولوجوس، فاستنجد الأخير بالصرب والبلغار وطلب الأول العون من أورخان كالعادة. وقد تمكّن سليمان من هزيمة هذه القوات في ديموطيقا ١٣٥٢م. وفي المقابل منح الإمبراطور العثمانيين قلعة تزيب Tzympe **(چيمپه)** على الدردنيل لكي تكون قاعدة لهم ينطلقون منها لمساعدته. وتعتبر هذه القلعة منطلقاً للعثمانيين في المستقبل، إذ منها تحرك سليمان شمالاً سنة ١٣٥٣م، ليس بقصد شن بعض الغارات فقط، ولكن لتكوين مقر دائم للحكم العثماني في بعض المدن مثل رودستو Rodosto **(تكير طاغ)**؛[2] مستغلاً تحالفه مع جنوه سنة ١٣٥٤م في تحقيق ذلك، خاصة وأن جنوه تريد أن تستفيد من العثمانيين في تحطيم مركز البندقية التجاري في الإمبراطورية البيزنطية.[3]

نصب أورخان خيامه في أسكدار المقابلة للقسطنطينية. وأرسل أسطولاً يتكون من ثلاثين مركباً وحرساً من الخيالة لإحضار العروس من السرادق المقام في معسكر الإمبراطور في سليمبريا Selumbria
(Lord Kinross: The Ottoman Centuries, The Rise and Fall of the Turkish Empire, P. 39 London 1977)

(١) عبر سليمان الدردنيل من منطقة "چناق قلعه"، ومعه من الأمراء "حاجي ايل بكي" و "أيجه بك Ece" و "غازي فاضل بك" و "أورنوس بك" و "بلابانجق أوغلي" واقچه قوجه أوغلي" و "قره حسن أوغلي". (Ismail Hami Danişmend: Adigeçen Eser, cilt I, s.27)

(٢) اعتاد العثمانيون على تغيير اسماء بعض المواقع والمدن والقواد والحكام الأجانب أحياناً، لكي تتمشى مع لسانهم. من ذلك مثلاً/ أن: "رودستو" عندهم هي تكير طاغ"، و "تزيب" هي "چمپه" و "بوخارست" هي "بكرش"، و "تيكوبوليس" هي "نيكبولي" ، و "ليبانت" هي "أينه بختي"، و "بافيون" هي "قوين حصار" ، وجبل "أوليمبس" هي "أولو طاغ".

(3) Stanford Shaw: Op. Cit. Vol.I, P.16

استفاد العثمانيون من عبور الدردنيل إلى تراقيا، فقد وقفوا على أحوال الدولة البيزنطية المنهارة من ناحية، واكتشفوا الطريق على الجانب الآخر من الدردنيل. فتوغلوا في منطقة تراقيا، وحاصروا مدينة غاليبولي المتحكمة في مدخل الدردنيل من ناحية أوروبا سنة ١٣٥٤م (٧٥٦هـ)، وقد ساعدهم على فتحها زلزال هدم بعض أسوارها في ٢ مارس سنة ١٣٥٤م. واعتبر العثمانيون غاليبولي منطقة متقدمة لعملياتهم العسكرية في أوروبا مستقبلاً.

اعترض الإمبراطور البيزنطي على توغل العثمانيين في تراقيا، ولكنه وجد مراوغة منهم، فاضطر لطلب المساعدة من الصرب والبلغار. ولكن دوره في استقدام العثمانيين إلى أوروبا مكن خصومه في القسطنطينية من أن يعزلوه عن العرش ١٣٥٥م، ويولوا مكانه باليولوغوس. ولكن الإمبراطور الجديد لم يكن خيراً من سلفه، فلم يستطع أن يقدم على شيء. وقد أُجْبر سنة ١٤٥٦م على الاعتراف بالفتوحات التي تمت على يد أورخان في أوروبا،[١] نظير سماح العثمانيين للأغذية والمؤن لكي تمر إلى القسطنطينية. وبدأ أورخان من ناحية أخرى يرسل أعداداً هائلة من قبائل التركمان إلى هذه المناطق كي يتمكن من تتريك تراقيا ويمنع كل الجهود الصليبية من أن تقذف بالعثمانيين خارج أوروبا. كانت هذه أولى ردود الفعل الشفوية للمسيحية الصليبية ضد الترك، ولم تتخذ خطوة عملية فورية ضدهم.[٢]

ومن الجدير بالذكر أن الجيش العثماني في القرن الرابع عشر الميلادي تقدم تقدماً ملحوظاً في التكتيك والتدريب عندما اندفع إلى أوروبا وأخذ مكانه فيها، وتحقق له التفوق على الجيوش الأخرى.[٣]

---

(١) فتح سليمان في تراقيا: "بولاير"، و"أيجه أووه"، و"قنور حصار"، و"تكير طاغ"، و"إبسالا"، و"مالقره"، و"خيره بولى"، و"كشان". (Ismail Hami Danişmend: Adıgeçen Eser, cilt I, s.30)

(2) Stanford Shaw: Op Cit., vol. I, PP. 16,17.

(3) Philips Price: Op Cit., P. 39.

وقد وصف الرحالة الأوروبي "برتراند دي بروكيير" Bertrand de Broqui re – الذي كان يتجول في آسيا الصغرى في تلك الفترة – العساكر العثمانيين مشيراً إلى بسالتهم ويقظتهم التامة واستعدادهم الدائم للقتال، بقوله: **"إنهم على أتم الاستعداد للتحرك بسرعة في أي وقت. ولمائة جندي مسيحي ساعة انتقالهم وتحركهم من الضوضاء، ما لا يحدثه عشرة آلاف جندي عثماني. عندما تدق طبول الحرب تجدهم يزحفون على الفور، لا يتخاذلون ولا يتوقفون حتى تصدُر إليهم الأوامر. يجهزون أسلحتهم باهتمام وحماس، ويقطعون في ليلة واحدة من المسافة، ما يقطعه أعداؤهم المسيحيون في ثلاثة أيام".**[1]

السياسة التي اتبعها العثمانيون في التوطين بالبلقان:

اتبع العثمانيون أسلوبين في التوطين بالبلقان عندما عبروا إلى هذه المناطق[2] :

<u>أولاً</u>: نقل العثمانيون – أيام الفتوحات الأولى بالبلقان – المهاجرين من مناطق الأناضول القريبة مثل باليكسر ومغنيسيا وحواليهما، ووطّنوهم في المناطق المفتوحة حديثاً بالبلقان. ونقلوا الهجرات من المواطنين الروم من الأهالي ومن العساكر من مواطنهم بالبلقان إلى الأناضول.

وهكذا أصاب العثمانيون في خطتهم هذه، فقد أسكنوا المناطق التي فتحوها بالعثمانيين ليُؤمنوا ظهورهم، كما أفرغوا هذه المناطق من المقاومة بعملهم هذا.

---

(1) Lord Kinross Op Cit., P. 34

(٢) انظر خريطة "دول البلقان" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (٣).

وعين العثمانيون الشباب الذين ساعدوهم من قوات القبائل على القلاع التي فتحوها في هذه المناطق للمحافظة عليها. وكذلك نقلوا بيوتاً بكاملها من منطقة قراسي إلى المناطق الأخرى التي فتحوها.

و قد تشكلت قوات من سپاهيه التيمار في الروملي أثناء تكوين الانكشارية والمشاة والمتسلمين. كما تشكلت قوات من الغزاة تحت إمرة الغازي أورنوس، وهي القوات التي انفصلت عن المشاة وأقامت بالبلقان. وقد توطن المشاة الذين أخذوا من بعض العشائر في مغنيسيا وحواليها في منطقة سزر، وأصبحوا يشكلون قوات الحدود.

ثانياً: ولما تقدمت فتوحات العثمانيين فيما بعد من تراقيا إلى مقدونيا وبلغاريا، زاد العثمانيون من عملية التوطين. وأصبحوا ينقلون الهجرات من أماكن مختلفة بالأناضول إلى الروملي. وهذه العملية تسمى في الكتب التركية سورگون Sürgün والعربية "**السركون**" وتعني النفي أو الإبعاد أو التهجير أو الإجلاء. وفي نفس الوقت كانوا ينقلون الأهالي من بعض المناطق التي يفتحونها ويوطنوهم بالأناضول. وتوجد قرية تسمى "**قرية البلغار**" بجوار إزنيق نقلت إليها الهجرات من بلغاريا في القرن الخامس عشر الميلادي على سبيل المثال.

وبهذه الطريقة، فخلال قرن ونصف القرن من الزمان، أصبحت في البلقان مناطق تركية إسلامية تماماً ، بفضل المؤسسات العلمية والاجتماعية التي انتشرت في المدن والقصبات. ولقد لعبت فكرة تشكيل قوات الدوشرمة من البلقان، دوراً هاماً في عملية تتريك هذه المناطق دون شك.

واستمرت عملية التهجير التي اتبعتها الدولة العثمانية بطريقة منظمة ابتداء من منتصف القرن الخامس عشر الميلادي إلى منتصف القرن السادس عشر.

وقد نقلت الهجرات من المدن التركية بما فيها المدن التي تتركت في الروملي إلى الصرب والمجر بعد أن فُتحتا ونُقل جزء من المسيحيين الخطرين في هاتين الدولتين إلى سلانيك والمناطق المحيطة باستانبول و"**يدى قله**". ولما سقطت إمبراطورية طرابزون بالأناضول في أيدي العثمانيين نقلوا إليها الهجرات من المناطق المجاورة أيضاً. إذ لم تقتصر عملية التهجير على النقل من الأناضول إلى البلقان ومن البلقان إلى الأناضول.[1]

ومارس العثمانيون التسامح الديني بأعلى صوره مع الأديان الأخرى، وفرضوا الجزية مقابل احتفاظ التبعة بأديانهم، تمشياً مع مبادئ الدين الإسلامي السمحة.

توفى أورخان، وتولى العرش مكانه ابنه **مراد الأول**[2] **(خداوندگار)**[1] (١٣٥٩ـ١٣٨٩م = ٧٦١ـ٧٩٢هـ). وقد توالت الفتوحات في البلقان في

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt I., s. 179-181

(٢) أعلن أخوا مراد الأول، وهما خليل وإبراهيم العصيان عليه، وطالب كل منهما بالعرش، فقتلهما السلطان.

ومن الجدير بالذكر أن المعتقدات التركية القديمة تؤكد أن تعيين الحاكم يكون بأمر الله وحده. ووضع قانون لوراثة العرش أو تحدي السلطان المتوج، يعتبر اعتراضاً على الإرادة الإلهية. قال السلطان سليمان القانوني لابنه بايزيد وهو يعظه بعد أن تآمر طمعاً في الحصول على العرش: "اترك كل شيء في المستقبل لله وحده، لأنها ليست رغبة الإنسان، ولكنها إرادة الله. فإذا قضى الله أن تتولى العرش من بعدي، فلن يستطيع أي إنسان أن يمنع ذلك". (Dr. Halil Inalcık: Op. Cit., P.59)

ويعلق محمد فريد على إقدام السلطان مراد الأول على قتل ابنه صاووجى (كما سيجيء ذكره) بأن العثمانيين لم ينفردوا بارتكاب هذا الإثم، فكثيراً من الملوك حاكموا أولادهم أو اخوتهم، لما ثبتت عليهم خيانة الأمة.

"فقد سُجن بطرس الأكبر الروسي ابنه وولي عهده ألكسيس. ولما تأكد من جنايته وعدم استعداده الفطري للقيام بأعباء المملكة بعده جمع مجلساً عالياً مركباً من أهم رجال الدولة، وحكم عليه هذا المجلس بالإعدام، لكن لم ينفذ عليه الحكم جهاراً بل وُجد ميتاً في سجنه في صبيحة اليوم =

عهده. فلم تكن الخلافات حول عرش الدولة البيزنطية المضمحلة هي وحدها التي ساعدت العثمانيين على التقدم في البلقان. ولكن الخلافات والمنازعات ـ التي حدثت بين المسيحيين الشرقيين والغربيين، بالإضافة إلى الخلافات بين دول البلقان نفسها تلك الخلافات عميقة الجذور التي حدثت بين الدولة البيزنطية والصرب والمجر وبلغاريا ـ شجعت العثمانيين على التقدم في فتوحاتهم في البلقان. كانت الخلافات والخصومات بين هذه القوى أكبر وأعمق من خلافاتها مع الدولة العثمانية. وقد حدثت في تلك البلاد منازعات على العرش أيضاً، أدت إلى صراعات طويلة شغلت قواتها في أمور داخلية، وانشغلت عن الأخطار الخارجية التي تهددها.

كان الوضع إذن مشجعاً للعثمانيين على الفتح ، فقد كانت بلغاريا وبيزنطة في مرحلة متقدمة من الاضمحلال . وإمبراطورية الصرب التي أنشأها اصطفان دوشان قد تمزقت إلى أجزاء بعد موته سنة ١٣٥٥م. والإمارات اللاتينية في اليونان والموره ضعفت من كثرة المنازعات الداخلية. وجزر بحر أيجه تحكمها الأسر الإغريقية والبندقية والجنوية مثل فرسان رودس. وقد وجد هؤلاء أنه من المستحيل عليهم الاتحاد فيما بينهم ضد العثمانيين.(٢)

كان أول عمل قام به مراد الأول قبل التحرك إلى البلقان، هو مد النفوذ العثماني حتى أواسط الأناضول . فاسترد مدينة أنقرة حاضرة إمارة بني قرمان، لقيام أميرها ببعض المنازعات على الحدود. وبعدها أبرم علاء الدين أمير

المحدد لتنفيذ الحكم عليه، ولم تعلم كيفية موته بالضبط لكن من المؤكد أن موته كان بإيعاز من والده كي لا يُشنق أمام الأمة. (محمد فريد: المرجع السابق، ص٤٧)

(١) خداوندگار: لقب أطلق على مراد الأول، ويعني في الفارسية: حاكم، آمر.

(2) Stanford Shaw: ;Op. Cit., vol. I, P.17

القرمان الصلح مع السلطان مراد، لكي يحتفظ ببقية أملاكه وزوجه ابنته. كما قام مراد بفتح بعض المدن على ساحل البحر الأسود، وفي داخل الأناضول بعيداً حتى "طوقات".

وفي تلك الأثناء فتح القائد العثماني لالا شاهين باشا مدينة ديموتيقا ثم مدينة أدريانوبل Adrianople ثم مدينة (أدرنه)[١] سنة ١٣٦٢م (٧٦٤هـ)، وهي عاصمة تراقيا وتعتبر الثانية بين مدن البيزنطيين بعد القسطنطينية. وقد جعلها السلطان عاصمة لملكه بعد أربع سنوات من فتحها حين استقر فيها الحكم العثماني. واستمرت حاضرة العثمانيين إلى أن فُتحت مدينة القسطنطينية سنة (١٤٥٣م) (٨٥٧هـ)، فنُقلت العاصمة إليها.

ثم استولى مراد على فليبه Philippopolis سنة ١٣٦٣م، وبهذا تحكم في وادي مريج (مارتيزا) الذي يمد القسطنطينية بالغلال كضريبة للدخل. وقد مكنه ذلك أيضاً من عزل البلغار عن الإغريق، ومن تثبيت قواته على طول شواطئ بحر أيجه. وهذا ما دفع البيزنطيين إلى الدخول في نوع من الخضوع للعثمانيين فوقّعوا على معاهدة مع مراد سنة ١٣٦٣م، اعترفوا فيها بكل ما استولى عليه العثمانيون في البلقان، ووعدوا بإيقاف أمراء البلقان عن التآمر ضد مراد في مقابل تعهده بعدم مهاجمة القسطنطينية، وبمدها بالطعام الذي تحتاج إليه. وهكذا أصبح مراد حراً في التقدم إلى الأمام دون خوف على مؤخرة جيشه إلى حد ما.[٢]

(١) أدرنه اسمها بالرومية "ادريانا بوليس" أو ادريانوبل نسبة إلى الإمبراطور "ادريان" (ت ١٣٨م). وهي آخر مدينة هامة تابعة للبيزنطيين في المنطقة وأقوى حصن يقع بين القسطنطينية والدانوب. ويتحكم في الطريق المؤدي من العاصمة البيزنطية إلى جبال البلقان. ويعتبر مركز النشاط الحربي وإدارة الحكم البيزنطي في البلقان. (Stanford Shaw: Op. Cit, vol I, PP. 14,18)

(2) Stanford Shaw: Ibid, P. 18.

وبعد سقوط أدرنه في أيدي العثمانيين، أحس الأوروبيون بالخطر الذي يتقدم نحوهم. فقام البابا أوربان الخامس سنة ١٣٦٤م بدعوة أوروبا الغربية لمساعدة دول البلقان في شن حرب صليبيةً ضد العثمانيين المسلمين الزاحفين تجاه بلادهم. ولكن انشغال الدول الأوروبية بالعداوة والبغضاء، جعل نداء البابا غير مجد. فكل الدول الأوروبية كانت مشغولة، إما بالحروب والمنازعات فيما بينها، أو بالصراع على العرش. وعلى الرغم من ذلك لبت النداء قوات من الصرب والبوسنة وهنغاريا، واشتركت في الحرب ضد العثمانيين.

كان السلطان في الأناضول في ذلك الوقت يقوم ببعض المعارك في منطقة بروسه. فعين قائد الجيش العثماني لالا شاهين الموجود في البلقان، القائد حاجي ايل بكى للتصدي لهذه القوات الأوروبية الزاحفة على أدرنه. وقد تمكن هذا القائد المحنك من مباغتة هذه الجموع أثناء سكرها في منتصف الليل و فرق شملها وقضى عليها عند شاطئ نهر مريج إلى الغرب من أدرنه سنة ١٣٦٤م؟ وتُعرف هذه المعركة التاريخية في كتب الترك، باسم "صرب صنديغي" أي انكسار الصرب.(١)

وهذه هي المرة الأولى التي تتوحد فيها الجهود المسيحية ضد العثمانيين لكي تقوم بعمل ضدهم. فقد شجع انتصار العثمانيين عليهم "مراداً" على محاولة التقدم إلى الأمام.

(١) أثار هذا النصر الكبير حسد لالا شاهين، فدس السم للقائد المنتصر حاجي ايل بكى. (د. أحمد السعيد سليمان: مذكرات في تاريخ الدولة العثمانية، ص٢١).

ونادى البابا مرة أخرى بالتحالف المقدس ضد العثمانيين سنة ١٣٦٦م، فلم يلب النداء إلا الكونت ايميديه الثاني كونت سافوا، الذي استقل أسطولاً حاصر به غاليبولي، وتمكن من استردادها، وتسليمها للبيزنطيين في ٢٤ غسطس سنة ١٣٦٦م.

ومع ذلك فقد ثبّت العثمانيون أقدامهم في تراقيا. وشرع مراد في تثبيت حكمه في المناطق التي فتحها، فوطّن بعض التركمان في بعض مناطق البلقان التي أبدت مقاومة أكثر للعثمانيين. كما نقل بعض الفلاحين المسيحيين من البلقان وخاصة من ضواحي أدرنه ووطّنهم في الأناضول كي يضمن ولاءهم له.[١]

وهكذا تمكن العثمانيون من الاحتفاظ بأدرنه عاصمة لهم.

تعتبر أدرنه بحق مدينة هامة بالنسبة للعثمانيين، وبسقوطها في أيديهم ونقل العاصمة إليها بدأت مرحلة جديدة في تاريخ العثمانيين بعد أن استقر لهم حكمها. فهذه المدينة التي تتمتع بموقع جغرافي ممتاز، جعلها العثمانيون منطقة متقدمة لعملياتهم العسكرية، فنقلوا إليها مقر الجيش العثماني.[٢] وكانت الجيوش تتحرك منها صوب أوروبا أو آسيا أحياناً، على الرغم من وجود مركز آخر للجيش في أسكُدار على الجانب الأسيوي المقابل للقسطنطينية ولكنه لم يكن في حجم المقر الموجود في أدرنة. هكذا نقل العثمانيون مقر حاضرتهم لأول مرة من الأناضول إلى البلقان، من آسيا إلى أوروبا، على الرغم من أن أدرنه في

(1) Stanford Shaw: Op. Cit., PP 18,19.

(٢) نقل مراد الأول التشكيلات العسكرية من بروصه إلى أدرنه سنة ١٣٦٦م، وقد كانت ديموطيقا تستخدم كمركز للتحركات العسكرية في البلقان قبل نقلها إلى أدرنه.
(Bir Heyet: Adıgeçen Eser, cilt 1, s. 106)

ذلك الوقت كانت مجاورة لكثير من الدول الأوربية المعادية للعثمــانيين، ونقــل العاصمة إليها يعد خطوة جريئة في تحدي الدول الأوروبية المحيطة.

"ويُعتبر فتح العثمانيين لمدينة أدرنه، الفتح الذي قرر مصير البلقان فيمــا بعد" [١] فقد جرت عدة محاولات صليبية بعد فتحها تهدف إلى استرجاعها وطرد العثمانيين من البلقان. ولكن العثمانيين نجحوا في صد هذه المحاولات الصليبيــة رغم عنف بعضها وشدته. ثم جاء فتح القسطنطينية فيما بعد، لكي ينهي وجــود الإمبراطورية البيزنطية، ويثبت للصليبيين عجزهم أمام القوة العثمانية الناهضة، ويثبّت أقدام العثمانيين أكثر في البلقان.

ويمثل الانتصار على الصرب **"صرب صنديغي"** نهاية المرحلــة الأولــى للفتح العثماني في بلغاريا. وقد فتحت أدرنه وغرب تراقيا، وسحقت محــاولات المقاومة كلها. وأصبح نهر مريج بكامله تحــت الســيطرة العثمانيــة. وأجــبر البيزنطيون على الخضوع. وفتح الانتصار في فليبه الطريق إلى الصرب. وتلقى النفوذ الهنغاري في البلقان لطمة قوية.[٢]

ثم استولى قره تيمور تاش على قزل آغاج جنوب بلغاريا ســنة ١٣٦٧م، وعلى ديامبوليس Diampolis **(يانبولي)** وفتح لالا شــاهين ســماكوف جنــوب صوفيا . وتمكن السلطان مراد الأول بنفسه من دخول فاريناباد وسوزه بولي من بلاد البلغار سنة ١٣٦٨م. وأتم فتح شرق تراقيا، بعد أن استعاد قــرق كليســه **(قرقلرالي)**.

(١) د. أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، ص٢٠

(2) Stanford Shaw. Op Cit., P. 19

وعقد شيشمان ملك البلغار (الذي يحكم المنطقة الممتدة من نهر الطونه إلى رودوب بالبلقان ووسط بلغاريا وجنوبها وقسماً من تراقيا قبل أن يفتحه العثمانيون) الصلح مع العثمانيين معترفاً بما فتحوه ومقراً بدفع الجزية. وتزوج السلطان ماريا أخت شيشمان.[1]

وجد العثمانيون مجالاً متسعاً في أوروبا، لتوجيه نشاطهم في الفتح. وكانت حروبهم بمثابة " **جهاد**" لفتح "**بلاد الكفر**" ـ كما كانوا يسمونها ـ وضمها لحوزة الإسلام. وقد رفعت هذه الفتوح مكانتهم في العالم الإسلامي كحماة للإسلام.

الانكشارية:

يرجع الفضل إلى السلطان مراد الأول في إنشاء الانكشارية، إلا أن تاريخ نشأتها غير معروف بالتحديد. ويُقال أن سبب إنشاء هذه الفرق يعود إلى اتساع رقعة الفتوحات العثمانية التي استلزمت إعداد جيش منظم يبقى تحت السلاح باستمرار، ويتعاون مع القوات التركية المسلمة التي كانت النواة الأولى للجيش العثماني. هذا وقد تكونت هذه القوات من أسرى الحرب أولاً، ثم من الشباب غير المسلم ومن العناصر غير التركية.[2]

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adıgeçen Eser, cilt I, s. 170

ومن الجدير بالذكر أن زيجات السلاطين بأجنبيات، لم تكن تمنع الدولة العثمانية من محاربة الدول التي تنتمي إليها هذه الزوجات. "إن المؤسسين الفاتحين من آل عثمان، اختاروا الزواج من الأجنبيات لغاية سياسية. غير أن الذين أتوا من بعدهم، اقتصرت غايتهم في الزواج، على انتقاء الحسناوات من الجواري والسراري". (محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني، ص١٣) بيروت ١٩٥٤

(2) Reşad Ekrem Koçu: Yeniçeriler, s. 9 Istanbul 1964

كانت الانكشارية تؤخذ من خُمس الأسرى من البلقان. وقد حُرم عليهم الزواج، لكي ينتظموا في الجندية باستمرار. وخُصصت لهم غرف أي معسكرات خاصة، كانت في أدرنه العاصمة ثم انتقلت إلى استانبول بانتقال العاصمة إليها.

وقد مر قبول أفراد الانكشارية في الجندية بمرحلتين:

الأولى: عندما أُنشئت هذه الفرق حديثاً، فقد كان الأسرى يعلمون التركية وعادات الأتراك وتقاليدهم عن طريق إرسالهم إلى المزارعين في الأناضول قبل تعليمهم الجندية. وكان الواحد منهم يتقاضى آقچتين **(عملة عثمانية)** في اليوم.

الثانية: عندما أُنشئت فرق العجم وضعت في معسكرات خاصة بها.[1]

وكان اختيار شباب الانكشارية يقوم في المحل الأول على لياقتهم البدنية ويفرض عليهم نوع صارم من التدريب العقلي والبدني في نفس الوقت. وكانت قدراتهم تُختبر أثناء تدريبهم ثم يُعطى لكل منهم العمل الذي يبدو لائقاً له. وكان أكثرهم استعداداً في اللياقة البدنية والعقلية ـ وبخاصة في الناحية الأخيرة ـ يختارون بمثابة إيچ أوغلانات أي غلمان البلاط. ثم يُفرض عليهم تدريب خاص في أحد القصور السلطانية القديمة في بروسه وأدرنه أو في مدارس قصور خاصة في غَلَطه وفي استانبول ذاتها. وأخيراً كان يُسمح لهم بدخول قصر السلطان حيث يُرقون حسب الكفاءة الشخصية في درجات مختلفة من أعمال الخدم من نوع أو آخر. ويوكل إلى المتفوقين منهم شئون السلطان الشخصية،

---

(1) Mehmet Zeki Pakalın: Adigeçen Eser, Cilt III, s 620

ويعينون في "**جناحه الخاص**". ثم كانوا في الوقت نفسه يُدربون ليس فقط على أعمال البلاط، بل أيضاً على فنون الإدارة والقيادة، إذ أن أعلى وظائف الحكومة كانت تملأ بخلاصة الخلاصة منهم. وكانوا يتعلمون القرآن والشريعة باللغتين العربية والفارسية ورمي السهام والضرب بالبنادق والعلوم العسكرية وركوب الخيل والرمي بالحراب وعزف الموسيقى.

وكان هناك نوع آخر من المجندين من الانكشارية، يُطلق عليهم "**عجمي اوغلان**" أي الغلمان العجم. يخضعون لنوع مختلف من التعليم كان يتوخى منه في المقام الأول أن يُعودوا على قوة الاحتمال. وكان الذين لا يستطيعون تكلم اللغة التركية منهم يوضعون أولاً في خدمة السپاهية (**الفرسان الإقطاعيين**) في الأناضول، ثم يُنقلون فيما بعد إلى استانبول حيث يعاد اختبارهم بدقة، لكي يُعينوا في مهام مختلفة طبقاً لقدراتهم.

وعلى أي حال فإن الانكشارية في أي فرقة، كانوا منذ البداية "**قپو قوللري**" أي عبيد الأبواب السلطانية. ويبدو أن فرقتهم قد تأسست بصفتها حرساً للسلطان، ولهذا كانت تتبعه أنى ذهب. وبرغم أن عدداً كبيراً من الأورط ظل يقيم حيث يستقر السلطان، فإن معظمها أصبحت ـ بعد تزايد أعداد الفرقة ـ توضع في حاميات الولايات حيث كانت تخضع لإمرة الولاة المحليين.

وكان أغا الانكشارية شخصية بالغة الأهمية، فمن ناحية كانت قواته أقوى أداة عسكرية تحت تصرف السلطان، ثم من ناحية أخرى لأنه كان يعمل أيضاً مديراً للبوليس في استانبول ذاتها. وكان ـ بحكم منصبه ـ عضواً بديوان السلطنة. وكان مقدماً على كل الوزراء الذين تقل مرتبتهم عن مرتبة الوزير

التي كان هو ينعم بها. كما كان مقدماً على كل القواد أياً كانوا.[١] وفي حالة الحرب كانت له ميزة قيادة الأوجاق "**الفرقة**" إذا توجه السلطان بنفسه إلى الحرب، وإلا فإنه كان يرسل نائباً عنه كي ينفذ أوامر القائد الذي يدير العمليات.[٢]

ومن الجدير بالذكر أن الانكشارية يطلق عليها "**العساكر البكتاشية**"، نسبة إلى الطريقة الصوفية البكتاشية التي كان مقرها أساسيا بالأناضول. ويُقال إن شيخ هذه الطريقة ويدعى "**حاجي بكتاش ولى**" بارك المجندين الأول بوضع كُمّه فوق رؤوسهم، ومن هنا أوحى إليهم باختيار لباس رأسهم الغريب ذي الزائدة الاسطوانية الطويلة. وقد أثبت المؤرخ التركي الكبير محمد فؤاد كوبريلي أن حاجي بكتاش لم يكن له أدنى ارتباط بإنشاء الانكشارية لأنه توفى قبل قرن من الزمان تقريباً قبيل التفكير في إنشاء هذه الفرقة. ولكن المرجح أن دراويش هذه الطريقة استمطروا عليها بركات شيخهم الأول ومؤسس طريقتهم.[٣] ويبدو أن

---

(١) كان أغا الإنكشارية مقدما على كل القواد فيما عدا أيام الأعياد. حين كانت الأسبقية عليه لقواد السباهية وبلوكات السلحدار، وهما أقدم عهداً من الانكشارية (المجتمع الإسلامي والغرب، حاشية ص٨٩ من جـ١)

(٢) هاملتون جب، وهارولد بوون: نفس المرجع، جـ١، ص٨٢-٨٤ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٨٩.

(3) Köprülü Zade Mehmet Fuat: Türk Edebiyatinde Ilk Mütasavviflar, s. 56 haşiyesi. İstanbul 1952

لم يذكر طاش كوبرى زاده (توفى ٩٦٨هـ)، شيئاً عن علاقة حاجي بكتاش بالانكشارية، رغم أنه ذكره ضمن علماء عصر السلطان مراد الأول، ولم يذكر ميلاده أو وفاته.

(طاشكوبري زاده: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، ص١٦ بيروت ١٩٧٥).

ويذكر محمد ثريا أن، حاجي بكتاش محمد بن سيد محمد بن إبراهيم المحارب توفى ٧٣٨هـ

(محمد ثريا: سجل عثماني ياخود ترجمة مشاهير، جـ٢، ص٢، استانبول ١٣١١هـ)

وتذكر دائرة المعارف التركية (م٣ ، ص ٨) أنه توفى ١٣٣٧م.

أما دائرة المعارف الإسلامية (م٧، ص٤٦٧)، فتقول أن المعلومات التي لدينا عن الحاج بكتاش معلومات أسطورية. ويقال أنه ولد بنيسابور ودرس على "أحمد يسوى". أما سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٧م) التي يروى أنها سنة وفاته. فهي عبارة عما يقابل كلمة بكتاشية في حساب الجمل.

ومن المرجح في ظني أن حاجي بكتاش توفى قبل نشأة الانكشارية.

الطريقة البكتاشية قد نُظمت في القرن الخامس عشر، ولكنها لم تلق الاعتراف الرسمي بها حتى نهاية القرن السادس عشر، وعلى أي حال فقد أُعلن في عام ١٥٩١م أن الطريقة قد ارتبطت بالأورطة التاسعة والتسعين.(١)

كان الجيش العثماني يتكون في مجمله من تشكيلين اثنين: أحدهما يسمى "**يرلى قولى عسكري**" أي العبيد المحليون من العساكر. ويُذكرون في التاريخ العثماني بـ "**تيمارلى سپاهيلر**" أي السباهية أصحاب التيمارات. وهم جميعاً من الفرسان الذين وهبوا إقطاعات. ويجمعون من ولايات الدولة العثمانية في أوروبا وآسيا وأفريقيا.

أما التشكيل الثاني، فهو "**قاپو قولى عسكري**" أي عبيد الأبواب السلطانية من العساكر. وهم الفتيان الذين ينضمون إلى الجندية في سن صغيرة، ويتقاضون رواتب من خزينة الدولة. وينقسمون إلى ثلاث فرق: القوات البحرية وقوات الخيالة وقوات المشاة. وكان المشاة ينقسمون بدورهم إلى ستة فروع، تعتبر قوات الانكشارية إحداها.(٢)

وبانتقال العاصمة من بروسه في الأناضول، إلى أدرنه في البلقان، وتوغل العثمانيين أكثر في البلقان تنتهي مرحلة من مراحل تاريخ الدولة العثمانية، وهي "**فترة الإمارة في الأناضول**".



(١) هاملتون جب وهارولد بوون: نفس المرجع، جـ١، ص٩٥.
ومما تجدر الإشارة إليه أن الحركة الوهابية في الجزيرة العربية ظهرت احتجاجاً على البدع، وخاصة الطرق الصوفية المتطرفة، التي انتشرت في الدولة العثمانية، والتي تساهل معها السلاطين العثمانيون ورعوها أحياناً. (د. عبد الكريم رافق : بلاد الشام ومصر، ص ٣١٠).

(2) Reşat Ekrem Koçu: Adigeçen Eser, s. 57,59

الفصل الثالث

فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

١٣٧٠ - ١٤٨١م (٧٧٢ - ٨٨٦هـ)

تقدم العثمانيين في البلقان:

بعد أن نقل العثمانيون عاصمتهم إلى أدرنه ولم يقو أحد على مواجهتهم فور استيلائهم عليها، بدأوا بعدها يوسعون دولتهم عن طريق الفتوحات في "بلاد الكفر"، كما كانوا يسمونها. وقد تأكد لهم أن الدول الأوروبية والحالة هذه لا تقدر على مجابهة القوة العثمانية الناشئة. وأخذت هذه القوة تنمو، وتنمو معها الدولة وتتسع أرجاؤها، إلى أن أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف.

كان سقوط أدرنه في أيدي العثمانيين، بمثابة إنذار بالخطر للدول الأوروبية، فبدأت منذ ذلك التاريخ تتجمع من وقت لآخر لشن حرب صليبية ضد العثمانيين المسلمين. كما كان فتحها مشجعاً للعثمانيين على المضي قدماً في البلقان.

التقى لالا شاهين ١٣٧١م بملك البلغار شيشمان الذي تحالف مع ملك الصرب، وتمكن من هزيمتهما، والاستيلاء على چتالجه وما حولها من القلاع.

وبدأ العثمانيون بعد ذلك يفكرون في فتح شمال البلقان.[١]

سار القائد العثماني أورنوس بك بحذاء نهر مريج، واستولى على إيسالا وديموطيقا، ثم استولى على قوللا ودراما وسرز وسلانيك[٢]، وأرسل بعض

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt I, s. 171

(٢) سلانيك، مدينة رومية قديمة جداً، تقع في جنوب بلاد مقدونيا على بحر الأرخبيل، اسمها "ترما". ولما تولى "كسندر" (ت ٢٩٨ ق.م) ملكاً على بلاد مقدونيا، أطلق عليها اسم زوجته أخت الاسكندر الأكبر المسماة "تسالونيك". وحرف هذا الاسم على مر الأجيال، فصار "سالونيك" أو "سلانيك". (محمد فريد: المرجع السابق، ص٤٦).

المغيرين على ألبانيا ١٣٨٥م (٧٨٧هـ).[1] ثم فتح مراد بنفسه صوفيا عاصمة بلغاريا، وأجبر شيشمان على عقد الصلح معه ١٣٨٦م، وتزوج ابنته تمارا. ثم اضطر الإمبراطور البيزنطي لتجديد المعاهدات مع مراد، وترك له غاليبولي.

وهذا النجاح الذي تحقق في أواسط بلغاريا وسهول مقدونيا وتراقيا، فتح الطريق أمام القائد العثماني قره تيمور تاش، فاستولى على مناستر وبرلبه في غرب بلغاريا، ثم هزم الجيش الصربي البلغاري في جرمان، وهكذا تقدم في المناطق الواقعة في جنوب الصرب، ثم فتح نيش ١٣٨٦م. وأجبر أمير الصرب لازار على عقد الصلح ودفع الجزية، واستمر في تحركه في جنوب الصرب للاستيلاء على ما تيسر من الأراضي، ثم أغار على البوسنة من ١٣٨٦ـ١٣٨٨م.

كان كل تقدم يتحقق من جانب العثمانيين يحملهم بعيداً عن مركز قوتهم وقريباً من أعدائهم هؤلاء. ومع أن الأمير لازار قبل السيادة العثمانية إلا أن تيمور تاش كان يواصل تقدمه. وكان هذا التقدم يلقى الروع في نفس الأمير، الذي كان يظن أن العثمانيين يهدفون إلى القضاء عليه قضاءً مبرماً. لهذا تحالف مع ورثة دوشان في الصرب ومع ملك البوسنة. وقد باغت المتحالفون تيمور تاش في پلوشنك على نهر مورافا ١٣٨٨م (٧٩١هـ)، منتهزين فرصة انشغال

(١) وفي هذه الأثناء تمرد صاووجي أحد أولاد السلطان على والده بالاتحاد مع اندرونيكوس ابن إمبراطور الروم حنا باليولوج الذي كان والده حرمه من الملك بعده وأوصى به إلى ابنه الأصغر امانويل. وتحزب معهما بعض من أضلهم الطمع والغرور غير ناظرين إلى أن هذا الشقاق الداخلي لا يكون وراءه إلا ضعف الدولة وتمكن أعدائها من الاستظهار عليها. لكن لم يدع السلطان الشفقة الوالدية تتغلب عليه بل أرسل لمحاربة ولده المتمرد من قهره هو ومحازبيه وقتله وجميع من حازبه من أشراف الروم. (محمد فريد: نفس المصدر ص٤٦،٤٧).

الجيش العثماني في بلاد القرامان بالأناضول، وانتصروا عليه انتصاراً ساحقاً، وأجبروه على التخلي عن جنوب الصرب، والتراجع إلى نيش.

وكان هذا هو أول انتصار مسيحي هام على الترك، رد للازار اعتباره وشجعه على تكوين تحالف بلقاني يشمل الصرب والبلغار والبوسنة والأفلاق وبعض الألبان من الذين قبلوا السيادة العثمانية عندما ظنوا أن الترك لن يتوقفوا.

ومع ذلك كان مراد قادراً على سحق البلغار فيما بعد، وإجبار شيشمان على قبول التبعية مرة أخرى. وهذا ما جعل آمال البلقانيين تتعلق بجيش لازار. تقدم لازار في سبيل تكوين جيشه، وكان يشمل جنوداً من بلاد بعيدة أحست بالخطر العثماني يتقدم نحوها كالبوسنة وهنغاريا وبولندا. وفي مواجهة هذا التهديد، حاول مراد أن يجمع قواته المختلفة التي تشمل تابعيه من البلغار وبيزنطة في جيش موحد . وبينما كان مراد يعد العدة لمواجهة التحالف البلقاني، إذ به يُجبر على إرسال جزء من جيشه إلى الأناضول لمواجهة عدد من المنافسين الخطرين.

وكان الوضع في الأناضول على درجة عالية من التعقيد، فهناك قلاقل في سيواس ودولة الشاة البيضاء والقرامان أقوى إمارة تركمانية في وسط الأناضول. وفي مواجهة هذه الأخطار الكبيرة، اتبع مراد سياسة أبيه الرامية إلى التقدم في الأناضول بالطرق السلمية، فزوج ابنه بايزيد ابنة أمير گرميان التركماني. وحصل بذلك على نصف الإمارة القريب من القرامان ويشمل كوتاهية كمهر لها. ثم أقنع حكام "حميد" بأن يبيعوه الجزء الأكبر من إقليمهم المتاخم للقرامان. وقد حملت هذه الإجراءات العثمانيين إلى جبال طوروس. وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات فإن القرامان لم يتوقفوا عن إثارة الفتن والقلاقل. وقد شجعهم البابا والصرب والبندقية على ذلك، فاستولوا على معظم

الأراضي التي اشتراها مراد من إقليم حميد. وأمام ذلك أراد مراد أن يستعيد هيبة الدولة العثمانية في الأناضول، فجمع القوات التابعة له وبينها قوات من البلغار، وهاجم القرامان مستعيناً بهذه القوات المسيحية لسحق الخطر التركماني. ويقال أن العثمانيين استعملوا في حربهم ضد القرامان المدافع والبنادق القديمة لأول مرة، وحققوا بها بعض النجاح، ثم نقلوها إلى أوروبا واستعملوها ضد قوات لازار المسيحية، وأحرزوا بها نجاحاً كبيراً.

موقعة قوصوه الأولى ونهاية مراد الأول:

كانت المعركة التي وقعت في قوصوه Kosova جنوب بلاد الصرب في ١٠ أغسطس ١٣٨٩م (١٦ شعبان ٧٩١هـ) معركة حاسمة. اشترك فيها من أمراء البلقان مع لازار، ملك البوسنة تورتكو، وفوك برانكوفتش صهر لازار، ومركيا الأكبر أمير الأفلاق، وجورج كاستريوتا أحد أمراء ألبانيا، ولم يشترك معهم الإمبراطور البيزنطي جون الخامس. واشترك قسطنطين وأمير كوستنديل البلغاري مع مراد الذي قاد القوات العثمانية بنفسه. كما اشترك معه قليل من أمراء الصرب المنافسين للازار، وعديد من أمراء التركمان بالأناضول وأتباعهم، خاصة أمراء صاروخان وآيدين ومنتشه وحميد وتكه[١].

رجحت كفة التحالف البلقاني في البداية، ثم تفوق الجيش العثماني في أواخر المعركة، وقُتل السلطان مراد الأول. إلا أن ابنه بايزيد أكمل المعركة وقاد القوات إلى نصر محقق. وتعزو بعض المصادر هذا النصر إلى مراد الذي

(١) انظر مخطط "ميدان معركة قوصوه الأولى" من قسم الخرائط واللوحات رقم (٤).

سقط شهيدًا بعد النصر[1]. وما لبث العثمانيون أن أسروا ملك الصرب لازار، بعد أن انفض من حوله حلفاؤه، وقطعوا رأسه ورؤوس رفاقه عند أسرهم وفقاً لأوامر السلطان المحتضر على ما يبدو[2].

وتذهب الروايات التركية إلى أن ميلوش قابيلوفتش[3]، وهو مقاتل صربي أصيب بجراح فانطرح في الميدان، إنما قتل السلطان غيلة وغدراً أثناء تجول مراد في ميدان المعركة لتفقد الأحوال اعترافاً بنعمة الله. وأما الملاحم الصربية فتزعم أنه صُرع في خبائه بخناجر اثنى عشر بطلاً أخذوا على أنفسهم عهداً بقتله.[4]

وتعتبر هذه المعركة على أي حال أول نصر عثماني هام يتحقق على القوات العسكرية الأوروبية المتحالفة. فقد حطم هذا الانتصار آخر مقاومة

---

(1) Stanford Shaw: Op. Cit., 20-22

(٢) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٧ ص٤١٨، ٤١٩.

(٣) تختلف المصادر التركية في اسم القاتل، فتقول عنه: ميلوش قابيلوفتش، ميلوش نقولا، ميلوش قبيله، ميلوش قوبلاك. ويقول هامر (المستشرق النمساوي): ميلوش قابيلوفتش، ويذكره جيبونز على أنه صهر لازار ويدعى ميلوش أوربافتش. (Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt I., s. 256)

(٤) كارل بروكلمان: نفس المصدر ص٤١٨، ٤١٩. (Bir Heyet: Adigeçen Eser: cilt I , s. 136)

تعتبر الرواية التركية أقرب إلى الصواب لأنها تتمشى مع التقاليد الإسلامية، رغم أن بايزيد (الصاعقة) أرسل فرماناً إلى قاضي بروصه حول هذا الموضوع، قال فيه: اقترب شخص يدعى ميلوش قوبيلوفتش من خيمة السلطان، وقال للحراس "لقد اهتديت للإسلام" ولرغب في مقابلة السلطان. ولما سُمح له بالدخول، أخرج خنجراً كان يخفيه في خصره، وطعن به السلطان فأرداه قتيلاً، وتولى الحراس على الأثر تقطيعه إرباً إربا.

وقد حُنط جسد السلطان ثم دُفن في چكرگه ببروصه، ونُزعت أحشاؤه ودُفنت في صحراء قوصوه، وأقيم فوقها قبر كان موجوداً إلى عهد قريب في يوغوسلافيا، ويسمى "مشهد خداوندگار". (Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt I, .. 256,257.)

منظمة في البلقان جنوب الدانوب، وفتح شمالي الصرب أمام الزحف العثماني وترك هنغاريا كمناوئ وحيد وهام في جنوب شرق أوروبا. وهذا يعني أن الصرب أصبحت كبلغاريا تحت النفوذ العثماني. وهكذا ثبّت العثمانيون حكمهم في جنوب شرق أوروبا، عدا البوسنة وألبانيا وجزء من اليونان، في أقل من عقدين اثنين منذ اعتلاء مراد العرش، وأكثر قليلاً من ٣٠ عاماً منذ أن عبر أورخان إلى البلقان.[1]

تولى العرش **بايزيد الأول** الملقب في كتب الترك بـ "**يلديرم بايزيد**" أي بايزيد الصاعقة[2]، بعد استشهاد أبيه[3] في معركة قوصوه، ودام حكمه من سنة ١٣٨٩ـ١٤٠٢م (٧٩٢ـ٨٠٥هـ).[4]

رضخت الصرب للضربة القوية التي وجهها إليها مراد الأول وأكملها ابنه بايزيد، ولم تجد مفراً من الاستسلام للعثمانيين. وأعلن استفان بن لازار دخوله

---

(1) Stanford Shaw: Op. Cit, P. 22

وانظر: Ismail Hami Danişmend: Adigeçen Eser, Cilt I, s.77-81.

(٢) لُقب بايزيد بالصاعقة، لأنه كان كلما سمع بالخطر في الأناضول وهو في البلقان، تحرك مسرعاً إلى هناك. وإذا كان في الأناضول وأحس بخطر في البلقان، فإنه كان يتحرك على الفور. وقد تكررت هذه الأمور كثيراً، حتى سمي بالصاعقة. (S.Shaw: Op. Cit, P.30) وبالإضافة إلى ذلك، فإنه انقض على الإمارات التركمانية كالصاعقة، فقضى عليها الواحدة تلو الأخرى، لكي يستعيد هيبة الدولة العثمانية.

(٣) بلغت مساحة الدولة العثمانية في مارس سنة ١٣٦٢م، ٩٥٠٠٠كم٢ وبلغت في ٢٠ يونيو سنة ١٣٨٩م أي بعد ٢٧ عاماً ٥٠٠٠٠٠كم٢، منها ٢٩١٠٠٠ كم٢ في أوروبا، ٢٠٨٠٠٠ كم٢ في آسيا، أي أكثر من خمسة أمثال ما كانت عليه في عهد أورخان.
(Yılmaz öztuna: Adigeçen Eser, cilt 3, s. 64)

(٤) كان أول عمل قام به السلطان، هو قتل أخيه الأكبر يعقوب، خشية أن يطالب بالعرش استناداً إلى أن السلطان عثمان ولى بعده ابنه الأصغر أورخان، ولم يول ابنه الأكبر علاء الدين. قتله بايزيد، اعتماداً على فتوى شرعية استصدرها من المفتي، مبنية على قوله تعالى..: "والفتنة أشد من القتل" (محمد فريد: المرجع السابق، ٤٩)

في طاعة العثمانيين، فأمنه بايزيد على حياته، وترك له حكم بلاده تحت السيادة العثمانية، بشرط دفع الجزية وتقديم الجنود اللازمة للدولة العثمانية لمساعدتها في حروبها، وتزوج ابنة لازار "ماريا دسبينا". وكان بايزيد يهدف من وراء ذلك، أن تبقى الصرب حاجزاً ومانعاً بين أملاكه في البلقان وبين المجر، القوة الوحيدة في شرق أوروبا التي تستطيع الوقوف في وجه العثمانيين. ويخشى أن تنتهز فرصة توجهه إلى الأناضول لبعض الأعمال العسكرية، فتنقض على بعض المناطق في البلقان وتنهي تبعيتها للعثمانيين. قام السلطان العثماني بتثبيت استفان على عرش الصرب، لأنه تأكد من إخلاصه للدولة العثمانية، واستعداده للتفاني في خدمتها.

قام بايزيد بعد موقعة قوصوه بإرضاء الصربيين، فأعطاهم الحكم الذاتي الكامل. ثم ضم فرقاً منهم إلى الجيش العثماني جعل لها نفس حقوق المسلمين. ومن المشكوك فيه أن يكون الصرب قد أحسوا بالهزيمة في قوصوه في هذه الفترة على أنها كارثة حقيقية، لأن ضمهم للدولة العثمانية أنقذهم من جيرانهم المسيحيين البلغار والهنغار. فقد عانوا منهم الأمرين في السابق ودفع بهم هذا لأن يشتركوا مع العثمانيون في فتحهم للبوسنة.[1]

وقبل أن يتجه بايزيد الأول إلى الأناضول، جاءه ممثلون من البندقية وجنوه يعلنون التبعية والخضوع ودفع الجزية، في مقابل السماح لهم بالاستمرار في مزاولة التجارة في الممالك العثمانية. وتعتبر هذه التسهيلات في جوهرها أول

(1) Philips Price: Op. Cit., PP. 40,41

امتيازات تُمنح لدولة أجنبية. وقد أثرت هذه التسهيلات أو قل الامتيازات تأثيراً قوياً على نمو الاقتصاد العثماني في المستقبل.[1]

ضم بايزيد الصاعقة لإمارات الأناضول:

رأى بايزيد بعد أن استتبت له الأمور في الحكم أن يستولى على بعض ما للبيزنطيين من أملاك في الأناضول، فقام بفتح مدينة آلاشهر التي تُعرف عندهم بفيلادلفيا ١٣٩٠م (٧٩٣هـ).

آل بايزيد على نفسه منذ أن تولى الحكم أن يضم الإمارات الكثيرة الموجودة في الأناضول لملكه، لكثرة مناوشاتها ولدخولها بين أملاكه في آسيا الصغرى. وقد كانت هذه الإمارات تخاف على مصيرها المرتقب، نظراً لأنها رأت قوة العثمانيين تزداد يوماً بعد يوم وأملاكهم تتسع من يوم لآخر. وقوى كثيرة في البلقان انضوت تحت لوائهم، وليس أمام قوتهم من يستطيع إيقافها على المدى المنظور، فهم في انتصار مستمر على "**بلاد الكفر**". وتخطب بعض القوى البحرية التي لا يستهان بها في ذلك الوقت مثل جنوه والبندقية ودهم. وتقدم لهم بعض الدول الأخرى الجزية طواعية، وبعضها الآخر يمدهم بالجنود. وقد تجمعت بعض الدول في أوروبا الغربية في حرب صليبية، لمعاونة دول البلقان وإنقاذها من قبضة العثمانيين. ولكن هذه الدول فشلت أمام القوة العثمانية الناشئة، وتشتتت قواتها وخارت قواها أمام ضربات العثمانيين المتلاحقة. وتساقط قوادهم الذين كانوا يضربون بهم الأمثال في الشجاعة والحنكة.

---

(1) Stanford Shaw: Op. Cit., PP. 29,30.

كانت هذه الإمارات الكثيرة المنتشرة في الأناضول تقوم ببعض المناوشات مع العثمانيين على الحدود، كلما أحست بانشغالهم بالحرب في البلقان. فامتنعت بعض هذه الإمارات أحياناً عن دفع الجزية المفروضة عليها للعثمانيين، كما ساعدت بعض الإمارات الأخرى البيزنطيين ضد العثمانيين أحياناً، واستردت إمارات أخرى بعض المناطق التي أخذها العثمانيون منهم. وقد ساد القلق بين هذه الإمارات على مصيرها في عهد بايزيد بعد أن أوقعت كل هذه الأحداث التي دارت في أوروبا الرعب والفزع في قلوبها. وكانت تريد أن تفعل شيئاً لإنقاذ مصيرها.

وقد اتبع العثمانيون إلى جانب الحرب أساليب أخرى لضم هذه الإمارات، كالتزاوج مع أسرها الحاكمة، أو شراء أراضيهم، أو منحهم إقطاعات في البلقان بدلاً عنها. ولكن السلطان بايزيد عزم على القضاء على الأمراء المتمردين، وتم له ذلك بمساعدة فرق بلقانية [1]. كما أن بعض الإمارات سلمت دون قتال. فأمير "**آيدين**" عيسى بك ترك للسلطان بلاده وخرج منها ١٣٩٠م (٧٩٢هـ)، فكافأه السلطان بأن ترك له إزمير وملحقاتها إلى أن مات في نفس العام فضُمت إلى الدولة العثمانية. وفر إلياس بك أمير منتشا إلى سينوب وترك بلاده إلى بايزيد. والتمس اسحاق بك أمير صاروخان الأمان من السلطان، فترك له بعض مملكته. و تنازل الأمير علاء الدين علي بك حاكم بلاد القرامان عن جزء كبير من بلاده سنة ١٣٩٠م (٧٩٢هـ)، لكي يضمن حكمه لبقية إمارته. واستولى بايزيد على أراضي بني حميد وأولاد تكه، وفقد أمير قسطموني ممتلكاته سنة ١٣٩٣م (٧٩٦هـ). وضم مملكة القاضي برهان الدين بعد وفاته سنة ١٣٩٨م وتشمل

(١) د. عبد الكريم رافق: المرجع السابق، ص٣٧

سيواس وقيصريه وطوقات ونيكسار وقيرشهر. وأصبح بهذا متاخماً للإمارات المملوكية في ملطية وقلقيليا Cilicia. ولم يبق للبيزنطيين بالأناضول غير طرابزون، ولم يعد للبنادقة غير أميسوس Amisus "قره سمسون" شرقي سمسون الحالية. ثم استولى على معظم قلقيليا من المماليك ووصل حتى شرق الفرات.

وهكذا كان بايزيد الصاعقة أول حاكم عثماني يقبض على أزمة الأمور في آسيا الصغرى بشكل فعال، ويعمل على إخضاع الإمارات التركمانية الأخرى فيها.[1]

بعض المهام القتالية أمام بايزيد في البلقان وآسيا الصغرى:

وبعد أن اطمأن بايزيد على هذه المناطق التي استولى عليها دون قتال يذكر، عبر بحر مرمره وحاصر القسطنطينية سنة ١٣٩١م (٧٩٤هـ). وما لم تسقط المدينة بسرعة ترك حولها الجيش الذي يقوم بمحاصرتها ، وسافر هو إلى الأفلاق سنة ١٣٩٣م (٧٩٦هـ)، حيث اشتبك مع أميرها "**دوق مانيس**"، وأجبره على عقد الصلح معه شريطة دفع الجزية والاعتراف بالسيادة العثمانية.

وفي تلك الأثناء تأكد علاء الدين من انشغال السلطان العثماني بحروبه في البلقان، فأعلن العصيان، وهزم القائد العثماني تيمور تاش وأخذه أسيراً، ثم استولى على مدينة أنقره، فعاد بايزيد مسرعاً إلى الأناضول، والتقى بعلاء الدين عند "**آق چاي**" فهزمه وأسره مع أبنائه، وضم إمارته للدولة العثمانية. كما ضم

(1) Philips Price: Op.Cit., P.41

إمارتي سيواس وتوقات. واستولى على إمارة قسطموني، ففر أميرها بايزيد ولجأ إلى تيمورلنك سنة ١٣٩٣م (٧٩٦هـ) كما سبق أن احتمى به بعض الأمراء الذين استولى بايزيد الصاعقة على ديارهم.[١]

وفي نفس العام حارب العثمانيون البلغار واستولوا على عاصمتهم ترنوه، وأسروا أميرهم شيشمان وقتلوه، ثم فتحوا قلاعهم الهامة مثل سلستره ونيكوبوليس ودين. وبهذا ضمت بلغاريا كلها للدولة العثمانية.

العلاقات مع المماليك في عهد بايزيد الصاعقة:

جلب استيلاء بايزيد الصاعقة على الإمارات التركمانية المسلمة بالأناضول نقمة المسلمين في آسيا الصغرى خاصة العلماء منهم. وقد تمادى بايزيد في أعماله العسكرية هذه حيث هاجم بعض المناطق التابعة للمماليك في جنوب الأناضول، على الرغم من أن العلاقات بين العثمانيين والمماليك كانت طيبة في عهد أبيه. فقد أرسل مراد الأول قصاده ١٣٨٤م (٧٨٦هـ) إلى السلطان برقوق (١٣٨٢ـ١٣٨٩م ، ١٣٩٠ـ١٣٩٩م) (٧٨٤ـ٧٩١ ، ٧٩٢ـ٨٠١هـ) ، لتحذيره من مغبة تحرك تيمورلنك نحو الغرب وخطره الداهم على المماليك والعثمانيين على السواء[٢]. وعلى الرغم من مخاوف برقوق من الخطر القادم نحو بلاده، إلا أنه كان يخاف أكثر من أطماع العثمانيين. صدقت مخاوف برقوق فقد هاجم بايزيد الأول قيصرية سنة ١٣٩١م (٧٩٤هـ)، وقبض على أميرها الذي كان مشمولاً بحماية المماليك. ولكن بايزيد سرعان

---

(1) Zuhuri Danişmend: Osmanli Imparatorluğu Tarihi, cilt 3, s. 11-50 Istanbul 1964.
وانظر: Ismail Hami Danişmend: Adigeçen Eser, I, s. 82-92

(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم ١١٦ تاريخ م، ورقة ١٥،١٦.

ما أحس بحرج موقفه وخطأ ما أقدم عليه، عندما أحس بالخطر المغولي يقترب من بلاده، ولا نصير له في المنطقة سوى المماليك. فاعتذر لبرقوق عما أقدم عليه وأرسل إليه هدية ثمينة مع أحد رسله، وطلب منه أن يبعث إليه بأحد أطبائه المهرة لكي يشرف على علاجه كما يذكر ابن إلياس (ت ١٥٢٢م ، ٩٢٨هـ). فلبى برقوق طلب السلطان العثماني ، وأرسل إليه الطبيب شمس الدين محمد بن صغير ومعه بعض الأدوية والعقاقير[١]. وتحسنت العلاقات بين الطرفين وراسل كل منهما الآخر. وقد كان برقوق يذكر لبايزيد في مراسلاته ويؤكد على أن "**المملكتين كروحين في جسد وساعدين في عضد**" وكان السلطان العثماني يؤكد على صداقته واحترامه لسلطان المماليك بنفس التعبير.[٢]

أحس بايزيد بحرج موقفه بعد أن قضى على الإمارات التركية الإسلامية في الأناضول مستعيناً في ذلك بقوات غير مسلمة من البلقان خاصة الصرب وبلغاريا والدولة البيزنطية. وقد جر عليه عمله هذا نقمة المسلمين في آسيا الصغرى . فأراد أن يخرج من هذا المأزق الحرج بعد أن علم بأن الأمراء الذين نجوا بأنفسهم من الموت، لجأوا إلى السلطان المسلم تيمورلنك فزعين، يستنجدون به مما حل بهم على يد السلطان العثماني، ويشكون إليه من بطشه وجبروته، وجنايته عليهم، وهم على الدين الإسلامي مثله، ولا يجوز التعرض لأملاكهم أو لأشخاصهم. أراد بايزيد الصاعقة أن يكسب عمله صفة الشرعية، **فأرسل في سنة ١٣٩٤م (٧٩٧هـ) إلى الخليفة العباسي في مصر وهو المتوكل على الله، طالباً منه تشريفاً وتقليداً باعتماده "سلطان الروم" فبعث إليه المتوكل**

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى جـ١، ص٢٠٠ القاهرة ١٩٦٠

(٢) أحمد فريدون (ت ٩٩١هـ ، ١٥٨٣م): منشآت الملوك والسلاطين، مخطوط بمكتبة متحف طوبقبو سرايي باستانبول، تحت رقم R.1960، ورقة ١٨١ب ـ ١٨٤أ

بهذا التقليد،[1] وهو يعني أن بايزيد أصبح سلطاناً للترك، أي الروم كما كانت الكتابات العربية في العصور الوسطى تطلق عليهم.

على أن أطماع العثمانيين التي كانت تدفعهم من آن لآخر للإغارة على بعض المناطق المشمولة بالحماية المملوكية، لم تجعل العلاقات الطيبة بين الدولتين تستمر في صفاء ووئام. فقد توجس المماليك خيفة من هذه الأطماع التي تسفر عن وجه العثمانيين الحقيقي. وقد تحققت مخاوفهم في سنة ١٣٩٩م (٨٠١هـ)، فقد استولى بايزيد الصاعقة على ملطية وحاصر دارنده.[2] وبعدها طلب التحالف مع السلطان المملوكي الناصر صلاح الدين فرج ضد الخطر المغولي المقترب من بلادهما، فرفض فرج ذلك التحالف بعد مشاورة أمرائه. وبهذا تمكن تيمورلنك من مداهمة كلا القوتين على انفراد، فهاجم الأراضي المملوكية، وتمكن من إنزال الهزيمة بالمماليك سنة ١٤٠٠م (٨٠٢هـ) بالقرب من دمشق، ثم تحرك قاصداً بايزيد كما سنوضحه بعد قليل.

التحالف الجديد وموقعة نيكوبوليس:

كان من الطبيعي أن تثير انتصارات العثمانيين في البلقان جزع الغرب وحنقه، وخاصة انتصاراتهم الساحقة على الصرب والبلغار وما تمخضت عنه. وقد أحس البابا بالخطر الداهم كما شعرت المجر بأن المصير المحتوم سينالها لا محالة، فقد أصبحت أملاك العثمانيين والبلاد الخاضعة لنفوذهم متاخمة

---

(١) د. محمد مصطفى زياده: نهاية السلاطين المماليك في مصر، المجلة التاريخية المصرية م٤، ع١ ص٢٠٠، مايو ١٩٥١.

(٢) العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ، القسم الأول من الجزء ٢٥، ورقة ٧٨.

للمجر. ولما رأى سجسموند ملك المجر أنه لا قبل له بالعثمانيين استنجد بالبابا وبالدول الأوروبية، لمعاونته في شن حرب صليبية ضدهم، لإيقاف تقدمهم في أوروبا، وتخليص القسطنطينية من الحصار.

جاءت المساعدات الكبيرة لسجسموند من شارل السادس ملك فرنسا و من فنولاوس إمبراطور ألمانيا خاصة. فتحرك دوق بورجونيا على رأس الفرسان الفرنسيين الذين كان أكثرهم من النبلاء وفيهم كثير من أقارب الملك نفسه، وانضم إليهم أمراء بافاريا بألمانيا. كما جاءت فرسان القديس يوحنا الأورشليمي برودس.[١] ويقال أن النمسا وإنجلترا واسكتلندا وإيطاليا وبوهيميا وسويسرا وبولندا اشتركت بقوات في المعركة. التقت الجموع في مدينة بودا ببلاد المجر في ربيع ١٣٩٦م (٧٩٩هـ)، ورأى سجسموند أن ينتظر حتى يبدأ بايزيد بالهجوم ثم يرد عليه، ولكن رأى أغلبية القواد كان على العكس من ذلك. تحركت الجيوش الصليبية من المجر وعبرت نهر الدانوب من خلال بلاد الصرب، وتجمعت في أراضي بلغاريا بالقرب من نيكوبوليس Nicopolis[٢] ثم حاصرتها،[٣] وتمكنت من إحراز نصر خاطف على القوات العثمانية التي كان

---

(١) هم طائفة من الرهبان الذين ذهبوا إلى بلاد فلسطين في القرن الحادي عشر الميلادي أثناء الحروب الصليبية التي أثارها المسيحيون على المسلمين لامتلاك القدس الشريف لخدمة حجاج النصارى. ولما استولى السلطان صلاح الدين الأيوبي على مدينة القدس سنة ١١٨٧م، انتقلت هذه الطائفة إلى عكا ثم إلى جزيرة رودس، واتخذتها مركزاً لمحاربة المسلمين وتعطيل تجارتهم ونهب مراكبهم وأسر من بها. ولما فتح السلطان سليمان القانوني هذه الجزيرة سنة ١٥٢٢م، رحلت هذه الطائفة إلى جزيرة مالطا التي أعطاها لهم الإمبراطور شارلكان، فاحتلوها إلى أن فتحها بونابرت سنة ١٧٩٨م أثناء مجيئه إلى مصر. فانمحت هذه الطائفة تقريباً، ولم يبق منها إلا اسمها. (محمد فريد: المرجع السابق، ص٥٠).

(٢) يقال لها في الكتب التركية نيكبولي Niğbolu

(٣) يذكر عمر فاروق، أن القوات المتحالفة جمعت الأسرى المسلمين الموجودين لديهم قبل أن تبدأ المعركة، وقتلوهم جميعاً بصورة وحشية، مما ألهب حماس الأتراك المسلمين وحرك حميتهم للانتقام. (عمر فاروق: تاريخ أبو الفاروق، م١، ص١٦٤ استانبول ١٣٢٥هـ)

يرأسها أورنوس بك ومعه أمير الصرب استفان بن لازار. ولكن بايزيد الصاعقة تصدى لهذه الحشود التي كانت تتحرق شوقاً للقاء العثمانيين متوهمة أن النصر سيكون حليفها، وشدد عليها الهجوم، وتمكن من إنزال هزيمة نكراء بها في ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦م. فتشتت الصليبيون وأسر منهم بعض القواد وقتل من لم يتمكن من الفرار بنفسه. وقام ببعض الغارات على الأفلاق وهنغاريا والبوسنة والصرب، ثم فتح آخر مدينة في بلغاريا وهي ويدين وجعل منها ومن سلستره ونيكوبوليس قلاعاً متقدمة للتحرك منها لمحاربة هنغاريا والأفلاق ١٣٩٦م. ثم دخل ألبانيا مرة أخرى واستولى على اشكودره وكورويه وبرات وكاستوريا، وقبلت أسرة بوشالتى التى تحكم في الشمال التبعية للعثمانيين.

وبهذا قضى بايزيد على أكبر حملة صليبية، توجهت لوقف تقدم العثمانيين في أوروبا. وأخذ بعد ذلك ينتقم من شبه جزيرة المورة التي تحالفت مع الصليبيين، فدمر أراضيها وخربها.

وقد زاد النصر العثماني على الصليبيين في نيكوبوليس مخاوف الأوروبيين من العثمانيين، فضلاً عن أنه زاد من احترام العالم الإسلامي لهم.(١) وتعتبر هذه المعركة من أهم الانتصارات الكبيرة التي وطدت الحكم العثماني في البلقان.(٢)

حصار العثمانيين الأول للقسطنطينية:

وبعد أن فرغ بايزيد الصاعقة من التصدي للصليبيين، بدأ يركز حول تشديد الحصار الذي بدأه سنة ١٣٩١م (٧٩٤هـ) حول القسطنطينية لفتحها. وقد

(1) Stanford Shaw: Op. Cit., PP. 33,34

(2) Ismail Hami Danişmend: Adigeçen Eser, cilt I, s. 104-107

أحس الإمبراطور البيزنطي مانويل بأن السلطان العثماني قد انفرد به. فأرسل على الفور رسله إلى الدول الأوروبية. يطلب المساعدة العادلة لإنقاذ المدينة المحاصرة من السقوط، ولكن استغاثته لم تأت بنتيجة فعالة، فقد كانت الاستجابة له فاترة، لم تتعد إرسال قوات رمزية من جنوه وفرنسا. ولكن بايزيد فك الحصار، بعد أن وعده الإمبراطور البيزنطي يوانيس بتنفيذ شروط فك الحصار، وهي: زيادة الجزية المفروضة عليه، وبناء جامع في الحي التركي بالقسطنطينية[1] وهو سركه جى، وتعيين قاض للفصل في المنازعات بين المسلمين والروم في القسطنطينية[2]، والسماح للعثمانيين بتوطين ٦٠٠٠ تركي كحامية عسكرية على طول الشواطئ الشمالية للقرن الذهبي في المنطقة التي يسيطر عليها الجنويون فعلاً.[3]

ومن الجدير بالذكر أن القسطنطينية صمدت ولم تسقط في يد بايزيد لطبيعة موقعها أولاً، ولمشاركة أساطيل جنوة والبندقية في الدفاع عنها ثانياً، في وقت لم يكن لدى العثمانيين فيه أسطول حربي مرموق.[4]

ومع ذلك ضرب بايزيد حول القسطنطينية حصاراً آخر ١٣٩٥م، ثم فك الحصار، لما لم يجد من ورائه فائدة. ثم عاد للمرة الثالثة وحاصرها ١٣٩٦ـ١٣٩٨م، وبنى قلعة أناطولي حصارى (**گوزل حصار أو آقچه**

---

(١) أطلق العثمانيون على القسطنطينية اسم :استانبول" في هذه الأيام. وهو تحريف للكلمات الإغريقية التي تطلق على هذه المدينة، وهي: is tin poli (Lord Kinross: Op. Cit, P. 65)

(٢) انظر: أحمد راسم: المرجع السابق، م١، ص٥٨

(3) Stanford Shaw: Op. Cit., P.31

(4) Philips Price: Op. Cit., P.41

حصار)[١] على البر الأسيوي في مواجهة المدينة لكي يمنع الإمدادات التي تأتي إليها من البحر الأسود[٢] إلا أن السلطان فك الحصار في هذه المرة بعد أن أكد له أعوانه أن الوقت لا زال مبكراً، للحصول على نتيجة من الحصار. كما أن الخطر المغولي المتجه صوب الشام وآسيا الصغرى قد لاحت بشائره، ففك بايزيد الحصار، لكي يتأهب للعاصفة الهوجاء التي تهب على الشرق[٣] .

الخطر المغولي:

لبى تيمورلنك نداء الإغاثة الذي وجهه إليه الأمراء المسلمون الفارون، الذين احتموا به، خوفاً من بطش بايزيد، الذي استولى على ديارهم، واستجاب لتحريضهم على الانتقام من السلطان العثماني على ما اقترفه تجاه الأمراء المسلمين.

وقبل أن يتحرك تيمورلنك لمقاتلة بايزيد الصاعقة، بعث إليه برسالة يهدده فيها ويتوعده، إن لم ينفذ ما أمر به، فقال:

"أي بايزيد الصاعقة ملك بلاد الروم! بعد الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه، والتحية لك. اعلم أنني سلطان جديد منصور على الدوام وموفق بالتأييد. كل الناس عبيد لنا، تنبه إلى أن "قره يوسف" و"سلطان أحمد"، هربا من سطوة

(١) كلمة (حصار) كلمة عربية الأصل دخلت التركية وتعني "قلعة" أو "حصن". "أناطولي حصاري" أي قلعة الأناضول. كلمة (گوزل) بمعنى جميل، و(كوزل حصار) أي القلعة الجميلة أو الممتازة. كلمة (آقچه) Akça بمعنى ضارب إلى البياض. و(آقچه حصار) أي القلعة الضاربة إلى البياض.

(٢) انظر لوحة "قلعة الأناضول" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (٥).

(3) Stanford Show: Op.Cit.,pp.33,34

انظر خريطة "حدود الدولة العثمانية قبل معركة أنقرة (چوبوق اووه)" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (٦).

سيوفنا وهيبة عساكرنا، ولا يخفى عليك أن هذين الرجلين فاسدان، خربا البلاد وقتلا العباد. إنهما كافران عَلَنًا واستكبرا كفرعون وهامان، إذا لم تشأ أن تتعقبهما، فلا تقبلهما لديك. لقد وجدا الحماية والرعاية وأتباعهما في دياركم. إنهم يجلبون الشؤم والنحس أينما حلوا، لا ينبغي أن يكون مثل هؤلاء الرجال في رعاية ملك الروم وحمايته، احذروا من حمايتهم، وأخرجوهم من دياركم، خذوهم واقتلوهم أين ثقفتموهم. احذروا مخالفة أمرنا هذا، لئلا يصيبكم غضبنا ويحل بكم انتقامنا. لابد أنكم علمتم بأحوال الذين خالفونا وأتباعهم وجماعتهم. وخلاصة القول، أننا لا نود أن تكثروا من القيل والقال بيننا. ولا تشغلوا البال بالقتال والنزاع. لقد ضربنا لكم الأمثال وسقنا البراهين، فافهموا ما تضمنته أقوالنا من أنواع التهديد والتخويف. والسلام على من هدى الله، والأمر يومئذ لله".

ورد عليه بايزيد مستهزئاً به وساخراً منه ومستخفاً بتهديداته، قائلاً:

"الحمد لله الذي لا يُحمد على شيء سواه. لقد شُرفنا بالإسلام ديناً. وغزونا سلاطين العرب والعجم. والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. أيها الكلب العقور المدعو تيمور! أيها التيمور الأكفر من ملك التكفور![1] اعلم أنني قرأت رسالتك أيها المشئوم! فهل تخيفني بهذه المهملات؟! هل تخادعني بهذه الترهات؟ أم أنك تقيس حشودنا العسكرية بجيش الهند؟ أو تظن أن جنودنا التي جمعناها تماثل عساكر هراة والعراق؟ أم تقارن غزاة الإسلام لدينا بعساكر الشام وحلب؟ أشح وجهك، ألا إن العذاب الأكبر ينتظر

(١) تكفور (أو تقفور) كلمة يونانية الأصل أو رومية، كان العثمانيون في عهوده الأولى يطلقونها على حكام ولايات الأناضول والروملي من البيزنطيين قبل استيلائهم عليها، (Mehmet Zeki Pakalın: Adigeçen Eser, cilt 3, s. 443) واعتقد أن الكلمة شاعت لدى العثمانيين لقربها من كلمة كافر.

الكفار. إن أعمالك تقتصر على نقض العهود والذمم وسفك الدماء وهتك الحرمات. أما نحن فأفضل السلاطين قاطبة في الشرق والغرب، وأشرف الخواقين البعيدة والقريبة. إنك تعرف جيداً نظام جيوشنا وعساكرنا، وتقف تماماً على انتصاراتنا. هناك فرق كبير بين من يتكفلون بأمر الطغاة البغاة، والذين يتحملون أمر الغزاة العادلين. نحبذ الحرب والضرب، والجهاد صنعتنا، وفي سبيل الله غزونا. إذا كنت حريصاً على الدنيا كالكلاب وتريد القتال والنزال، فنحن لها، وسوف تظهر كلمة الله العليا. إن رجالنا مثواهم الجنة، فقد بذلوا أرواحهم وأموالهم. وخلاصة القول أننا قصرنا أعمالنا وتصرفاتنا على قتال أعداء الله من الكفار والمتمردين. ليكن معلوماً لديك أننا أشعنا هذا الكلام في بلادنا. فإن لم تظهر في ميدان القتال، لأصبحت زوجاتك طالقات طلاقاً بائناً وإذا قصدت بلادنا وهربتُ منك ولم أقاتلك، لأصبحت زوجاتي طالقات طلاقاً بائناً. السلام عليك سلام المسلمين. وعليك لعنة الله ومن والاك إلى يوم الدين.[(١)]"

تحرك تيمورلنك بعد تبادل هاتين الرسالتين نحو آسيا الصغرى، عندما علم بأن بايزيد اعتدى على حاكم أرزنجان والكماخ مطهر الدين بك المشمول بحمايته، فاحتل مدينة سيواس في شرق الأناضول ١٤٠٠م (٨٠٢هـ)، وقضى على حاميتها التي كان بها أرطغرل أكبر أبناء بايزيد. ثم توجه لمحاربة السلطان المملوكي نصر الدين فرج، وتمكن من التغلب على قواته في ملطية وعينتاب وحلب في أكتوبر ١٤٠٠م، ودمشق في ديسمبر من نفس العام. وبعد ذلك قفل راجعاً إلى دياره، إلى أن ينقضي الشتاء ويرتب جيوشه لمعركة إنتقامية كبيرة ضد بايزيد.

---

(١) أحمد راسم: المرجع السابق م١ ص٦١-٦٤.

وفي تلك الأثناء استرعى عدوان تيمورلنك على الأراضي العثمانية، انتباه الأوروبيين، فسعت بعض الدول لاستغلال ما حدث في تحريضه على منازلة العثمانيين والقضاء على دولتهم. تبادلت جنوه الرسائل مع تيمورلنك لهذا الغرض، كما قام الإمبراطور البيزنطي بالاتصال به أيضاً. وجدّ شارل السادس ملك فرنسا في حثه على إنهاء الوجود العثماني. وقد بذلت كل هذه الدول أقصى ما في وسعها لاستغلال هذه القوة المغولية المدمرة في صالحها، بغية القضاء نهائياً على الخطر العثماني الذي يهددهم جميعاً، والذي لم يستطع أحدهم أن يوقف تقدمه وزحفه في أوروبا. ولم يكن يدور في خلد أحد منهم أن القصد من غارة المغول هو الانتقام، وليس الطمع في الاستيلاء على الدولة العثمانية وضمها للإمبراطورية المغولية.

عندما حل ربيع ١٤٠٢م (٨٠٤هـ) أعاد تيمور الكرة على الأناضول مرة أخرى، وتحرك بايزيد لملاقاته على مشارف أنقرة عند مكان يدعى "**چوبوق أووه**"[١] كان أمراء الأناضول الفارين بصحبة تيمورلنك، واصطحب بايزيد معه قوات من البلقان خاصة من بلغاريا، كما كانت معه قوات كثيرة من الإمارات التركية التي استولى عليها. وبدلاً من أن يتراجع بايزيد بجنوده خلف التلال ليريح رجاله بعد الرحلة الطويلة التي قطعوها، دفع بهم إلى المعركة مباشرة، وهاجم تيمورلنك في منطقة مرتفعة من الأرض.[٢]

التقى الجمعان في ٢٧ يوليو ١٤٠٢م ودارت بينهما معركة عنيفة، رجحت كفة العثمانيين في بدايتها لتشديد فرسان الصرب الهجوم على مقدمة

(١) انظر مخطط "ميدان معركة چوبوق اووه" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (٧).

(2) Philips Price: Op. Cit., P. 42

المغول، ولكن سرعان ما فرت قوات الإمارات التركية من جانب بايزيد وانضمت إلى أمرائها الذين يحاربون في صفوف تيمورلنك، كما أن بعض القوات الصربية غيرت ولاءها. ولما رأى بايزيد أن الجمع انفض من حوله، استبسل في القتال ومعه الانكشارية، ولكنه لم يستطع الصمود طويلاً، نظراً لكثافة الهجوم المغولي العنيف، وولى وجهه هارباً، لكنه وقع في الأسر ومعه ابنه موسى، وهرب أولاده سليمان ومحمد وعيسى، واختفى ابنه مصطفى. وقد استمرت هذه المعركة أربع عشرة ساعة، حُسمت في نهايتها لصالح المغول[1].

وأول عمل قام به تيمورلنك بعد أسر بايزيد، هو أنه خرّب أهم المدن العثمانية في الأناضول مثل بروصه وإزنيق، ثم استولى على إزمير منتزعاً إياها من يد فرسان القديس يوحنا الأورشليمي. وعلى الرغم من أن الأناضول كان في ذلك الوقت عبارة عن منطقة مفتوحة أمام تيمورلنك، يستطيع أن يستولي عليها بأكملها في راحة ويسر، إلا أنه لم يكن يهدف إلى القضاء على العثمانيين ودولتهم. واكتفى بأن رد لكل أمير من أمراء الترك، الذين لجأوا إليه، إمارته.

هذا وقد تنفست دول البلقان خاصة والدول الأوروبية الأخرى عامة الصعداء بعد أسر بايزيد. وحدا دول البلقان الأمل في الخلاص بأراضيها من الحكم العثماني. وقد خُيِّل للدول الأوروبية أن الخطر العثماني قد زال، فضربة تيمور كانت عنيفة هزت أركان الدولة العثمانية، لهذا أرسلت بعض هذه الدول

(١) من المحتمل في رأي "فيليبس برايس" أن بايزيد كان يستطيع أن يصرف تيمور عن بلاده لو كان لديه قدر من الحصافة. ولكن بدلاً من ذلك أرسل إليه رسائل تهديد مليئة بالشتائم والتحديات، إن دلت على شيء فإنما تدل على تهوره وعدم تحليه بالحكمة، كما كان الحال في أيامه الأولى في العرش. (Philips Price: Ibid. Loc. Cit).

كالدولة البيزنطية وفرنسا وإنجلترا الرسل بالرسائل والهدايا إلى تيمور وعقدوا معه المعاهدات. وأبدى الإمبراطور البيزنطي استعداده لدفع الجزية إليه وهي التي كان يدفعها لبايزيد.

حدث كل هذا في سبيل تحريض تيمور على القضاء على العثمانيين.

وقبل أن يعود تيمور حرص على أن يقسم الدولة العثمانية بين أبناء بايزيد. فعين سليمان حاكماً على المناطق الخاضعة للعثمانيين في أوروبا، وجعل له أدرنه عاصمة. وعين عيسى على باليكسير وبروصه، ومحمداً على أماسيا. وكل هذا تحت النفوذ التيموري. وهكذا أُعيدت للعثمانيين السيطرة على مناطق الإمبراطورية التي كانت لهم قبل عهد بايزيد الصاعقة، ولكن هيبتهم انحطت حقيقة.

وبعد ذلك قفل تيمور راجعاً إلى عاصمته سمرقند فيما وراء النهر بعد أن قضى ٨ أشهر في الأناضول (يوليو ١٤٠٢ـ مارس ١٤٠٣م). وأثناء عودته، مات بايزيد في الأسر في ٩ مارس ١٤٠٣م (١٥ شعبان ٨٠٥هـ) في مدينة آقشهر. فصرح تيمورلنك لموسى بن بايزيد بنقل جثة أبيه إلى مدينة بروصه حيث دُفن هناك. وبعد سنتين تقريباً مات تيمور في مدينة أُترار في ١٨ فبراير ١٤٠٥م، بينما كان يشن حملة على بلاد الصين.

قتل تيمورلنك الآلاف، وخرب البلاد، وحرق المدن والمزارع، وأخذ الآلاف أسرى كما تذكر لنا كتب التاريخ.

إن التقسيم السياسي للأناضول كما تركه تيمورلنك، لم يكن مختلفاً كثيراً عما كان عليه الوضع في نهاية عهد مراد الأول. فقد منح تيمور الإيلخانيين وضعاً مميزاً في الأناضول، كما أعطى ثلث الأناضول تقريباً للأمير محمد

القراماني، لكي يجعل منه قوة كبيرة تمنع استرجاع العثمانيين لقوتهم في المنطقة.(١)

لقد كانت معركة مشهودة حقاً، لأنها الهزيمة الوحيدة التي جعلت الجيش العثماني يعاني من جرائها مدة طويلة من الزمن. ولم تكن لها خطورة تاريخية، فقد كانت نكسة مؤقتة **(عارضة)** أثرت على تقدمهم واندفاعهم. وما كانت إلا غارة، رجع بعدها تيمور بعام واحد تقريباً إلى سمرقند مرة أخرى. ثم مات تاركاً حالة آسيا الصغرى لم تتغير تغيراً جوهرياً. عادت الإمارات مستقلة كما كانت. وشُغل العثمانيون ببناء دولتهم. والحقيقة التي تسترعى الانتباه في نظر **"برايس"** أن بناء الدولة العثمانية كان بناءً قوياً.(٢)

إلا أن **"شو"** يركز في تعليقه على غارة تيمور، على أن الإمبراطورية العثمانية التي بنيت خلال القرن الرابع عشر كانت تحمل بين طياتها بذوراً لا يستهان بها من الضعف، خاصة في نظامها الإقطاعي، الذي جعل الإمارات المسيحية تحاول الاستقلال كلما أحست بأن السلطة المركزية مضطربة أو ضعيفة.(٣)

فراغ في حكم السلطنة Interregnum العثمانية:

تنازع الإخوة أبناء بايزيد على العرش كل منهم يدعي أحقيته في تولي السلطة العثمانية. وقامت بينهم حروب طويلة، استمرت عشر سنوات تقريباً، سادت فيها الفوضى أرجاء الدولة، وعمتها القلاقل. وقد أطلق العثمانيون على

(1) Stanford Shaw. Op. Cit., P.36

(2) Philips Price: Op. Cit., Loc. Cit

(3) Stanford Shaw: Op Cit.m P. 35

هذه الفترة **"شغورِ سلطنت"** أو **"فتَرَت"**، نظراً لعدم وجود سلطان يمكنه تولي العرش فيها، وفرض احترامه على الإخوة الآخرين.

وكان من الممكن لأوروبا أن تستغل هذه الحقبة لصالحها، لولا الظروف التي كانت تعيش فيها مناطق البلقان خاصة، من تفكك واضمحلال وانقسام، ونزاع على العرش، وأحوال اقتصادية متردية، وظروف اجتماعية مخلخلة، وضعف في الصلة الروحية بين المجتمع والكنيسة في القسطنطينية، وعداء بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية أيضاً. ويبدو في ظني إضافة لذلك ــ أن عامل الخوف كان لا يزال كامناً في نفوس البلقانيين رغم ما حدث للعثمانيين، فلا تزال أصداء الهزيمة في قوصوه ونيكوبوليس تؤرق هؤلاء وترهبهم من قوة العثمانيين.

ويعتقد بعض الأوروبيين أنهم لو كانوا قد اتحدوا في تحالف صليبي، لقذفوا بالعثمانيين خارج أوروبا، ولكن الوضع لم يكن بهذه البساطة، فقوات الحملة العثمانية هي التي دمَّرت مع كثير من جنود **"قاپي قولي"** **"عبيد الأبواب السلطانية"** التي شكلت حديثاً. ولكن الجيش الإقطاعي في أوروبا والغزاة بقوا على حالهم تحت قيادة سليمان ومعظم القواد الرئيسيين. ولم يكن الأوروبيون على أي حال قادرون على أن يستغلوا وضع العثمانيين، فالصرب ظلت تحت سيطرة سليمان، وسجسموند هنغاريا كان مشغولاً بمد نفوذه في وسط أوروبا. وغيابه قوى من عزيمة النبلاء الهنغاريين الإقطاعيين. ومع فقدان الجهود الهنغارية الموحدة فإن أي تحالف صليبي محتمل، سيلقى نفس المصير الذي حدث في نيكوبوليس.

ولم تكن مشكلة العثمانيين تكمن في إعادة بناء الدفاع ضد هجوم أوروبي معاكس، ولكن المسألة كانت تتطلب جهوداً شاقة لتوحيد القيادة. ولم يكن تأسيس

الحكم في الأناضول وخاصة تأسيس نظام الدولة والمجتمع على أسس متينة، ليتزعزع بمواجهة مع تيمور بهذه السهولة.[1]

وكان سليمان بن بايزيد الذي تولى حكم البلقان، يصانع القوى الموجودة في البلقان والقوى الأوروبية الأخرى، خلال هذه الفترة الحرجة التي مرت بها الدولة العثمانية فلبى مطالبهم، وهي: "فتح كل الأساكل في بلاده لتجارة الدول التي تحالفت مع بعضها تحالفاً صورياً لاستغلال هزيمة العثمانيين، وهي: البندقية وجنوة والدولة البيزنطية وفرنسا ومالطة، والموافقة على ألا تدخل السفن التركية الدردنيل إلا بعد استئذان الإمبراطور البيزنطي أو مجموعة الدول هذه، ورد سالونيك للبيزنطيين، والتنازل عن حقه في تقاضي الجزية المعتادة منهم ومن الجاليات الجنوية على البحر الأسود. ويأخذ كروسيه على اللاتين أي البنادقة والجنويين أنهم قنعوا في اللحظات الحاسمة ببعض الامتيازات التجارية.[2]"

لم يتفق أبناء بايزيد على تنصيب أحدهم سلطاناً، لأن كل واحد منهم كان يدعي أحقيته في العرش. استحوذ سليمان على منطقة البلقان، واتخذ أدرنة عاصمة، ثم تحالف مع الإمبراطور البيزنطي مانويل ليعينه على إخوته. وكان سليمان أكبر إخوته ويتمتع بتأييد الانكشارية ووزير أبيه علي چندرلي. واستولى عيسى على بروصه واتخذ منها حاضرة لملكه، وكان يتمتع بمساندة القائد العثماني تيمورتاش. واستقر محمد في سيواس، ثم أعلن نفسه سلطاناً في سنة ١٤٠٧م (٨٠٩هـ).[3]

---

(1) Stanford Shaw: Op. Cit., P. 36

(٢) د. أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، ص٢٢.

(٣) أنظر: Zuhuri Danişmend: Adigeçen Eser, cilt 3, s. 70-77

وانظر: Ismail Hami Danişmend: Adigeçen Eser, cilt I, s. 134-167

بدأ الصراع بين الإخوة على العرش، حيث لا يوجد قانون ثابت لوراثته، كما لم يجر العرف على تعيين واحد بعينه من بين الأمراء.

سار محمد لمحاربة أخيه عيسى، والتقى معه في عدة معارك، تمكن في الأخيرة منها أن يقتله، ودخل بروصه ١٤٠٣م (٨٠٥هـ) وبهذا استخلص آسيا الصغرى لنفسه. ولم يبق أمامه إلا البلقان، فأرسل أخاه موسى على رأس جيش كبير لمحاربة سليمان الذي يتلقى العون من الإمبراطور البيزنطي.[(١)] ولم يتمكن موسى من هزيمة أخيه، فحاول عدة مرات بعد أن تلقى إمدادات كثيرة من أخيه محمد ـ حتى تمكن في النهاية من القضاء عليه بالقرب من أدرنه سنة ١٤١٠م (٨١٣هـ). وبعدها داخل الغرور موسى، فأعلن استقلاله بحكم البلقان، واستعد لمحاربة أخيه محمدًا. ولما علم محمد بما حدث توجه إلى البلقان، وتمكن من محاصرة أخيه سنة ١٤١٣م (٨١٦هـ) والقضاء عليه في النهاية. وبهذا تمكن محمد من القضاء على هذه الفتنة، وتم له توحيد السلطنة العثمانية تحت حكمه.[(٢)] ولُقب محمد الأول بـ (چلبى) ١٤١٣ـ١٤٢١م (٨١٦ـ٨٢٤هـ).[(٣)]

---

(١) أرسل محمد بعد أن تولى العرش رسالة للسلطان المملوكي شيخ المحمودي (١٤١٢ ـ ١٤٢١م) (٨١٥ ـ ٨٢٤هـ)، لتجديد أواصر الصداقة والمحبة بين البلدين، والاعتذار عن تأخره في المراسلة. وقد ضمن الرسالة شكواه من تحالف الإمبراطور البيزنطي مع إخوته ضده، قائلاً: "أن سبب التأخير في إرسال الكتاب إلى ذلك الجناب، وقوع الفترة وامتداد المنازعة بيننا وبين الإخوان أصلح الله شأنهم، لاسيما كثرة المكر ووفرة الاحتيال الصادر عن تكفور القسطنطينية، لعنه الله ودمره، ومعاونته لهم وتحريكه إياهم". (أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٢٢٠ب).

(٢) انظر: عمر فاروق: المرجع السابق، م١ ص١٩٠-٢٢٠.

(٣) چلبى: كلمة تركية تعني: منظم، مهذب، محترم.

كان الحكام العثمانيون الأول يُلقبون بلقب "بك"، كما كان أبناؤهم يُلقبون بنفس اللقب أيضاً. ثم أخذ السلاطين يُلقبون أبناءهم بلقب (چلبى) حتى عهد السلطان محمد الفاتح. وأوضح مثال على ذلك السلطان بايزيد الصاعقة الذي لقب أولاده بهذا اللقب، ومنهم ابنه محمد.
(Mehmet Zeki Pakalın: Adigeçen Eser, cilt, s.342)

وهكذا تخطت الدولة العثمانية المحنة، رغم المخاطر التي كانت تحيط بها. ولم يتقوض بناؤها، لأنها كانت وطيدة الأركان على حد قول جيبونز. وعادت سيرتها الأولى في الفتح شرقاً وغرباً، بعد أن قام السلطان محمد بتنظيم الدولة وإعادة النظر في بعض الأمور التي تأثرت بغارة تيمورلنك.

ومن الجدير بالذكر، أن اهتمام العثمانيين ــ بعد موت بايزيد الأول ــ ظل منصباً على الفتوحات في الشرق أكثر من الغرب، خلال عهدي محمد الأول وابنه مراد الثاني الذي تلاه على العرش (١٤١٣ـ١٤٥١م = ٨١٦ـ٨٥٥هـ)،[1] وهي الفترة التي يطلق عليها مرحلة رأب الصدع Restoration.

بعض الفتن في عهد محمد الأول:

كان السلطان محمد هادئ الطبع ميالاً للسلم غير مندفع كأبيه، فلم يثر الدول الأوروبية ضده، وتحالف مع الإمبراطور البيزنطي اتقاء شره في هذه المرحلة التي تمر بها الدولة العثمانية. كما كان متسامحاً ، يعفو عمن يخرج عن الطاعة إذا وعد بعدم تكرار ما حدث وأقسم على ذلك. وأكبر مثالين في هذا الخصوص، عصيان أمير القرمان وقره جنيد حاكم إزمير الذي تكرر عدة مرات، ورغم ذلك كان السلطان يلتمس العذر ويعفو، ويقبل الطاعة ولا يقدم على الانتقام. وبهذه الطريقة التي تتسم باللين، استطاع أن يكسب صداقة أمراء الأناضول الذين عصوه، وفرض نفوذه عليهم بالتدريج، وأجبرهم على احترامه وخشيته.

(1) Philips Price: OP. Cit., P.45

حدثت بعض القلاقل الأخرى في الأناضول في تلك الفترة. فقد تزعم بدر الدين قاضي عسكر الأمير موسى الذي قُضي عليه، حركة صوفية متطرفة، هي الباطنية [١]. وأخذ يحرض الناس على العصيان في بعض مناطق الروملي والأناضول ١٤١٣م (٨١٦هـ)، وكان بوركلوجه مصطفى واليهودي طورلاق كمال يساعدان هذا العاصي. أرسل السلطان ابنه مراد وبايزيد باشا أمير الروملي، لإخماد هذه الفتنة، فتمكنا من قتل مصطفى في ضواحي إزمير. وفر بدر الدين هارباً إلى البلقان، فتبعاه حتى قبضا عليه، وأرسلاه إلى السلطان في سرز. صدرت فتوى من أحد العلماء ويدعى **"مولانا حيدر"** الهراتي، بوجوب قتل بدر الدين، فنفذ فيه الحكم ١٤٢٠م (٨٢٣هـ).[٢]

ولم تكد هذه الفتنة تخمد، حتى ظهرت فتنة أخرى، كان يتزعمها الأخ الأصغر للسلطان وهو مصطفى، الذي يسمى في كتب الترك دوزمه مصطفى أي مصطفى المزيف، لأنه اختفى بعد معركة أنقرة ثم ظهر فجأة في هذه الآونة، مما دعا الكثيرين للشك في نسبه إلى السلطان، لأنهم أجمعوا قبلا على موته في ساحة القتال. وانضم قره جنيد إلى الأمير الذي يطالب بالملك، وساعده بما تيسر له من جنود. قام مصطفى بعد أن أحس بقوته بشن عدة غارات على بعض مناطق اليونان التي تحت النفوذ العثماني. ولكنه لم يقو على مواجهة جيوش أخيه، ففر إلى سلانيك وكانت قد أعيدت إلى البيزنطيين بعد موقعة أنقرة. وجد الإمبراطور البيزنطي فرصة سانحة أمامه، فأخذ الرجلين، واحتفظ بهما رهينة عنده يساوم بها السلطان محمدا وقت الحاجة، وامتنع عن تسليمهما له، وتعهد

(١) نشأت فرق كثيرة من فرق التصوف في الأناضول أيام حكم الدولة العثمانية.

(2) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, Cilt I, s. 360-367

بعدم إطلاق سراحهما ما دام كلا العاهلين على قيد الحيـــاة، نظــراً لمعــاهدات الصداقة التي تجمع بين الطرفين.

ولم توقف هذه الفتن اهتمام السلطان محمد الأول بأوروبا، فعندما اســتغل نبلاء الألبان فرصة شغور العرش لقتل معظم جنود الحاميــات العثمانيــة فــي بلادهم، استعاد السلطان مكانته على الفور، واستولى على كرويه **(آقچه حصار)** في الجبال الوسطى وآولونيا على الساحل. ثم أغار على المورة، واستولى علــى جورجو مفتاح حصون الدانوب التي تتحكم في وسط هنغاريا. وأغار أيضاً على ترانسلفانيا وهنغاريا والبوسنة.[١]

وبعد انتهاء هذه الفتنة، تفرغ السلطان لإجراء بعض الأنظمــــة الداخليــة لتحاشي حدوث مثل هذه المنازعات في المستقبل، ولكن الموت لم يمهله طويــلاً، فتوفى في أدرنه سنة ١٤٢١م (٨٢٤هـ).

الدوشرمة:[٢]

يعزى الفضــل إلى السلطـــان محمد چلبى في تنظيــم الجيش لتدارك مــا حدث من جراء غارة تيمور.

توقفت الفتوحات العثمانية مؤقتاً بعد موقعة أنقرة، وفضلاً عن ذلك، فقــد استولى الإمبراطور البيزنطي وملك بلغاريا على بعض الأراضي. لهذا أصــدر السلطان محمد الأول **"چلبى"** وابنه مراد الثاني من بعده قانوناً بجمع الشباب فــي

(1) Stanford Shaw Op. Cit., P. 42

(٢) الدوشرمة Devşirme : كلمة تركية الأصل تعني: الجمع، الاقتطاف، الاجتناء، جمع العساكر غير النظامية من هنا وهناك (شمس الدين سامي: قاموس تركي، م١، ص٦٢٧ استنبول ١٣١٧هـ).

سن السابعة أو الثامنة من بعض التبعة المسيحيين في الروملي كل ثلاث أو خمس سنوات أو أكثر أحياناً، لأنهما لم يتمكنا من الاستفادة الفعلية بالأسرى.[١] وهكذا صدر "**قانون الدوشرمة**" وكان يُقال لهذا النوع من الشباب "**أعجمي أوغلاني**". كما كانت تُطلق نفس التسمية على الأسرى الذين ينضمون إلى الانكشارية.

كان فتيان الدوشرمة يجمعون من الأرناؤوط والبلغار والأرمن والبوسنة، وكان البشناق من بين هؤلاء أيضاً على الرغم من أنهم من المسلمين.

كان أبناء المسيحيين يؤخذون من أماكن معينة لكي يربوا على أصول الدوشرمة وكانت أكثر هذه الأماكن، هي: أوسكوب وايشتيب وكوستنديل وبيرزرن وكوريجه وصماكوف وپريبول وطاشليجه وأريلى قصرى ويانيه وپيرلبه وأشقودره و"أخرى" وايپك ودوقاقين وقيرچوفه وفوچه ونوفسين ونوفاپرسيه ومناستر وموستر وايموچقا وايزفورنيك وبيورتلن وكوليكسريه وخوپيشته وبيبلشته وآقچه قلعة.[٢]

ووجد السلاطين في هذا النظام ميزة كبرى، فالأطفال الذين يُجمعون بهذه الطريقة أصبحوا تابعين لهم تماماً، فهم يؤخذون من أقل طبقات رعاياهم خطراً، كما أن ارتباطاتهم القديمة قد انفصمت أو كادت. ومن هنا أدى نظام جمع

---

(١) يُقال أن سبب نشأة فكرة الدوشرمة راجع إلى توقف الفتوحات مؤقتاً، مما سبب نقصاً في عدد الأسرى الذين ينضم خمسهم إلى الانكشارية. كما أن انتشار الدولة العثمانية في مناطق واسعة فرض عليها التزامات جديدة نحو إقرار الأمن وتثبيت الإدارة. (د. عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، ص ٤٢).

(2) Mehmet Zeki Pakalın: Adigeçen Eser, cilt I, s.445.

الأطفال إلى تطور آخر. فبينما كانت الإمبراطورية النامية يقوم على إدارتها في أيامها الأولى مسلمون أحرار، فقد حل الآن محلهم دون استثناء عبيد السلطان على نطاق أوسع، حتى وصل الأمر إلى أن كل منصب تقريباً في الهيئة الحاكمة للإمبراطورية أصبح يشغله إما مسيحي مجند أو عبد يقتني بطريقة أو بأخرى على حد قول هاملتون جب وهارولد بوون.(١)

وتولى مراد الثاني ١٤٢١ـ١٤٥١م (٨٢٤ـ٨٥٥هـ) بعد محمد چلبي.(٢)

بعض القلاقل في عهد مراد الثاني:

بدأ السلطان الجديد يفكر في إخضاع الإمارات الخارجة عن الحكم العثماني بالأناضول التي ردها تيمورلنك لأصحابها بعد موقعة أنقرة. ولكن مانويل الثاني لم يمهله حتى يستقر على العرش، ويبدأ التخطيط للفتح، فقد أطلق سراح عمه "دوزمه مصطفى" وأمده بالعتاد الحربي. تقدم مصطفى في الروملي واستولى على مدينة غاليبولي، إلا قلعتها التي أبت الاستسلام. وبعدها توجه للاستيلاء على العاصمة أدرنه، فتصدى له الوزير بايزيد باشا، ولكن مصطفى

(١) هاملتون جب وهارولد بوون: المرجع السابق، جـ١، ص٦٣.

(٢) يجري تقليد السيف لدى العثمانيين بعد إعلان البيعة للسلطان الجديد. وأول من تقلد السيف هو السلطان مراد الثاني الذي توجه من أماسيا إلى بروسه بعد أن علم بتنصيبه على عرش الدولة العثمانية. وقد قابله الشيخ مبارك (أمير بخاري) صهر بايزيد الصاعقة ومعه الأهالي خارج مدينة بروصه، وقلده السيف، وهو سيف عثمان (الأول) جد العثمانيين. ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا تقليداً مستحباً لدى السلاطين العثمانيين حتى أن السلطان محمد الفاتح تقلد السيف من الشيخ آق شمس الدين. وبعد عهد السلطان سليم الأول، اعتاد السلاطين العثمانيون على تقلد نفس السيف في جامع أبي أيوب الأنصاري الصحابي الجليل الذي استشهد أثناء حصار القسطنطينية سنة ٥٢هـ في عهد معاوية بن أبي سفيان. وقد بني السلطان محمد الفاتح هذا الجامع بعد فتح القسطنطينية بجوار المكان الذي استشهد فيه أبو أيوب (أحمد راسم: المرجع السابق، م ١، ص ٩١،٩٢).

تمكن من الفتك به. وكانت نهاية هذا الأمير المطالب بالعرش على يد السلطان نفسه، حيث قبض عليه بالقرب من غاليبولي، وأمر بشنقه ١٤٢٢م (٨٢٥هـ).

الحصار الثاني للقسطنطينية:

وبعد أن انتهى مراد الثاني من هذه الفتنة، أراد أن ينتقم من محركها، الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني. فقام بمحاصرة القسطنطينية في ٢٤ أغسطس ١٤٢٢م (٣ رمضان ٨٢٥هـ)، وتشديد الحصار حولها. وأمام هذا الخطر الذي لا قبل لمانويل به، فكر في إثناء السلطان أو وزيره إبراهيم باشا عن عزمه بالإغراءات، ولكن مساعيه باءت بالفشل. ففكر في حيلة أخرى يجبر بها خصمه على فك الحصار، وهي أنه حرض الأخ الأصغر للسلطان ويدعى مصطفى چلبي على المطالبة بالعرش، وأمده بجيش وعتاد حربي، ليبدأ عصيانه في الأناضول. فاضطر السلطان لفك الحصار عن القسطنطينية بعد أن استمر شهرين تقريباً، وتوجه بسرعة لإخماد الفتنة، التي اتسع نطاقها بانضمام بعض أمراء الأناضول إليها، وتمكن من القبض على أخيه، وقتله.

استرجاع إمارات الأناضول:

وبعد أن استتبت الأمور، بدأ مراد الثاني من سنة ١٤٢٣ـ١٤٢٨م (٨٢٦ـ٨٣١هـ) في استرداد إمارات الأناضول دون عناء كبير، وهي: قسطموني وآيدين وصاروخان ومنتشا والقرمان ثم گرميان. وبهذا تمكن هذا السلطان من استعادة كل الإمارات الأناضولية التي أعاد تيمورلنك استقلالها إليها بعد موقعه أنقرة.[1]

---

(١) سُكت عملة في عهد مراد الثاني كُتب عليها :"انگوريه" أي أنقره، وهو الإملاء الأصلي للكلمة، ثم سُميت فيما بعد أنقرة (أحمد راسم: المرجع السابق، م١، ص٢٤٢ استانبول ١٣٢٦،١٣٢٨هـ)

مراد الثاني وحروبه في أوروبا:

وبعد ذلك واجه مراد الثاني الدول الأوروبية، فقد انسلخت بعض المناطق عن الدولة العثمانية بعد موقعة أنقره واستهان بقوتها البعض الآخر.

١ - الأفلاق:

عصى "دره قول" أمير الأفلاق الدولة العثمانية واعتدى على بعض أملاكها ماراً بسلسترة، فتصدى له القائد العثماني فيروز بك وهزمه هزيمة منكرة. فاضطر دره قول لعقد الصلح ودفع مبلغ من النقود يعادل خراج عامين اثنين. وعندما علم أمير الأفلاق بانتقال السلطان مراد الثاني من الأناضول إلى أدرنة، أرسل إليه ولديه لتقديم الطاعة والولاء وخراج العامين. فاحتفظ السلطان بواحد منهما رهينة لديه ١٤٢٤م (٨٢٧هـ). [١]

٢ - الصرب:

ثم أراد أمير الصرب الجديد جورج برانكوفتش أن يغير من سياسة سلفه اسطفان لازارفتش التي ترمي إلى مهادنة العثمانيين. فقام بالتنازل لسجسموند ملك المجر ولإمبراطور ألمانيا عن بعض بلاده لكي يدافعا عنه وقت الخطر ضد العثمانيين. ولكن ملك المجر احتفظ ببعض هذه المناطق كسمندره مثلاً، وترك بعض القلاع للعثمانيين سنة ١٤٢٧م (٨٣١هـ). وعندما هم بتخليصها منهم، لم يوفق في ذلك، وفضل الدخول معهم في الصلح. وعندما رأى أمير الصرب

---

(١) انظر: Zuhuri Damişmend: Adigeçen Eser, cilt3, s. 220-300.
وانظر: Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt I, s. 398

ذلك، أراد أن يفوت الفرصة على ملك المجر، فعقد صلحاً مع السلطان العثماني، تعهد بموجبه بدفع جزية سنوية تقدر بخمسين ألف دوقه، وتقديم بعض الجنود للعثمانيين مساعدة لهم في حروبهم. وقام بقطع كل علاقاته مع المجر.

ومن الجدير بالذكر أن المجر كانت دائماً تحرض الصرب والأفلاق ضد الدولة العثمانية، لأنها تدعي أحقيتها بملكية هاتين المنطقتين.(١)

٣ - سلانيك والحرب العثمانية البندقية الأولى:

لم يتمكن مراد الأول من الاستيلاء على سلانيك، وفي ٢١ أبريل ١٣٩٤م (١٩ جمادى الثانية ٧٩١هـ) استولى بايزيد الصاعقة عليها. وبعد موقعة أنقره تركها الأمير سليمان بن بايزيد الصاعقة للإمبراطور البيزنطي. وفي عهد مراد الثاني دخلها أخوه الأصغر مصطفى چلبى الذي أعلن العصيان عليه، فرأى السلطان العثماني أن يرجعها إلى النفوذ العثماني. وأمر بعض قواده بمحاصرتها. ولما لم يستطع الإمبراطور البيزنطي أندرونيكس بن مانويل أن يدافع عنها، اضطر أهلها إلى الارتماء في أحضان البنادقة لتخليصهم من ويلات الحصار. وقرروا بيع المدينة لهم سنة ١٤٢٣م (٨٢٦هـ)، فاشترى البنادقة سلانيك مقابل خمسين ألف دوقة، بشرط أن يظلوا على ولاء تام لهم.

بقى العثمانيون والبنادقة أصدقاء معظم الوقت حتى هذه اللحظات، فقد شغلت البندقية بحماية امتيازاتها التجارية في الولايات العثمانية وفي منطقة البحر الأسود، وتأكيد العلاقات الطيبة مع الدولة العثمانية، خاصة منذ أن بحث

---

(١) انظر: Ismail Hami Danişmend: Adigeçen Eser, cilt I, s.90-95
وانظر: Ismail Hakkı: Adigeçen Eser., cilt I s.399,400

منافسوهم من الجنويين كيفية استخدام صداقتهم للسلطان مراد في طردهم وإبعادهم. وقعت البندقية اتفاقية تجارية مع مراد الأول ١٣٨٨م وظلت بعيدة عن الاشتراك في حرب قوصوه التي تحالفت فيها الدول الغربية ضد الدولة العثمانية. ولكن الفتح العثماني لمناطق مقدونيا تجاه الأدرياتيك ولبلاد اليونان تجاه بحر إيجه، أفزع البنادقة من المد العثماني في مناطق كانت تحت السيطرة البندقية لبعض الوقت. ومن ناحية أخرى فإن العثمانيين اعتراهم القلق من جراء سيطرة البنادقة على ممرات بحر إيجه، مما يهدد أملاك العثمانيين في الأناضول والروملي ويمنع إتمام توحيد شطري الإمبراطورية العثمانية.(١)

ومن الجدير بالذكر أن القوات العثمانية كانت تركز اهتمامها أكثر على القوات البرية، إلا أن هذه الظروف اضطرت بايزيد الثاني إلى بناء أسطول يواجه به تفوق البنادقة في البحر، ليتمكن من فتح سلانيك.

أخذ السلطان يتحين الفرصة ويعد العدة، ثم هجم على المدينة واستولى عليها في ٢ مارس ١٤٣٠م (٢٧ رجب ٨٣٣هـ) وطرد البنادقة منها،(٢) بعد أن استمرت المناوشات بين الطرفين مدة طويلة ابتداء من ١٤٢٣م (٨٢٦هـ)، بسبب ضعف الأسطول العثماني.(٣)

---

(1) Stanford Shaw: Op. Cit., P. 47

(٢) بقيت من الإمبراطورية البيزنطية عند اعتلاء جون الثامن العرش (١٤٢٥ – ١٤٤٨م)، العاصمة القسطنطينية وشبه جزيرة الموره ومدن متفرقة في تراقيا ومنطقة سلانيك. وكانت هذه الأجزاء مستقلة تقريباً في إدارتها عن الحكومة المركزية مما سهل على العثمانيين ابتلاعها تباعاً. (د. عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص١٨٢ بيروت ١٩٦٦)

(3) Dr. Halil Inalcik: The Rise of the Ottoman Empire, A chapter in: A History of the Ottoman Empire to 1730, by Parry and Others, p. 29

٤ - الصرب والمجر والقرمانيون:

وأثناء انشغال السلطان العثماني بحروبه في أوروبا، اتفق إبراهيم بك حاكم القرمان مع الصرب والمجر على محاربة الدولة العثمانية، وسلخ بعض الأجزاء من أراضيها، وشغلها بين أوروبا وآسيا. ولما علم السلطان بذلك، فضل أن يستقر في العاصمة أدرنه يراقب تطور الأحداث. وأرسل على الفور بعض القوات لمنازلة الدولة الأقوى بين هذه القوات الثلاث، ألا وهي المجر. وقد تمكن قواده من إنزال هزيمة نكراء بملكها في موقعة ويدين سنة ١٤٣٣م (٨٣٧هـ)، فولى هارباً. ثم تحرك السلطان بنفسه إلى بلاد القرمان، وعزل إبراهيم وعين أخاه عيسى مكانه . وقد وسّط إبراهيم أحد العلماء لطلب العفو من السلطان، فعفا عنه شريطة ألا يتولى حكم الولاية. وأخذ السلطان يفكر في محاربة الصرب. ولما علم أميرها بذلك قدم اعتذاره عن تحالفه مع القرمانيين. وأرسل ابنته ماريه للسلطان لكي يتزوجها، فضمها السلطان لحريم القصر لصغر سنها، وأرجأ الاستيلاء على بلاد الصرب.

تفرغ السلطان بعد ذلك لمحاربة المجر، فأرسل قائده علي بك على رأس جيش كبير، عبر به نهر الطونه، ثم استولى على تمشوار سنة ١٤٣٦م (٨٤٠هـ) بعد حصار دام أربعين يوماً. وفي السنة التالية تحرك السلطان بنفسه إلى بلاد ترنسلفانيا، وانضمت إليه قوات الصرب والبلغار الموجودة في تلك المناطق. وعندما علم ملك ترنسلفانيا بذلك تقهقر أمام هذه القوات التي اتخذت من عساكر الصرب والبلغار دليلاً لها في المنطقة.

حانت الفرصة أمام السلطان للاستيلاء على بلاد الصرب، فأرسل قوات حاصرت سمندره واستولت عليها، ثم توجهت إلى بلغراد وأحكمت الحصار حولها. ولكن قلاع المدينة لم تسقط في أيدي العثمانيين رغم شدة الحصار الذي

دام ستة أشهر، فرفعت القوات العثمانية عنها الحصار سنة ١٤٣٩م (٨٤٣هـ).[١]

٥ - محاولة توحيد الكنيستين:

بذل جون باليولوج الثامن محاولات عديدة لتحيق توحيد الكنيستين في القسطنطينية وروما، ليضمن مساعدة الغرب له ضد العثمانيين، رغم معارضة الأهالي ورجال الدين ومقابلتهم هذه المحاولات بإظهار العداء السافر للرومان. بدأ باليولوج مساعيه بعد أن أحس بالخطر يهدده عقب تمكن السلطان العثماني من هزيمة الصرب والبلغار والمجر في عدة مواقع، فقصد إيطاليا لمقابلة البابا أوجين الرابع (١٤٣١-١٤٤١). ثم عقد مؤتمرًا في فلورنسا أعلن فيه توحيد الكنيستين في ٦ يوليو سنة ١٤٣٩م، إلا أن هذه المعارضة القوية في القسطنطينية جعلت هذه الوحدة غير مجدية. كما أثارت هذه الوحدة الدول السلافية وخاصة روسيا، التي رأى رجال الدين فيها موافقة بطريق القسطنطينية على الاتحاد خيانة للمعتقد الصحيح.[٢]

٦ - التكتل الغربي وموقعة وارنه:

استمر العداء بين الدولة العثمانية والمجر. فأرسل السلطان قواته في ١٨ مارس سنة ١٤٤٢م (٣٠ ذو القعدة ٨٤٥هـ)، تحت قيادة مزيد بك إلى ترنسلفانيا. تحركت القوات العثمانية، وبعد أن عبرت بلاد ترنسلفانيا وتقدمت

---

(1) Zuhuri Danişmend: Adigeçen Eser, cilt3, s. 302-305
Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt I, s. 413-418.

(2) Stanford Shaw: Op. Cit., P. 50.
وعبد القادر اليوسف: المرجع السابق، ص١٨٣

فيها، حاصرت قلعة هرمانشتاد. فسارع جان هونيـــادي **(هونيـــادي يـــانوش)** لمساعدة القلعة على فك الحصار. ولكن القائد العثماني شـــدد الحصـــار حـــول القلعة، وتمكن من قتل صديق لهونيادي يدعى سيمون دي جيميني ومعه ثلاثـــة آلاف جندي . وبهذا تمكن العثمانيون من إحراز النصر في هذه المواجهة. ولكن القوات المحاصرة اشتركت في الهجوم على العثمـــانيين، فـــانحصرت القـــوات العثمانية بين نارين، وسقط منهم نحو عشرين ألف قتيل كان بينهم مزيـــد بـــك وابنه. ودخل هونيادي بلاد الأفلاق، وخرّب المدن الواقعة على شـــاطئ نـــهر الطونه. وقد كان انتصار هونيادي في هذه المعركة سبباً في شهرته في أوروبا.

حشد السلطان العثماني قوات كثيرة تحت إمرة بعض قـــواده، لمواجهـــة هونيادي، ولكن هذا القائد الماهر استطاع أن ينزل بها جميعاً هزيمة شديدة فـــي موقعة وازاج سنة ١٤٤٢م (٨٤٦هـــ).

طاف "جناكي طورزللو" مبعوث البابا بأوروبا يحمل رسالة، يقول فيها أن الأسطول المسيحي يستطيع أن يغلق المضايق، فيصعب على العثمـــانيين نقـــل الجنود من الأناضول إلى أوروبا. والحاجة ماسة إلى توفـــير ٨٠٠٠٠ جنـــدي لطرد العثمانيين من أوروبا واستعادة الأرض المقدسة. وقد أبلـــغ الإمـــبراطور البيزنطي السلطان، بأنه لن يشترك في حرب صليبية ضد الدول العثمانية.[1]

ومن الجدير بالذكر أن الهزيمتين اللتين مني بهما العثمانيون أمام هونيادي شجعت الدول الأوروبية على مواجهة العثمانيين في حرب صليبيـــة. فتجمعـــت قوات من لهستان (بولونيا) والأفلاق والصرب والألمان وإبراهيـــم بـــك أمـــير

(1) Stanford Shaw: Op. Cit., P. 51

القرمان المعزول، وشاركت كل من فرنسا وبلجيكا مشاركة وجدانية. تحركت هذه القوات الكبيرة تحت قيادة لادسلاس جاجيلون ملك بولونيا والمجر (**هنغاريا**) وهونيادي في ٢٢ يولية سنة ١٤٤٣م من عاصمة المجر بودين (**بودا**)، ومرت بالقرب من سمندره، ثم عبرت الطونه إلى بلاد الصرب، وانضم لهذا الجيش في ذلك الوقت بعض القوات من بلغاريا والبوسنة والأرناؤوط. كما شارك كل من أمير الصرب جورج برانكوفتش وأمير الأفلاق دراكولا وكيل البابا الكاردينال جوليان سيزاريني في هذه الحروب. استولى هونيادي على بلاد الصرب وخرّب كورشاواج (**آلاجه حصار**) وشهركوى ونيش. ثم التقت القوات الصليبية مع القوات العثمانية بالقرب من نيش على نهر موراوا في ٣ نوفمبر سنة ١٤٤٣م، ودارت الدائرة على العثمانيين وتشتتت قواتهم. تقدمت القوات الأوروبية بعد ذلك ودخلت بلغاريا واستولت على صوفيا. والتقت بالقوات العثمانية التي كان يقودها السلطان بنفسه عند نهر ايزلادى. وانهزمت القوات العثمانية للمرة الثانية، ثم للمرة الثالثة عند يالواج. فانسحب السلطان إلى أدرنه، وطلب الصلح فقبله لادسلاس في ١٢ يونية سنة ١٤٤٤م (٢٥ صفر ٨٤٨هـ). ثم تنازل السلطان بعدها عن الحكم لابنه محمد، متأثراً من كثرة هزائمه. ولكن كبار رجال الدول أقنعوه بالعودة لصغر سن ابنه البالغ من العمر اثنتا عشرة سنة ولقلة تجاربه، وإحاطة الدولة بالأخطار الصليبية.

لم يمض على معاهدة أدرنه أكثر من ستة أشهر حتى نقضها الصليبيون. وقامت الحرب بين القوتين عند وارنه في ١٠ نوفمبر سنة ١٤٤٤م (٢٨ رجب ٨٤٨هـ). وقد تمكن السلطان بصعوبة بالغة من التصدي لهذه القوات، وسقط

في المعركة لادسلاس والكاردينال. فخارت قوى الصليبيين، وتمكن مراد من إلحاق الهزيمة بهم.[1]

وتعتبر معركة وارنه آخر المحاولات الصليبية لإنقاذ القسطنطينية على حد قول إسماعيل حقي[2]

وعندما استتبت الأمور ترك السلطان العرش لابنه ثانية، ولكن كبار رجال الدولة أثاروا عليه عساكر الانكشارية، فعاد السلطان للعرش مرة أخرى.

٧ – المورة:

دخلت شبه جزيرة المورة تحت النفوذ العثماني في عهد بايزيد الصاعقة، وبعد موقعة أنقرة انسلخت عن الدولة العثمانية. فأعادها السلطان مراد الثاني إلى الأراضي العثمانية بعد أن فتح برزخ كورنته في ٢٠ نوفمبر سنة ١٤٤٦م (٨ رمضان ٨٥٠هـ). وقد قبل السلطان من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين دفع الجزية مقابل حكمه للمورة تحت النفوذ العثماني.

٨ – بلاد الأرناءوط (ألبانيا):

منذ أن استولى السلطان على بلاد الأرناءوط وهي دائمة القلاقل. فبعد أن استولى بايزيد عليها أخذ أبناء أميرها جورج كاستريوتا رهينة لديه. وكان بين هؤلاء الأولاد ابن يسمى اسكندر اعتنق الإسلام، وتولى الحكم بعد موت أبيه بموافقة السلطان. ولما تحقق اسكندر بك من انشغال مراد الثاني بمحاربة

---

(١) أنظر: Ismail Hami Danişmend: Adigeçen Eser, cilt I, s. 200-208

(2) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt I, . 435

الصليبيين، أحضر كاتب أول "باشكاتب" السلطان على بلاد الأرناؤوط وأجبره على أن يوجه إليه باسم السلطان حكم مدينة آق حصار الألبانية. ثم قام بقتل هذا الكاتب ليخفي السر. وتوجه إلى المدينة المذكورة، فدخلها بسهولة. ونادى هناك بطرد العثمانيين من البلاد كلها والتخلص من الحكم العثماني. علم السلطان بهذا التمرد، فأرسل إليه أحد قواده وهو علي باشا لإخماده. التقى القائد العثماني باسكندر بك في عدة مواقع وانتصر عليه، ثم تراجع مسرعاً بعد ذلك، لقيام الصليبيين بنقض صلحهم مع العثمانيين. ولما تمكن السلطان من الانتصار في **موقعة وارنه**[1] عاود إرسال الجيش لإخماد فتنة اسكندر بك. وانتصر الجيش العثماني في عدة مواقع، ثم انسحب من الميدان فجأة بسبب إغارة هونيادي على بلاد الصرب لمحو عار هزيمة وارنه.

٩ – التكتل الغربي مرة أخرى وموقعة قوصوه الثانية:

بدأ هونيادي محاولاته المستمرة لتكوين جيش صليبي جديد منذ أن عاد إلى بودا. وقد عُين وصياً على العرش بالمجر لحداثة سن ابن لادسلاس، مما قوى عزيمته على تنظيم الجهود ضد العثمانيين في كل أوروبا. عبر هونيادي الدانوب شمالي الصرب ومعه ٥٠٠٠٠ رجل ولم ينضم إليه برانكوفتش أو يقوم بمساعدته ، على الرغم من وجود قوات من لدن اسكندر بك والأفلاق انضمت لهذا الحشد الكبير الذي كان يتحرك جنوباً.

تقابل الجيش العثماني بقيادة السلطان مع جيش هونيادي المكون من الصليبيين في قوصوه في ١٧ أكتوبر ١٤٤٨م (١٨ شعبان ٨٥٢هـ) وانتصر

---

(١) انظر "مخطط ميدان معركة وارنة" ضمن قسم الخرائط واللوحات ، رقم (٨).

العثمانيون هذه المرة نصراً ساحقاً، أعاد إلى أذهانهم موقعة قوصوه الأولى مع ملك الصرب لازار ١٣٨٩م.

وتوطد الحكم العثماني من جديد في جنوب الدانوب. وأرسل مراد الثاني الغزاة إلى الأفلاق، وتمكن بهذا من إخضاعها.

لقد أنهى مراد التهديد الصليبي، إلا أنه ترك لخليفته واجب توحيد الجهود العثمانية لخوض المعركة الأخيرة في القسطنطينية.(١)

ثم رغب السلطان في عقد الصلح مع اسكندر بك لتعب الجيوش العثمانية من كثرة الحروب التي خاضتها في أوروبا، مشترطاً دفع الجزية. ولكن اسكندر بك لم يوافق، لتأكده من أن العثمانيين قد أنهكت قواهم من كثرة المعارك. وقد ترتب على ذلك أن رجع السلطان إلى أدرنه، يعد العدة لملاقاته، ولكن المنون كان أسبق منه، فقد توفى في ٩ فبراير ١٤٥١م (٥ المحرم ٨٥٥هـ)(٢).

وهكذا استعاد مراد الثاني أملاك الدولة العثمانية في آسيا وأوروبا وزاد عليها، بعد أن فُقد أغلبها بعد موقعة أنقرة. واستعاد هيبة الدولة العثمانية في آسيا وأوروبا خاصة، بانتصاره على الصليبيين في موقعتي وارنه وقوصوه.(٣)

---

(1) Stanford Shaw: Op. Cit., PP. 53-54.

(٢) انظر خريطة "الدولة العثمانية في عهد السلطان مراد الثاني" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (٩).

(3) Dr. Ismail Hakkı, Uzunçarsili: Adigeçen Eser, cilt I, s. 446-448.

العلاقات العثمانية المملوكية في عهد مراد الثاني:

لا ينبغي أن يفوتنا هنا أن نشير إلى العلاقات العثمانية المملوكية ، فقد نشأت العلاقات بين الطرفين منذ عهد مراد الأول، ثم تطورت عبر العهود التالية.

بدت العلاقات بين الدولتين غاية الصفاء، بفضل عداوة شاه رخ بن تيمورلنك لكل من برسباى ١٤٢٢ـ١٤٣٨م (٨٢٥ـ٨٤١هـ) ومراد الثاني. وجاء رسل عثمانيون إلى القاهرة ١٤٢٣م، يحملون تهنئة السلطان العثماني باعتلاء برسباى عرش السلطنة المملوكية في العام السابق، واغتبط برسباى بمقدمهم وبما أحضروه معهم من هدايا ثمينة، رد عليها بأثمن منها حسبما يتطلبه الآيين المملوكي. لكن هذه الهدايا لم تصل إلى "ابن عثمان"، إذ وقعت في أيدي المتجرمة في البحر الأبيض من أهل قبرص، وإخوانهم في القرصنة وقتذاك. غير أن ذلك لم يمنع السلطان مراداً الثاني من أن يبعث ١٤٢٦م إلى برسباى هدايا فخمة صحبة رسل عثمانيين مرة أخرى ، من باب التهنئة على ما أحرزت حملتان مملوكيتان من نصر في جزيرة قبرص. وأقام أولئك الرسل بالقاهرة حتى عادت حملة مملوكية ثالثة من قبرص سنة ١٤٢٧م، مكللة بآيات النصر، وفي ركابها عدد من الأسرى بينهم ملك القبارصة نفسه، وهو جانوس الثاني لوزنيان.[١]

(١) د. محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص٢٠٠.

أرسل برسباى قاصده إلى مراد الثاني للتعرف على أحـــوال العثمـــانيين ومعاركهم مع المجر "انكروس"[1] وغيرهم. فرد عليه السلطان العثماني بكتـــاب مع رسوله في ١٤٢٧م (١٠ ذي الحجة ٨٣١هـ) حكى له فيه أخبار انتصـــار العثمانيين على المجر عند نهر الطونه واستيلائهم على قلعتين من قلاعـــهم.[2] ويقال إن الغيرة التي أثارها مشهد الأسرى القبارصة في مصر، هي التـــي أدت بالسلطان مراد الثاني أن يرسل إلى برسباى ١٤٢٨م (٨٣٢هـ) خمسين أســـيراً مسيحياً إثر انتصاره على المجر عند الطونة.[3]

وقد ظل الجانبان العثماني والمملوكي يتبادلان رسائل الصداقة والمحبـــة. فكلما تحقق نصر لأحد الطرفين على عدوه، سارع إلى إيفاد رسول من عنـــده إلى الطرف الآخر يبشره بفتح الإسلام المبين.

عندما تيسر للعثمانيين فتح قلعة سلانيك. **"هي أحصن القـــلاع الأفرنجيـــة وأصعب الديار الحربية، وهي والقسطنطينية توأمان في كونهما منبعي الكفـــر والضلالة في أيدي الكفرة الفجرة"**. أرسل السلطان العثماني قاصده إلى السلطان المملوكي يزف إليه بشائر النصر. ويخبره أيضاً بانتصاره على حاكم المملكـــة الأرناؤوطية.[4]

---

(١) انكروس أو انكيروز أو انقروس: اسم أطلقه العثمانيون على شعب المجر، ويشـــيع اســـتعماله فـــي النصوص التاريخية العربية في العصور الوسطى.

(٢) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٢٨٥أ ــ ٢٨٧أ.

(٣) د. محمد مصطفى زياده: نفس المرجع، نفس المكان.

(٤) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٢٨٨ب ــ ٢٩١أ.

ولا أدل على قوة الصداقة والعلاقات الطيبة المتينة بين مراد الثاني وبرسباى، من أن الأول بعث رسوله إلى الثاني في ١٤٢٧م (٨٣١هـ) يستشيره في أمر الصلح بينه وبين ملك بني الأصفر[1] من المماليك المجرية "الأنقروسية" لمدة ثلاث سنوات، وفي شرعية دفع الأفلاق للجزية.[2]

أشار برسباى على السلطان العثماني بالامتثال بما قال عز من قائل "**الصلح خير**" ونصحه بعقد الصلح مع من يرى أن الصلح معهم أنفع وأخذ الجزية من البعض الآخر إذا رأى أنها صائبة، كما سبق في عهد الرسالة مع مشركي مكة المكرمة.[3]

وهكذا ظل الجانبان يتبادلان رسائل التهنئة والفتوح. فأرسل مراد الثاني كتاباً مصحوباً ببعض التحف والهدايا إلى چقمق (١٤٣٨ـ١٤٥٣م = ٨٤٢ـ٨٥٧هـ) في سنة ٨٤٣هـ (١٤٣٩م) لتهنئته بالجلوس على العرش. وقام چقمق من جانبه بتهنئة مراد بفتح قلعة سمندره وتخريب بلغراد وكوهين وطمشوار وانتصاره على اللاز (الصرب) وبني الأصفر.[4]

---

(١) بنو الأصفر: أطلق العرب على اليونانيين "بني الأصفر". وقد ورد في الحديث ذكر النزاع بين العرب وبني الأصفر وفتح حاضرتهم القسطنطينية. كما أطلق تعبير "ملوك بني الأصفر" على أمراء النصارى، وخاصة أمراء الروم. وأطلقت هذه التسمية وهي "بنو الأصفر" بعد ذلك على الأوروبيين عامة وأوربيي الأندلس خاصة.
(ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص٤٦٩، ٤٧٠). والمقصود ببني الأصفر هنا "المجر".

(٢) أحمد فريدون: نفس المرجع، ورقة ٢٩٥أ ، ٢٩٧ب.

(٣) أحمد فريدون: نفس المرجع، ورقة ٢٩٧أ ــ ٢٩٨ب.

(٤) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٣٠١ب ــ ٣٠٥ب.

وفي ٢٠ من ذي الحجة ٨٤٣هـ أرسل چقمق رده على هذه الرسالة. وقد ضمت التحف والهدايا التي صاحبت الرسالة، المصحف الكوفي القيّم الذي كُتب بخط عثمان بن عفان رضي الله عنه[١]، مما يبرهن على مدى ما بلغته الصداقة بين السلطانين.

وعلى أثر انتصار العثمانيين سنة ١٤٤٤م على جيوش الصليبيين في مدينة وارنه **(ببلغاريا الحالية)**، أنفذ مراد الثاني خمسين مملوكاً وخمسة من الجواري البيض وكمية من القماش على سبيل الهدية إلى چقمق ليبرهن له على مدى ما تحقق على أيدي العثمانيين من فتوح إسلامية.[٢]

وبعد وفاة مراد الثاني بالسكتة القلبية في ٥ فبراير ١٤٥١م، تولى العرش بعده ابنه **محمد الثاني**[٣] (١٤٥١ـ١٤٨١م = ٨٥٥ـ٨٨٦هـ) تمشياً مع الوصية التي تركها أبوه تحاشياً لوقوع الفتن الداخلية في البلاد. وكان محمد يبلغ التاسعة عشرة أو العشرين من العمر.

كانت بلاد الروم في ذلك الوقت قاصرة على القسطنطينية وضواحيها ومحاطة بأملاك العثمانيين. ولم يكن خارجاً عن الحكم العثماني في آسيا

(١) أحمد فريدون: نفس المرجع، ورقة ٣٠٥ب ـ ٣٠٨ب.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك ذيل السلوك، مخطوط بمكتبة أياصوفيا باستانبول تحت رقم ٣١١٣، ورقة ١٩٠أ ـ ١٩١ب.

(٣) يطلق "ستانفورد شو" أحد المؤرخين المعاصرين المشاهير على الفترة التي تمتد من حكم السلطان محمد الفاتح إلى نهاية حكم السلطان سليمان القانوني (١٤٥١ـ١٥٦٦م = ٨٥٥ـ٩٧٤هـ)، وتشمل السلاطين محمد الفاتح وبايزيد الثاني وسليم الأول وسليمان القانوني أوج (قمة) القوة العثمانية Apogee of Ottoman Power (Stanford Shaw: Op. Cit. Vol.I.)

الصغرى غير جزء من بلاد القرمان ومدينة سينوب ومملكة طرابزون الرومية.[١]

الصلح مع بعض الدول:

اعتادت إمارة قرمان على أن تتخذ موقف العداء من العثمانيين، كلما سنحت الفرصة.[٢] فقد قام حاكمها إبراهيم بك بنقض الصلح الذي كان بين الفريقين، بعد أن تولى هذا السلطان الشاب العرش وتحالف مع البنادقة، واستولى على علائية، ثم أخذ يحرض بكوات الأناضول على الدولة العثمانية ويمدهم بالجنود والعتاد الحربي، مما حدا بالسلطان أن يتحرك بنفسه من أدرنه على رأس قواته لمحاربة القرمانيين، وترك فرق الروملي العسكرية تحت قيادة "**دايي قراجه باشا**" تحسباً لهجوم محتمل من هونيادي. لم يثبت إبراهيم بك أمام السلطان الذي تقدم في أراضيه وأرسل إليه أحد العلماء ويدعى "**مُلا ولي**" لعقد الصلح. فوافق السلطان، بشرط أن يترك إبراهيم المناطق التي استولى عليها قبل موقعة وارنه في عهد مراد الثاني، وأن يمد العثمانيين بالجنود في حروبهم ومعاركهم.

وأثناء عودة السلطان وهو بالقرب من بروصه عارضه الانكشارية، وطلبوا منه توزيع منحة الحرب عليهم بموجب القانون، لأنها أول معركة تحدث

---

(١) محمد فريد: المرجع السابق ص٥٨،٥٩.

(٢) يعتبر القرمانيون في عداد الذين ورثوا ملك السلاجقة عندما انقرضت دولتهم. وكان أبناء قرمان أكبر وأقوى دولة في الأناضول بعد الدولة العثمانية. (انظر الجزء الثاني من ترجمة د. أحمد السعيد سليمان لتاريخ الدول الإسلامية، تأليف ستانلي لين بول).

في عهده. غضب السلطان من هذه الجرأة، لكنه انصاع لمطلبهم، وبعد عدة أيام عزل بعض قوادهم وأجرى بعض التعديلات في صفوفهم.

وبعد أن وصل السلطان إلى أدرنه، عقد صلحا مع هونيادي الوصي على عرش المجر لمدة ثلاث سنوات، وأعاد إليه كروشاواج (آلاجه حصار) بموجب ذلك. كما جدد معاهدة الصلح مع الصرب، وأعاد إلى أميرها ابنته دسبينا Despina (مارا) التي سبق أن أرسلها إلى مراد الثاني لكي يتزوجها. وخصص لها دخل أحسن منطقة عند حدود الصرب للصرف على كل احتياجاتها. ثم ترك منطقة چورلي للإمبراطور البيزنطي، لقاء استمرار احتفاظه بالأمير أورخان بن سليمان بن بايزيد الصاعقة، كما سبق أن تعهد له قبل الحرب مع القرمان بدفع ثلاثمائة ألف آقچه من حاصلات قره صو المجاورة لسلانيك، نظير ذلك. وفضلا عن ذلك جدد المعاهدات مع الأفلاق (الفلاخ) وجزر مديللي وساقز ورودس وبعض البلاد الأخرى كالبندقية.

ويبدو أن السلطان محمد الثاني عقد هذه المعاهدات، لكي يتفرغ لعمل الترتيبات اللازمة لفتح القسطنطينية، ولكي يأمن شر هذه القوى عندما يهم بفتحها.

فتح القسطنطينية

محاولات المسلمين لفتح القسطنطينية:

يجدر بنا قبل أن نتناول فتح القسطنطينية وكيف تم، أن نتحدث ـ في إيجاز ـ عن محاولات الفتح التي جرت من قبل المسلمين قبل عهد السلطان محمد الثاني.

كان فتح القسطنطينية أملاً إسلامياً منذ أن قامت الدولة الإسلامية. وقد عبر عن هذا الأمل، الحديث النبوي الشريف الصحيح الذي يبشر بفتحها ويحث عليه: وهو: "**لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**"[1]. ومنذ ذلك التاريخ قامت عدة محاولات، من قبل الحكومات الإسلامية طوال ثمانية قرون، لتحقيق هذا الأمل.

فقد حاصرها معاوية بن أبي سفيان سنة ٣٤هـ (٦٥٤م)، في خلافة ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وفي عهد بني أمية رتب أول الخلفاء معاوية بن أبي سفيان أمر فتح القسطنطينية براً وبحراً، كما رتب ما عُرف بالصوائف والشواتي. وفي سنة ٤٧هـ (٦٦٧م) سار فضالة الأنصاري على رأس جيش كبير، ثم أمده بقوة على رأسها يزيد بن معاوية. وحاصر الجيش القسطنطينية، وهو الحصار الأول في خلافة معاوية. وقد بذل القائدان فضالة ويزيد جهوداً جبارة لفتح المدينة العظيمة. ولكنها فشلت بسبب مناعة حصون المدينة ودفاع قسطنطين الرابع[2].

---

(١) ورد هذا الحديث النبوي الشريف، في:
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.
- الإصابة في تمييز أسماء الصحابة لابن حجر العسقلاني.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر النمري.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل.
- الجامع الصغير للسيوطي.

انظر: د. سالم الرشيدي: محمد الفاتح، ص٢٧ ، القاهرة ١٩٥٦

(٢) د. علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ص٢٧٩ ، ٢٨٠ ، القاهرة ١٩٧١.

وفي سنة ٤٨هـ (٦٦٨م) جهز معاوية جيشاً آخر لفتح القسطنطينية براً وبحراً. وكان هذا الجيش بقيادة سفيان بن عوف، وخرج معه عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري. وأمر معاوية ابنه يزيد على الجيش، فساروا حتى بلغوا القسطنطينية، فاقتتل المسلمون والروم. ولم يستطع جيش العرب فتح القسطنطينية، لمتانة أسوارها، ومنعة موقعها، وفتك النار الإغريقية بسفن المسلمين[١]. وقد استشهد في المعركة الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، ودُفن شمالي المدينة. وقد عثُر العثمانيون على قبره عند فتح القسطنطينية، فأمر السلطان محمد الفاتح ببناء جامع كبير بجواره. وقد جرت العادة بعد ذلك ابتداء من عهد سليمان القانوني، أن يتقلد كل سلطان عثماني جديد سيف منشئ الدولة العثمانية عثمان، في جامع أبي أيوب الأنصاري.

هذا، ولم تتوقف محاولات معاوية عند هذا الحد، بل إن الأسطول الإسلامي في خلافته حاصر المدينة سبع سنوات، ما بين سنتي ٥٤ ، ٦٠هـ (٦٧٣ ، ٦٧٩م)[٢]. وكانت هناك حملة برية في نفس الوقت بقيادة عبد الرحمن بن خالد، وكان برفقته يزيد بن معاوية القائد العام للحملتين. وقد تحققت بعض الانتصارات البحرية القليلة، لكن الحصون المنيعة للمدينة استعصت على الفتح. وكان من نتيجة هذه المعارك استشهاد القائد عبد الرحمن، وتولى

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، جـ١، ط٨، القاهرة ١٩٧٤، ص٢٨٥.

(٢) د. علي إبراهيم حسن: المصدر السابق، ص٢٨٠.

سفيان بن عوف القيادة مكانه. وبعدها عادت الجيوش والأساطيل دون تحقيق الهدف، بناء على استدعاء الخليفة[1].

وحُوصرت القسطنطينية سنة ٩٨هـ (٧١٦م) في عهد سابع خلفاء بني أمية، سليمان بن عبد الملك. فقد أرسل هذا الخليفة أخاه مسلمة على رأس جيش كبير لفتح هذه المدينة. وشجعه على ذلك ما قيل أنه قد حدثه بعض العلماء بأن الخليفة الذي يفتح القسطنطينية اسمه اسم نبي. ولم يكن بين خلفاء بني أمية قبله من اسمه اسم نبي غيره[2]. لذلك أعد حملة لم يعُد مثلها من قبل. وإظهاراً لاهتمامه بها رحل إلى مرج دابق ليكون قريباً منها، ويستطيع إيصال المؤن في أقرب وقت. أما الأسطول البحري، فكان تحت قيادة أمير البحر عمر بن هبيره. سار مسلمة عبر آسيا الصغرى، حتى وصل إلى عمورية، وكان حاكمها آنذاك ليو الأيسوري[3]، فحاصرها، ولكن ليو نجا من الموت بحيلة، ولم يتمكن مسلمة من فتح القسطنطينية، وخسر خسارة فادحة. ثم مات سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز، فأرسل يستدعى الجيوش المحاصرة للمدينة سنة ١٠٠هـ (٧١٨م)، نظراً لعدم نجاحها في الفتح وإصابتها بالخسائر الكبيرة[4].

وفي عهد عاشر بني أمية هشام بن عبد الملك، حُوصرت المدينة سنة ١٢١هـ (٧٣٩م)، ولكن دون جدوى.

---

(١) انظر: د. إبراهيم العدوي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص٥٦،٥٧، القاهرة ١٩٦٧.

(٢) مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، جـ٣، ص٢٤، مكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص٩٦، القاهرة ١٢٧٤هـ.

(٤) د. إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص١٩١، القاهرة ١٩٥٢.

وهكذا رغم المحاولات الكثيرة المستميتة، لم يتمكن بنو أمية من فتح القسطنطينية، لحصانة موقعها، وشدة فتك النيران الإغريقية.

وفي عهد العباسيين، قام المهدي ثالث الخلفاء بتجهيز حملة كبيرة سنة ١٦٥هـ (٧٨١م)، وضع لقيادتها أمهر قواده يزيد بن مزيد الشيباني والربيع بن يونس[1]. تقدمت الحملة في آسيا الصغرى، فوصلت من أنقره إلى نيقوميديا، ثم توقفت عند بلدة خرسوبوليس، وأصبح الطريق أمامها مفتوحاً إلى القسطنطينية. ولكن الإمبراطورة "ايريني" الوصية على عرش ابنها قسطنطين السادس، تمكنت من عقد الصلح مع الخليفة العباسي الخامس هارون الرشيد نظير دفع الجزية[2].

ولكن الصلح لم يدم طويلاً، فقد نقض الإمبراطور البيزنطي نقفور العهد سنة ١٨٧هـ (٨٠٣م)، فجهز هارون الرشيد جيشاً كبيراً لمحاربته. ولما وصلت هذه القوات مدينة هرقلة قبالة مدينة القسطنطينية، ثاب الإمبراطور إلى رشده، ووافق على دفع الجزية المقررة التي رفض دفعها.

وخطط المأمون سابع الخلفاء العباسيين، لفتح عمورية والقسطنطينية، وتوطيد العرب البدو في آسيا الصغرى بلداً بلداً مع سير الفتوح، ولكن الأجل لم يمهله، فمات سنة ٢١٨هـ (٨٣٣م). وخلفه المعتصم فقويت لديه الفكرة، خاصة وأن البيزنطيين هاجموا أعالي الفرات، واعتدوا على ثغور الجزيرة. فتوجه الخليفة إلى عمورية، وتمكن من فتحها سنة ٢٢٣هـ (٨٣٨م). وقد قرر

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٨، ص١٥٢، القاهرة ١٣٢٦هـ.

(٢) د. شاكر مصطفى: دولة بني العباس، جـ ٢، ص٣٠٦. بغداد ١٩٧٠.

المعتصم بعدها أن يتحرك إلى القسطنطينية، ولكن الفتن ثارت فجأة في بلاده ومنعته من تحقيق غرضه[١].

وهكذا أخفق العباسيون، كما أخفق من قبلهم الأمويون والخلفاء الراشدون، رغم كل هذه المحاولات العديدة التي بلغت إحدى عشرة مرة قبل المرة الأخيرة، إذا أضفنا محاولات العثمانيين أيضاً. فقد حاول الخلفاء الراشدون مرة، وحاول الأمويون خمس مرات، ثم حاول العباسيون ثلاث مرات، فالعثمانيون مرتين، وفُتحت في الثالثة.

الاستعداد لفتح القسطنطينية:

عندما تحرك السلطان محمد بنفسه لتأديب أمير القرمان إبراهيم بك على نقضه للعهود، لم يضع في حسابه الموافقة على الصلح معه. ولكن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع انتهز الفرصة أثناء هذه المعركة، وأرسل للسلطان بعض الرسل بكتاب، يطلب فيه زيادة مخصصات الأمير أورخان، أو إطلاقه في الروملي. قابل الرسل الصدر الأعظم خليل باشا أولاً كما تقتضي المراسم، وطرحوا عليه الأمر، فعاملهم بعنف[٢].

أخبر الصدر الأعظم السلطان بما حدث، فثارت ثائرته مما بدر من الرسل.

---

(١) المسعودي (أبو الحسن): مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٢، ص٩٦، القاهرة ١٠٣٣هـ

(2) Ducas: Rum Tarihçisi, Mirmiroğlu Tercümesi, s. 236 Istanbul 1940

ويذكر إدوارد جيبون، أن الصدر الأعظم خليل باشا هدد الرسل تهديداً صريحاً، بقوله: "**أيها الرومان الحمقى المساكين، إننا نعرف حيلكم، وإنكم لتجهلون الخطر الذي ينتظركم! إن الصبر لن يطول، فالعرش العثماني مشغول بفاتح شاب لا تقيده قوانين ولا تعترضه عقبات. فلم تبحثون عن شيء يلقى الرعب في نفوسنا عبثاً أو يهددنا بطريقة غير مباشرة؟ تذكروا الراحل أورخان. ادعوا الهنغارين من خلف الدانوب لمواجهتنا. جندوا ضدنا أمم الغرب. وتأكدوا أنكم ستلقون الفناء العاجل بإثارتكم لنا**"(١).

وطلب السلطان مقابلتهم له، وعندما جاءوا إليه، أحسن لقاءهم، ولاينهم في القول، لكي يفوّت الفرصة على الإمبراطور. ثم وعدهم بتنفيذ مطالبهم، مظهراً لهم الإخلاص والوفاء. وقرر لهذا عقد الصلح مع القرمانيين، لكي يتفرغ للإمبراطور(٢).

كانت مدينة القسطنطينية وما جاورها من الضواحي والمناطق التابعة للبيزنطيين، تشكل عائقاً يقيد حركة العثمانيين المتنقلين بين أراضيهم في الأناضول والبلقان إلى حد ما. فالمدينة وما جاورها تجعل من الصعب على العثمانيين السيطرة الكاملة على الروملي. وقد أصبح فتحها ضرورة ملحة، لتمكينهم من الاحتفاظ بما فتحوه في البلقان، ووصلوا فيه حتى نهر الطونه. ويمكننا أن نوضح ذلك بمثال بيّن من عهد السلطان مراد الثاني خاصة: كانت السفن البيزنطية والسفن الصديقة لهم مثل سفن البابا وسفن البندقية، تسيطر على المنطقة الممتدة من البسفور إلى الدردنيل أثناء معركة وارنه ١٤٤٤م

---

(1) Edward Gibbon: The Decline and Fall of the Roman Empire, vol.7, p.59 London 1900

(2) Ducas: Aynı Eser, s. 237

(٨٤٨هـ). فاضطر مراد أمام ذلك، إلى الاستعانة بسفن جنوه عدو البندقية، لنقل قواته وعتاده الحربي إلى الروملي، نظير أربعين ألف دوقه. ومنذ ذلك الوقت فكر السلطان في إقامة قلعة مقابل قلعة الأناضول، ولكن الأجل لم يمهله. وعند عودة السلطان محمد الثاني من حربه ضد القرمان، وجد مراكب الفرنجة تسيطر على البوغاز، فأمر ببناء قلعة تقابل قلعة الأناضول، أثناء عبوره إلى الروملي.[١]

وهكذا أكدت التجارب للعثمانيين ـ وهم الذين لا يملكون أسطولاً قوياً ـ ضرورة فتح القسطنطينية. ولهذا بدأ العمل في قلعة الروملي **(روملي حصارى)**[٢] أو حصن بوغاز كسن **(بوغاز كسن حصارى)**[٣]، بناء على أمر السلطان، لمنع كل أنواع المساعدات التي قد تصل من البحر الأسود للبيزنطيين، ولضمان حرية المرور للعثمانيين عبر الشاطئين. ولم يكد السلطان يصل بعد حربه ضد القرمان، حتى أصدر أوامره بإنشاء القلعة. فبُدأ العمل على الفور عند أضيق مكان في البوغاز في مواجهة قلعة الأناضول[٤].

ولما علم قسطنطين الخبر، أرسل رسله إلى أدرنه، بعد أن نبههم إلى عدم الحديث بشيء عن موضوع أورخان. وطلب منهم الملاينة في القول مع السلطان، وإقناعه بالعدول عن إنشاء القلعة. وصل الرسل إلى أدرنه، وقابلوا

---

(١) عاشق باشا زاده: تواريخ آل عثمان، ص١٤١ استانبول ١٩٣٢
ابن كمال: تواريخ آل عثمان، جـ٧ ص٢٩ ، ٣٠ مخطوط بمكتبة نور عثمانية باستانبول.

(٢) انظر "لوحة قلعة الروملي" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (١٠).

(٣) معناها الحصن المتحكم في البوغاز.

(٤) انظر: Ducas: Adigeçen Eser, s. 238- Ismail Hami Danişmend: Adigeçen Eser, cilt I, s. 230-235

السلطان، ثم عرضوا عليه الأمر. فرد عليهم قائلاً: "إنني لا أقدم على شيء به مساس بالمدينة. أما خارج نطاق المدينة، فلا يوجد مكان محرم عليّ، ولهذا فلا مانع من إقامة القلعة. عندما اعتدى المجر (الهنغاريون) على المناطق المجاورة لوارنة في عهد أبي، تحرك أبي من الأناضول لمواجهة العدوان. ولما هم بالعبور إلى البر الأوروبي، اعترضته السفن الأفرنجية والبيزنطية، ومنعته من العبور، فاضطر أبي للاستعانة بالأسطول الجنوي. إن إمبراطوركم يعلم مدى العناء الذي واجهه مراد الثاني في العبور. لقد كنت فتى صغيراً في ذلك الوقت أنتظر قدوم أبي في أدرنه والمسلمون في قلق واضطراب، بينما كان الإمبراطور فرحاً ومسروراً بما يحدث. ولم يكد أبي يعبر الماء بصعوبة وعناء، حتى أقسم أن يقيم قلعة على البر الأوروبي في مواجهة قلعة الأناضول، ولكنه لم يوفق في ذلك، وأنا الآن أبر بيمينه. لِمَ تريدون أن تمنعوني من تحقيق ذلك، ألست قادراً على تنفيذ ما أُريد في بلادي؟! اذهبوا إلى إمبراطوركم، واخبروه أن السلطان الحالي يختلف عن سابقيه. وما لم يتمكنوا من تحقيقه، يستطيع هو أن ينفذه في سهولة ويسر!" (١)

تفقد السلطان المكان المقرر لإنشاء القلعة بنفسه، واطلع على الرسم المقرر تنفيذه. وتأكد من الخطة، ثم بدأ العمل في الإنشاء في ٢١ مارس ١٤٥٢م (جمادى الأولى ٨٥٦هـ) عند أضيق نقطة في الخليج في مواجهة قلعة الأناضول التي أمر السلطان بترميمها. وقد كلف محمد الثاني ثلاثة من الوزراء بمراقبة التنفيذ، وهم: خليل باشا وزغنوس باشا وصاروجه باشا، وقسّم بينهم العمل؛ وجعل الوزير شهاب الدين مشرفاً على تنفيذ المشروع ككل. وقد اشترك

---

(1) Ducas: Adigeçen Eser, s. 240

انظر Zuhuri Danişmend: Adigeçen Eser, cilt 4, s. 220-229.

في العمل في القلعة عدد هائل من العمال يربو على ستة آلاف عاملٍ، يتناوبون العمل تحت إشراف المهندس المعماري مصلح الدين، في حراسة ثلاثين سفينة حربية ومجموعة كبيرة من سفن الشحن استدعيت على عجل من ميناء غاليبولي، تفادياً لما قد يحدث من تعرض السفن المعادية لعملية البناء، خاصة وأن القلعة تطل على مجرى السفن. وقد انتهى العمل بالقلعة خلال أربعة أشهر أي في أواخر يوليو ١٤٥٢م (نهاية ربيع الآخر ٨٥٦هـ)[١]. ومن الجدير بالذكر أن السلطان نفسه شارك في عملية البناء، لكي يعطي دفعة قوية لحركة التشييد. وبمجرد الانتهاء ملأ القلعة بالأسلحة والذخيرة ونصب فوق أبراجها المدافع الضخمة. وعين فيروز أغا محافظاً عليها. وجعل معه أربعمائة محارب انكشاري. وقد قام محمد الثاني بنفسه بتفقد أسوار القسطنطينية وخنادقها، لمدة يومين كاملين. ثم أمر بترك قوة استطلاع صغيرة حول المدينة، ورجع في أول سبتمبر إلى أدرنه، بعد أن أوصى فيروز أغا بألا يسمح بمرور أي سفينة من البسفور إلا بعد أن تنزل أشرعتها وتؤدي رسوم المرور، فإن امتنعت أطلق عليها المدافع وأغرقها. وقد تصادف أن مرت إحدى سفن البندقية بعد صدور هذه الأوامر، وأبت أن تنزل أشرعتها أو تطيع الأوامر الصادرة إليها، فأمر محافظ القلعة بإغراقها[٢].

---

(١) هامر: دولت عثمانية تاريخي، ترجمة عطا بك، م٢، ص٢٦٥ استانبول ١٣٢٩هـ
Ducas: Adigeçen Eser, s. 342
ابن كمال: المرجع السابق، ص٣٠.
يبلغ سمك حائط القلعة ٢٥ قدماً ، وارتفاع برجها ٣٠ قدماً ، وهي على شكل مثلث يعلو كل ضلع فيه برج كبير. Ducas, s. 246.

(2) Ducas: Adigeçen Eser, s. 246-248

ولما عاد السلطان محمد إلى أدرنه، أمر كلاً من المهندس مصلح الدين وصاريجه سكبان والمهندس أوربان المجري[١] ـ الذي هرب من استانبول أثناء إنشاء قلعة الروملي ولجأ إلى العثمانيين ـ بإجراء تجربة واسعة بالذخيرة الحية، لاختبار مدى صلاحية القلعة للصمود أمام أي هجوم. ثم سارع ـ تلافياً لأي مواجهة مع الدول الأخرى ـ بتجديد المعاهدة التي عقدها مع البنادقة (١٤٥١م)، على الرغم من أنه كان على علاقة حسنة مع الجنويين خصوم البنادقة.

حل الشتاء، وأخذ السلطان يتحين الفرصة للتفكير في الخطوات القادمة التي سيتخذها لفتح القسطنطينية. ورغم ما واجه العثمانيين في المعارك الصليبية الثلاث السابقة، إلا أن محمد الثاني صمم على الفتح، رغم اعتراض الكثيرين الذين تعللوا بالخسارة الفادحة التي ستنالهم من جراء مواجهة صليبية جديدة. ثم تسلم خريطة للقسطنطينية، وأخذ يرسم عليها المواقع، وما يلزمها من معدات عسكرية، ويحدد أماكن الألغام وأماكن وضع السلالم على الأسوار. وانتهى من أفكاره وخططه هذه خلال أربع وعشرين ساعة[٢].

وفي هذه الأثناء أحس الإمبراطور بالخطر الشديد، فأرسل رسله إلى الدول الأوروبية، لتجديد طلب العون والمساعدة الذي سبق أن قدمه لهم، وأثناء قيام السلطان ببناء قلعته. ولكن أوروبا التي منيت بالهزيمة في معركتين

---

(١) أوربان: مهندس مجري ماهر، كان يعمل بالقسطنطينية، ولكن الإمبراطور لم يقدر مهارته حق قدرها، فهرب والتجأ إلى السلطان محمد الثاني، وعرض عليه مواهبه، فسر منه السلطان وأكثر من مكافأته. وأمره بصناعة المدافع التي برز في صناعتها، وكلف آخرين بصناعة القذائف لها. ومما تجدر الإشارة إليه أن أوربان هذا أمد السلطان بمعلومات عن أسوار القسطنطينية.
(أحمد مختار باشا: فتح جليل قسطنطينية ص١٤ ، ١٠٣ ، ١٠٩ استانبول ١٣١٦هـ.)

(2) Ducas: Adigeçen Eser s. 250-252

صليبيتين ضد العثمانيين في وارنه ١٤٤٤م (٨٤٨هـ) وقوصوه الثانية ١٤٤٨م (٨٥٢هـ)، خلال أربعة أعوام، لا يمكن أن تجازف هذه المرة بمعركة صليبية جديدة وهي لا تضمن العاقبة، خاصة وأنها فقدت ثقتها في جان هونيادي الذي قاد معركة قوصوه الثانية، وهُزم فيها شر هزيمة.

استغاث الإمبراطور البيزنطي قسطنطين دراجازيس بأوروبا، ولكن المصالح لعبت دوراً هاماً في تلبية النداء. فقد وافق هونيادي نائب ملك المجر على المساعدة نظير منحه سِلِوزِرِى أو (مِسِوزِى)[١]. ولم يكن أمام الإمبراطور إلا أن يوافق على ذلك. كما اشترط الباب نقولا الخامس على قسطنطين لقاء المساعدة، أن يوافق على تنفيذ ما دار في مجمع فلورنسا بخصوص توحيد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية، ويأمر بقراءة اسم البابا في كنيسة أيا صوفيا[٢]. وأن يوافق على قدوم البطريق جريجوريوس ــ الذي عُزل سنة ١٤٥٠م ــ إلى القسطنطينية وينصبه بطريقاً. وأن يطلب من البابا إرسال بعض الأشخاص المهمين إلى القسطنطينية لإزالة الخصومة القائمة بين الكنيستين[٣].

وافق الإمبراطور على مطالب البابا، وقام بإجراءات تنفيذها، واهتم بالمطلب الأخير. وقد أرسل إليه البابا الكاردينال البولوني رومي الأصل ايسيدور Isidore[٤] بناءً على طلبه. اصطحب الكاردينال معه خمسين رجلاً، ثم استقل بهم سفينة جنوية وقصد جزيرة ساقز، وتوجه من هناك وبرفقته عدد أكبر

---

(١) مدينة تقع على بحر مرمرة إلى الجنوب من القسطنطينية.

(٢) بني قسطنطين الأكبر (٣٠٦ ــ ٣٣٣م) كنيسة أياصوفيا في ٨ نوفمبر ٣٢٤م

(3) Ducas: s. 212-214.

(٤) كان ايسيدور رئيساً لأساقفة روسيا لمدة طويلة في السابق. وهو ضمن الشخصيات البارزة التي حضرت مجمع فلورنسا. (Ducas: s. 264).

من اللاتين إلى القسطنطينية، فوصلها في نوفمبر ١٤٥٢م. واستُقبل استقبالاً رسمياً حافلاً، لدى وصوله.

كان قسطنطين دراجازيس وعدد قليل من رجال الكنيسة يفضلون توحيد الكنيستين، ولكن الكثرة كانت ضد هذه الفكرة، كما كان الشعب لا يرحب بالتوحيد أيضاً. كان جرِاندُك نوتاراس وجنّاديوس على رأس المعارضين. وبأمر من الإمبراطور كان جناديوس يقيم إقامة جبرية في كنيسة پانتوكراتور، لأنه من معارضي فكرة توحيد الكنيستين. وعندما علم بقدوم ايسيدور إلى القسطنطينية، احتج على ذلك بتعليق ورقة على باب الكنيسة التي يقيم بها، كتب عليها: "**اتركوا الاستعانة بالله، والتجأوا إلى الفرنجة**". وقد اشتدت معارضة الناس للكاثوليك، بعد أن قرأوا هذا الاحتجاج. ورغم ذلك، أقام ايسيدور المراسم الدينية التي تدل على وحدة الكنيستين في أياصوفيا في ١٢ ديسمبر ١٤٥٢م. وقد ازداد احتجاج الشعب على هذه المراسم، لدرجة أنهم رفضوا أخذ الخبز المقدس الذي يدل على الوحدة عندما وُزع عليهم. وقد عبر أهم رجل بعد الإمبراطور قسطنطين وهو جراندك نوتاراس عن احتجاجه الشديد بهذه العبارة البليغة: "**خير لنا أن نرى العمامة التركية في القسطنطينية، من أن نرى قلنسوة اللاتين**"(١).

أخذ الإمبراطور بعد ذلك يعد العدة للدفاع عن القسطنطينية، فأرسل الرسل إلى كل طرف لإحضار المأكل والمشرب واللوازم الضرورية لمقاومة الحصار المرتقب. فأحضر أربعة سفن كبيرة من جزيرة ساقز محملة بأنواع الأطعمة المختلفة كما حصل على الذخيرة وبعض الأطعمة والفدائيين من الموره(٢).

---

(1) Ducas: s. 264.

(2) Ducas: s. 257.

فتح القسطنطينية:

بعد أن انتهى السلطان محمد الثاني من بناء القلعة، أمر فرقة من الجنود بعمل نقط مراقبة حول القسطنطينية من البر، لمنع أي شخص من دخول المدينة أو الخروج منها. وفي نفس الوقت استدعى الإمبراطور البيزنطي مواطنيه من الخارج، ثم أغلق مداخل المدينة البرية، وترك مداخلها البحرية. وانتهز الروم هذه البادرة العدائية من جانب السلطان، فهاجموا القرى التركية الواقعة على ساحل البحر، وأسروا بعض أهاليها وقتلوا البعض الآخر. فرد السلطان محمد على ذلك بنصب المدافع أمام القسطنطينية فنُصبت على بعد خمسة أميال من المدينة في شهر فبراير ١٤٥٣م[١].

وقبل نقل المدافع أمر السلطان القائد قراجه باشا ومعه قوة مكونة من عشرة آلاف جندي بالاستيلاء على القلاع البيزنطية، ميسورى وأخيولى ويزه وبيجادوس وغيرها. فاستولى عليها دون قتال، أما قلعة سليورى فلم تُسلم إلا بعد معركة حامية[٢].

وبدأ السلطان محمد اعتباراً من أوائل مارس ١٤٥٣م يرسل الفرامين لولاته، لكي يخبرهم بأن اعتزم فتح القسطنطينية، ويأمرهم بالانضمام للجيش الذي يُعد لهذا الغرض، فوفدت عليه قوات كثيرة التحقت بالجيش.

---

(١) اشترك في جر كل مدفع ستون ثوراً. وشارك مائة جندي في إزلاق كل مدفع. وقد أقيمت الجسور الخشبية على عجل في الأماكن الرخوة التي مرت بها المدافع. (Ducas: s. 258).

(٢) ابن كمال: المرجع السابق، ص٩٣.

وقد استرعى انتباهه احتمال قيام أخوي قسطنطين توماس وديمتريوس أميري المورة بمساعدة أخيهما، فأمر طُراخان وابنيه أحمد وعمر بالإغارة عليهما، لكسر شوكتهما.

بعد أن اطمأن السلطان إلى اكتمال استعداداته، تحرك من أدرنه قاصداً القسطنطينية في يوم الجمعة ٢٣ مارس ١٤٥٣م (١٢ ربيع الأول ٨٥٧هـ)[١].

وصل محمد الثاني إلى موقع يُقال له كشان، ثم توقف هناك في انتظار عبور قوات الأناضول من بوغاز چناق قلعة (**الدردنيل**). وبعد عبور هذه القوات، استمر في السير قاصداً القسطنطينية، فوصلها في ٥ أبريل (٢٥ ربيع الأول). وفي اليوم التالي (**الجمعة**) حاصر المدينة، واشترك الأسطول العثماني في عملية الحصار[٢]. ولكنه لم يتمكن من دخول القرن الذهبي لأن البيزنطيين سدوا مدخله بالسلاسل، لمنع الأسطول العثماني من إكمال تطويق القسطنطينية وإحكام الحصار حولها.

قام الإمبراطور بترميم أسوار المدينة منذ أن أحس بالخطر، وأحكم غلق أبوابها البرية[٣]. وقد جاء لنجدته جستنياني الجنوى في ٢٦ يناير ١٤٥٣م، ومعه

---

(١) احمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٢٥٠أ.

(٢) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور ص٢٧٧ مخطوط بمكتبة أياصوفيا باستانبول، رقم ٣١٨٥
أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٢٥٣ب

(٣) مدينة القسطنطينية ثلاثية الشكل، يقع الجانب الجنوبي منها على بحر مرمره، والجانب الشمالي على القرن الذهبي، أما الجانب الثالث وهو الغربي فيربط المدينة بأوروبا برياً. وتحيط بالمدينة الأسوار من كل جانب، فضلاً عن أن الجانب الغربي يحيط به سوران عظيمان. يبعد كل منهما عن الآخر مسافة خمسة عشر أو عشرين متراً. وقد أقيمت أمام السور الثاني (الخارجي) خنادق تبعد عن السور مسافة سبعة أمتار على عمق ستة أو سبعة أمتار. ويبلغ ارتفاع السور الثاني (الخارجي) سبعة أمتار ونصف المتر، وعرضه متران. أما السور الأول (الداخلي) فيبلغ ارتفاعه اثنا عشر متراً، =

سفينتان عسكريتان كبيرتان وسبعمائة محارب. ونظراً لشهرة هذا القائد، فقد عينه الإمبراطور قائداً عاماً، وعهد إليه بالدفاع عن الأسوار التي يتوسطها الباب الأوسط المسمى باب (**طوپقپو**). وقد وعد الإمبراطور القائد جستنياني بأن يقدم له جزيرة لمنوس، إذا تمكن من تخليص القسطنطينية من الحصار[1]. وقد دفع الحماس جستنياني أن يغير موقعه بعد مدة من بدء الحصار، وينتقل لمواجهة كثافة الحصار التي ازدادت في المنطقة الممتدة من باب أدرنه (**أدرنه قاپي**) إلى باب (**طوپقپو**) في الأسوار الغربية، وهي أضعف منطقة في الأسوار. وقد اصطحب معه أربعمائة جندي مدرع وثلاثمائة بحار[2].

أما البابا، فقد أرسل أثناء الحصار ثلاث سفن حربية كبيرة ومائتين من الجنود وبعض المهام واللوازم، وأعلن أنه يقوم بتجهيز ثلاثين سفينة أخرى[3]. وفضلاً عن ذلك، أرسل جنويو جزيرة ساقز سفينتين وسبعمائة محارب، وجاءت من جنوه سفينة واحدة وثلاثمائة جندي، كما وصلت قوات من أسبانيا ومن الجزر[4].

= وعرضه خمسة أمتار. وبأسوار القسطنطينية أبواب كثيرة، أكبرها ما يوجد في الجانب الغربي، يسمى الشمالي منه باب أدرنه (أدرنه قاپي) والأوسط يسمى باب (طوپقپو) وكان يسمى باب القديس رومان (سان رومان) سابقاً والجنوبي يدعى الباب العسكري الثالث (أوجنجي عسكر قاپي)

(Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt I, s. 470.)

وقد حار الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني وتردد في أي السورين الغربيين يتخذ منه خطاً للدفاع، عندما حاصر مراد الثاني القسطنطينية ١٤٢٢م (٨٢٥هـ) واستقر رأيه في النهاية على أن يتخذ من كليهما خطاً للدفاع.

Chalcondyle: Histoire de la decadence de L`Empire grec et l`Etablissement de celui des Turcs, P. 169 Paris 1632

(1) Ducas: s. 266

(2) Feridun Dirimtekin: Istanbul`un Fethi, s. 139 Istanbul 1949

(٣) قريتو وولوس: تاريخ سلطان محمد خان ثاني، ترجمة قاروليدي أفندي، ص٦١ (من نشريات (تاريخ عثماني انجمنى مجموعه سى) استانبول ١٣٢٩هـ

(4) Pachymeres: Istanbul Tarihi, Ali Şevket Tercümesi, s. 195 Istanbul 1872

كان كثير من الجنويين الذين يمارسون التجارة مع البيزنطيين يقيمون بحي غلطه. وعندما أحسوا بالخطر الذي سيصيبهم من جراء الحصار، أرسلوا في طلب قوة عسكرية من جنوه، فجاءت إليهم قوة مكونة من سفينة حربية واحدة محملة بخمسمائة مقاتل. وقد سيطرت على هؤلاء عقلية التجار، فأرادوا أن يتحالفوا مع الطرف الأقوى. وأرسلوا للسلطان محمد سراً بينما كان في أدرنه قبل الحصار، يطلبون تجديد معاهدات الصداقة المعقودة بينهما، فوافق السلطان على ذلك، مقابل تعهدهم بعدم الاشتراك في الدفاع عن القسطنطينية وقت الحصار[1].

وزع السلطان محمد جنوده أمام السور الغربي للمدينة على النحو التالي: الجناح الأيمن ويتكون من جنود الأناضول تحت قيادة أمير أمراء الأناضول اسحق باشا ومحمود باشا، ويواجه الجزء الذي يمتد من الجنوب عند بحر مرمره ويمتد حتى طوبقبو. والجناح الأيسر ويتألف من جنود الروملي تحت قيادة أمير أمراء الروملي "دايى قراجه باشا" ويواجه الجزء الذي يمتد من الشمال عند القرن الذهبي حتى باب أدرنه. أما القلب ويتألف من عساكر الانكشارية والجنود المختارة، فكان تحت قيادة السلطان نفسه، ويواجه الجزء الذي يمتد من باب

أرسل السلطان محمد عديداً من رسائل الفتوح إلى بعض الحكام المسلمين بعد الفتح، ذكر فيها الدول التي شاركت مع البيزنطيين في الحرب ضد العثمانيين، فقال عنها في رسالة لجهانشاه: "جنويز {جنوه} وقطلان ونديك {البندقية} ورودس وفرنسا وغيرها.
وقال في رسالة أخرى لسلطان المماليك إينال: "وهم {البزنطيون} مستكبرون على أهل الإيمان متناصرون بالجزاير الغربية مثل رودس وقطلان وناديك وجنويز وغيرهم من أهل الشرك والطغيان". {أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٣٢٠أ، ٣٣٩أ}.
ملحوظة: تقع قطلان Catalonia شمال شرق أسبانيا وتطل على البحر الأبيض المتوسط، وهي تضم أربعة أقاليم هي: برشلونة ولريدا وجيرونا وترجونا. وشعبها من اللاتين ويسمى قطلان Catalans.
(أنظر ص١٠١ Encyclopaedia Britannica Junioir vol 4.)

(1) Ducas: s. 267

أدرنه إلى طوپقپو. وقد نُصبت أضخم المدافع العثمانية في المنطقة الممتدة من القرن الذهبي حتى طوپقپو، ووضع أضخم مدفع فيها شمال طوپقپو بقليل[١]. وقُسّم جنود المدفعية إلى أربع عشرة فرقة: ثلاث فرق عند أقصى الشمال من السور أي عند القرن الذهبي، وفرقتان أمام السور جنوب المنطقة السابقة عند الباب المقوس (اكرى قاپى) وفرقتان أمام باب أدرنه، وأربع فرق أمام باب طوپقپو، وثلاث فرق أمام باب سليورى الذي يقف أمامه الجناح الأيمن من الجيش[٢]. أما منطقة "غَلَطة" التي يقيم فيها التجار الجنويون، فقد أرسل السلطان قوة عسكرية تحت قيادة زغنوس باشا، لكي ترابط حول أسوارها وتراقبهم.

ويقدر المؤرخون الأوروبيون المعاصرون لفتح القسطنطينية عدد القوات العسكرية العثمانية التي اشتركت في الفتح بمائة وخمسين ألف أو مائتي ألف جندي[٣]. ولكن إسماعيل حقي لا يؤيد هذا التقدير، ويرجح عدد الجيش العثماني الذي اشترك في الفتح بمائة ألف أو مائة وعشرين ألف جندي، مع العلم بأن قسماً من هذا الجيش أقام حول أسوار غلطه تحت قيادة زغنوس باشا[٤].

ويقدر عدد قطع الأسطول العثماني بمائة وخمسين قطعة بحرية بين صغيرة وكبيرة. ولكن المؤرخين البيزنطيين يزيدون العدد إلى الضعف أو أكثر. وكان سليمان بك بلطه أوغلي يقود الأسطول. وقد قام منذ توليه القيادة بالاستيلاء

(1) Feridun Dirimtekin: Adigeçen Eser, s. 137

(2) Feridun Dirimtekin: Ayni Eser, s. 138
Hammer: Adigeçen Eser, cilt s. 281

(3) Ducas: s. 250 – Hammer: cilt 2, s. 82,371

(4) Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt 1, s. 473

على بعض القلاع المنتشرة في جزر بحر مرمره، التي ينتظر أن تنقض على مؤخرة الأسطول العثماني، أو تساعد المدينة على فك الحصار.

أما الجيش البيزنطي، فيقدر عدد الجيش العامل فيه بخمسة آلاف، ويقدر عدد من هم تحت السلاح بأربعة آلاف وتسعمائة وثلاثة وسبعين. وتشير المصادر إلى أن القوات الأجنبية التي جاءت لنجدة قسطنطين من البندقية وجنوه وجزيرتي كريت وساقز، وأسبانيا ومقاطعة بروفانس بفرنسا تقدر بثلاثة آلاف جندي. أما القوات البحرية سواء منها البيزنطية أو الأجنبية، فيقدر عددها بألفي مقاتل.

ومن الجدير بالذكر أن الأمير أورخان العثماني ابن محمد چلبى الذي كان يعيش لدى قسطنطين، اشترك في المعارك ضد العثمانيين. وكان يقود قوة تقدر بستمائة محارب تركي وعدد من الرهبان المتطوعين. وقد عهد إليه بالدفاع عن المنطقة الواقعة بين (قوم قاپى) وصماتيه جنوب المدينة على بحر مرمره.

ويقدر المؤرخون قوات الدفاع البيزنطية كلها بما لا يقل عن خمسة عشر ألف جندي[1].

قسم الإمبراطور منطقة الأسوار إلى سبعة وعشرين موقع دفاع، خُصص لكل موقع قائداً. وقام هو وجستنيانى وكانتاكوزين بقيادة الموقع الذي يواجه قلب الجيش العثماني عند طوپقپو. أما الأسطول، فيقدر عدد قطعه بتسع وثلاثين قطعة بيزنطية وأجنبية. شاركت فيها جنوه بثمان قطع والبندقية بخمس عشرة

(1) Feridun Dirimtekin: Adigeçen Eser, s. 63-68.

والجمهوريات الإيطالية بست والباقي من بعض البلاد الأخرى ومن البيزنطيين. وقد قامت هـذه القطع بغلق مدخـل القـرن الذهبي بالسلاسل في ٢ أبريل سنة ١٤٥٣م بناءً على أوامر الإمبراطور[١].

بدأت ترتيبات الحصار العثماني في ٦ أبريل ١٤٥٣م، واكتملت يـوم ١١ منه. وقبل أن تبدأ المعارك أرسل السلطان محمد القائد العثماني محمود باشا إلى الإمبراطور، طالباً منه تسليم المدينة حقناً للدماء، كما تقتضي التقاليد الإسلامية. ولكن الإمبراطور أقسم على الدفاع عنها، أو دفع الجزية بموجب معاهدة صلـح توقع بين الطرفين. وبناء على ذلك بدأ الحصار الفعلي اعتباراً من ١٢ أبريـل ١٤٥٣م (٢ ربيع الآخر ٨٥٧هـ)، وتحرك الأسطول العثماني في مواجهة ميناء القسطنطينية.

بدأ المدفع الكبير الذي صُوب تجاه طوبقبو يطلق قذائفه المدويـة، وقـد خارت قوى أهالي القسطنطينية المعنوية أمام هذه الضربات المتلاحقة على حـد قول المؤرخ البيزنطي المحاصر نقولا باربارو. فقد كان هذا المدفع يطلق سـبع أو ثمان دفعات من القذائف الحجرية في اليوم[٢]. وقد أخذ النـاس كـرد فعـل للمفاجأة، يحملون صور العذراء ويطوفون بها في الشوارع. وفي اليوم العاشـر للحصار انفجر أحد المدافع الكبيرة فيمن يعملون عليه، فاستشهدوا جميعاً، وقـام المهندسون بإصلاحه في اليوم التالي. وبفضل تركيز الضربات المدفعية، أمكـن إحداث عدة ثقوب في بعض الأسوار، ولكن البيزنطيين رجـالاً ونسـاءً كـانوا يسارعون لسد هذه الثقوب بكل سرعة. وكان الإمبراطور يتفقد الأسوار كل يوم

(1) Feridun Dirimtekin: Ayni Eser, s. 69, 70, 142

(2) Nikola Barbaro: Kostantiniyye'min Muhasara Jurnali, s. 52

بعد هدوء القصف المدفعي، ويقوم بتشجيع المدافعين[1]. وفي يــوم ١٨ أبريــل تمكنت المدفعية من إحداث ثقوب في الأسوار الضعيفة عند وادي بــيرام باشــا المواجه لقلب الجيش العثماني. ولكن الجنود العثمانيين لم يتمكنوا من اجتياز هذه الثلم، أو رفع سلالم على الأسوار، نظراً لاستبسال الدفاع. وفشل الهجوم الــبري الأول. وقد حاولت السفن العثمانية كسر السلاسل لدخول القرن الذهبي، ولكنــها فشلت أيضاً. كما فشلت محاولاتها التالية في يوم ٢٠ أبريل[2].

علم البابا بما آلت إليه أحوال المحاصرين، فأعد مســاعدة للقســطنطينية، تتكون من ثلاث سفن حربية على ظهر كل واحدة منها أربعمائة محــارب، ثــم أرسل في أعقابها ثلاثين سفينة أخرى. وقد التحقت بهذه السفن الحربية ســفينة بيزنطية واحدة محملة بالذخيرة والعتاد الحربي والمؤن من شبه جزيرة المــورة التابعة لهم. وعندما علم العثمانيون بتحرك هذه القوة البحريــة، أعــدوا العــدة لملاقاتها. وقد عهد السلطان لقائد الأسطول سليمان بك بالتصدي لــهذه الســفن وتحطيمها. استقل القبطان ثمان عشرة سفينة، وتوجه للقاء المدد القادم، فلاقاه في بحر مرمره على مشارف القسطنطينية. ودارت معركة حامية بيــن الفريقيــن، على مرأى من السلطان والإمبراطور، تفوقت فيها سفن الإمداد بفضل إعدادهــا ومهارة بحارتها، وبمساعدة الرياح التي كانت في صالحها. وتمكنت في النهايــة من اختراق السفن العثمانية والانفلات داخل القرن الذهبي، بعد أن أنــزل لــها البيزنطيون السلاسل، ثم شدوها مرة أخرى بعد مرورها. وقد أثار هذا الفشــل السلطان، فقرر عزل سليمان بك وتعيين حمزة بك مكانه[3].

---

(1) Chalcondyle. Op. Cit. PP. 169,170

(2) Feridun Dirimtekin: Adigeçen Eser, s. 154-160.

(3) Ducas: s. 269, 270.

وبعد أن فشلت هذه المحاولات العثمانية الأولى، انعكس صداهـــا علـــى الجيش، فأصبح الموقف يستدعي عقد مجلس حرب للتباحث في الأمر، خاصـــة وأن البيزنطيين وصلهم المدد؛ ومن المتوقع أن يستمر الحصار فترة طويلة. وقد رأى الصدد الأعظم المتخاذل خليـــل باشـــا أن يقبـــل العـــرض الـــذي قدمـــه الإمبراطور. و هو رفع الحصار مقابل جزية سنوية قدرها سبعين ألف دوقة من الذهب. ولكن خصمه زغنوس باشا وبعض القواد والعلماء رفضوا هذا العرض، وفضلوا استمرار الحرب.

كان زغنوس باشا وفرقته المكونة من خمسة عشر ألف مقاتل ترابط شمال غلطه التي يسكنها الجنويون، في منطقة بك أوغلى وفي قاسم باشا وخاص كوى حتى شاطئ الخليج وأيوان سراى. وقد صدرت الأوامر مؤخـــراً إلـــى القـــائد زغنوس، ببناء جسر يربط بين الشاطئ المقابل لخاص كوى والشاطئ الآخـــر، لكي ينشأ هناك ارتباط بين بك أوغلى شمال غلطه وأسوار القسطنطينية الغربية، التي يرابط أمامها الجزء الأكبر من الجيش العثمـــاني. كمـــا أن الجســـر هـــام وضروري لحماية السفن العثمانية، التي قد تدخل إلى القرن الذهبي بأي وســـيلة من الوسائل. ويذكر المؤرخ البيزنطي دوكاس أن الجنويين في غلطـــــه كـــانوا يمارسون سياسة ذات وجهين، فكانوا يساعدون البيزنطيين خفية في الليل، ثـــم يظهرون الصداقة للعثمانيين ويمدونهم بلوازم الحرب التي يطلبونــــها بكميـــات وفيرة مثل زيت الزيتون الذي تحتاج إليه المدافع[١].

ومن الجدير بالذكر أن السلطان محمد الثاني تنبه لنفاقهم بعد الانتهاء مـــن فتح القسطنطينية. وقد ذكر ما حدث منهم في الرسالة التي بعث بـــها لســـلطان

(1) Ducas s. 275

المماليك إينال، حيث قال: "كان في شط الشرم الذي يكون شمالياً منها قلعة أفرنجية جنوزية وهي المحصنة المدعوة بقلعة غلطه وهي جارة لها {القسطنطينية} متسقة النظام مملوة من المشركين الليام فلما حاصرنا قسطنطينية جاءنا أهل تلك القلعة وشددوا بنا ميثاقهم وجددوا معنا وفاقهم وقلنا لهم كونوا كما كنتم وأثبتوا على ما أنتم عليه بشرط أن لا تعينوها فقبلوا شرطنا وأطاعوا أمرنا فلما وقع ما وقع على قسطنيطينية وُجد بين القتلى والأسرى من أهل غلطه وهم قد حاربونا وبدا أنهم نقضوا ميثاقهم وأظهروا نفاقهم"[1].

وبعد أن أقام زغنوس الجسر المطلوب الذي يربط بين جناحي الجيش العثماني، فكر السلطان محمد في حيلة لتلافي السلاسل التي وضعها البيزنطيون عند مدخل القرن الذهبي. وقد كان البيزنطيون يهدفون من وراء هذه السلاسل، إلى حماية الأسوار المطلة على القرن الذهبي، لأنها أسوار ضعيفة، وكان السلطان يدرك ذلك جيداً. ومن الجدير بالملاحظة أن هذه السلاسل استُعملت لأول مرة سنة ١٠٠ هـ (٧١٨م) من قبل الإمبراطور ليون، عندما قام العرب بمحاصرة القسطنطينية في أواخر عهد سليمان بن عبد الملك ٩٨هـ واستمر الحصار حتى أوائل عهد خلفه عمر بن عبد العزيز. ثم استعملت السلاسل مرة أخرى أثناء الحرب الصليبية سنة ١٢٠٣م. وقد تمكن الأسطول البندقي وقتها من تحطيمها ودخول القرن الذهبي ومهاجمة المدينة من شواطئه[2].

---

(١) نص الرسالة بالعربية في كتاب أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٢٤٠أ.

(٢) راجع ص ١١٨،١١١ من هذا الكتاب.

Feridun Dirimtekin: Adigeçen Eser, s.142

أمر السلطان بعمل بكر من الأشجار الضخمة الموجودة في المنطقة، وطلب الزيت من جنويي غلطه لدهن البكر. وفي هذه اللحظات أمر السلطان بإطلاق المدفعية المنصوبة في تلك المنطقة على السفن الراسية عند مدخل القرن الذهبي للتمويه على جنويي غلطه، كما جرت محاولات وهمية لاختراق السلاسل أيضاً. وقام الجنود تحت جنح الظلام في ٢١ أبريل، بتزليق السفن على البكر من طوپخانه شمالي غلطه على بحر مرمره، إلى **"قاسم باشا"** على شاطئ القرن الذهبي، ثم أُنزلت في المياه. وقد أمكن نقل سبعين سفينة تقريباً في ليلة واحدة، تحت ستار من المدفعية. ثم أخذت مدفعية هذه السفن والمدفعية الموجودة على الشاطئ المقابل لها تمطر أسوار القسطنطينية الضعيفة الواقعة على شاطئ القرن الذهبي بالقذائف. وقد اضطر الإمبراطور أمام هذا الإجراء، لنقل بعض الفرق إلى هذه المناطق للدفاع عنها. ولم توفق الهجمات البيزنطية التي انصبت على الجسر أو على السفن التي نُقلت إلى القرن الذهبي وباءت كلها بالفشل الذريع. واحتدم الصراع بين الفريقين في القرن الذهبي وأُصيب كل منهما ببعض الخسائر في السفن وفي الأرواح. وعقد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين دراجازيس مجلس حرب، للتشاور في أمر السفن العثمانية التي نقلت إلى القرن الذهبي. فاستقر رأي المؤتمرين على وجوب التخلص من هذه السفن بمباغتتها في جوف الليل وإحراقها. وأخذ البحار البندقي جاكومو كوكو Jacomo Coco على عاتقه هذه المهمة. وتسرب الخبر إلى جنويي غلطه، فأبلغوه للسلطان محمد على حد قول المؤرخين الأوروبيين المعاصرين للفترة. فأخذ يستعد للمفاجأة. ولم يكد البحار البندقي يقترب بسفنه من السفن العثمانية الراسية في القرن الذهبي في

٢٨ أبريل، حتى أمطرتها مدافع الشاطئ بوابل من القنابل. فغرقت سفينة القائد في لحظات، وأصيبت بعض السفن الأخرى وفر الباقي[1].

أخذ السلطان العثماني يعد العدة للهجوم الثاني. فبدأ يعيد توزيع المدافع من جديد، بناء على ما تكشف من تجربة الهجوم الأول. وركز الهجوم هذه المرة على منطقة القلب (طوبقبو) لهدم أسوارها، ولكن كثافة الدفاع واستماتة المدافعين جعلت الهجوم الثاني الذي بدأ في ٦ مايو يصاب بالفشل. وقد لبى البابا والبنادقة نداء الاستغاثة الذي وجهه الإمبراطور البيزنطي إليهم في هذه اللحظات العصيبة، فأرسل البابا إليه خمس سفن في ٧ مايو، كما أرسل إليه البنادقة أسطولاً بقيادة لوريدانو[2].

ولما لم يحرز الهجوم الثاني نجاحاً، فكر السلطان في توجيه هجمة أخرى على مكان آخر من الأسوار، فكلف الجناح الأيسر بتوجيه الضربة هذه المرة في ١٦ مايو. ولكن الهجوم الثالث رغم عنفه، لم يحقق النتيجة المرجوة.

رأى السلطان محمد بعد ذلك أن يبدأ هجوماً شاملاً على المدينة، حتى يتمكن من اختراق الدفاع ودخولها. ولكنه قبل أن يقوم بتنفيذ الهجوم، أرسل رسوله قاسم بك اسفنديار أوغلى إلى الإمبراطور في ٢٣ أو ٢٤ مايو يعرض عليه الصلح، بشرط: تسليم المدينة. وخروج الإمبراطور منها سالماً ومعه حاشيته وخزائنه إلى أي مكان يشاء أو يقبل حكم الموره. وخروج الأهالي من المدينة أو بقاؤهم فيها متمتعين بالحرية التامة. وإلا كانت العاقبة وخيمة. فأرسل

(١) د. سالم الرشيدي: المرجع السابق، ص٦٥.

(2) Dr. Halil Inalcik: Fatih Devri Üzerine Tetkikler ve Araştirmalar, s. 129 (Türk Tarih Kurumu Yayinlarindan) Ankara 1956

الإمبراطور بدوره رده مع رسله إلى السلطان، قائلاً: ندفع الجزية كما تقدرونها، ولا نرضى بغير ذلك. فرد السلطان على الرسل، بقوله: لا يمكن أن أبرح هذا المكان، فإما أن أفتح المدينة أو أموت تحت أسوارها. إذا انسحب الإمبراطور من المدينة بسلام، فإني أمنحه حكم المورة وأعطي إخوته ولايات أخرى. ونكون بهذا أصدقاء. وإلا فإن العاقبة ستكون وخيمة على الإمبراطور وحاشيته ورعيته[1].

وفي يوم ٢٥ أو ٢٦ مايو أرسل ملك المجر الشاب رسله إلى السلطان محمد، لكي يخبره بأن وصاية هونيادي قد رُفعت عنه وأصبح ملك المجر بمفرده. ويود لو أن السلطان رفع الحصار عن القسطنطينية، وإلا اضطر لمساعدة الإمبراطور، وحث أساطيل الدول الغربية لنجدته[2]. وفي يوم ٢٧ مايو عقد السلطان مجلس حرب للتشاور في فحوى الرسالة التي وردت إليه من ملك المجر. فأشار عليه الصدر الأعظم خليل باشا برفع الحصار عن المدينة نظير جزية كبيرة تُحصّل من البيزنطيين، حيث لا قبل للعثمانيين بحرب صليبية جديدة، وقد جرت عليهم ثلاثاً منها، الوبال في السابق. ولكن زغنوس باشا رد قائلاً: إن الغرب لن يساعد المدينة المحاصرة كما قال ملك المجر، وإن جاء لنجدتها، فلن يثنينا عن عزمنا شئ. ثم وافق الجميع على رأي زغنوس، وقرروا بدء الهجوم الشامل[3].

---

(1) Ducas: s. 276

(2) Feridun Dirimtekin: Adigeçen Eser, s. 177

(3) Dr. Halil Inalcik: Adigeçen Eser, s. 130.

اتخذ السلطان كافة الترتيبات في البر والبحر لشن هجوم شامل مكثف على أسوار المدينة، خاصة وأن الحصار قد طال، والوقت قد حان ولا يحتمل التأخير بعد رسالة ملك المجر. وقد تم تأخير عودة الرسل، حتى تكتمل الاستعدادات للهجوم المرتقب. أخذ السلطان يتفقد الأسوار والشواطئ، لكي يخطط للمعركة، كما أخذ يخطب في جنده ليزيد حماسهم وشجاعتهم[١] ثم بدأ القذف المركز على جميع الجهات في البر والبحر في ٢٧ مايو. وقد أحدث الهجوم عدة ثلم في الأسوار، ولم يتمكن البيزنطيون من سدها نظراً لاستمرار القصف المدفعي.وقد تقدم مراد باشا من هذه الثلم يريد اصطياد جستنياني، ولكنه فشل في مسعاه وسقط شهيداً. ولما اشتد الهجوم أشار كبار رجال الدولة البيزنطية على الإمبراطور بالهروب، ولكنه رفض بإصرار. وتوجه لتوه إلى الأسوار، وتمكن من طرد العثمانيين الذين تقدموا من الثلم التي أحدثتها المدافع[٢].

توجه الإمبراطور في ليلة ٢٨ مايو إلى كنيسة أياصوفيا ومعه كثير من البيزنطيين، وأدوا الطقوس الدينية، ثم تضرعوا لله أن يخلصهم من المأزق الذي وقعوا فيه. وكانت هذه آخر صلاة نصرانية تقام في أياصوفيا.

وفي صباح ٢٨ مايو بدأ القصف المدفعي ينشط من جديد، وأحدث عدة ثلم في أسوار طوبقبو (منطقة القلب). وقد أخذت هذه الثلم تتسع رويداً رويداً. ثم توقف القصف وبدأ في مساء ٢٩ مايو، واستمر حتى الساعات الأولى لصباح ٢٩. وفي الصباح بدأ الهجوم المكثف، فاستمرت الضربة الأولى ساعتين

(١) انظر خريطة "أهمية موقع القسطنطينية وحصار الفاتح لها" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (١١)

(2) Kritovulos: Adigeçen Eser, s. 280.

ولم تنجح، واستمرت الضربة الثانية ساعة ونصف ولم تصل إلى نتيجة حسنة. كما أن الجنود العثمانيين الذين تسلقوا الأسوار عن طريق السلالم الخشبية قد أبيدوا بالنار الإغريقية. ثم بدأت الضربة الثالثة وكانت طويلة الأمد. وقد أبلي فيها الانكشارية بلاءً حسناً. كما أن قوات الاحتياط ساهمت بنصيب كبير أيضاً. وكان السلطان في القلب يقود هذه الفرق. كما أن الإمبراطور وجستنياني كانا في الطرف المقابل للقلب. وقد جُرح جستنياني أثناء الضربة الثالثة في يده وفي ذراعه، فانسحب من الميدان رغم إلحاح الإمبراطور عليه بالبقاء. ويُقال أنه استقل سفينة أقلعت به حتى جزيرة ساقز[١].

تقدمت قوات الانكشارية تحت ستار المدفعية حتى تجاوزت الخنادق إلى السور الخارجي. وقد تسلق ثلاثون منهم السور، وكان في مقدمتهم الجندي المغوار حسن أولو بادلى. وقد تمكن البيزنطيون من قتل ثمانية منهم بالسهام والحجارة. ثم أُصيب حسن وسقط شهيداً من فوق السور، كما سقط معه كثيرون. ولكن الانكشارية صممت على اجتياز السور، رغم كثرة الخسائر. وتوالت المجموعات المتسلقة للسور، وأصبحت من الكثرة بحيث لم يستطع الإغريق التخلص منهم. واستولى الانكشارية بعد ذلك على المكان الذي يقع بين السورين، وقذفوا بالمدافعين. وقد أُصيب الإمبراطور في كتفه في هذه الأونة، وسقط كانتا كوزين بجواره قتيلاً. فزع الإمبراطور من هول الهجوم، فتراجع هارباً، ثم سقط قتيلاً من تأثير قذيفة شديدة لحقت به[٢].

---

(1) Ducas: S. 284.

(2) Feridun Dirimtekin: Adigeçen Eser, S. 219.

كان الإمبراطور في الخمسين من عمره عندما سقط في المعركة.

تهاوى الدفاع عن السور الداخلي لطوپقپو، فتقدم الانكشارية واستولوا عليه وتقدموا بعده إلى داخل المدينة. كما تمكن جنود الجناح الأيمن من دخول المدينة بعد أن هدموا جزءً من الأسوار المقابلة لـ "باب سيوري"، بصعوبة بالغة. كذلك تمكن الجناح الأيسر فيما بعد من اجتياز الأبواب الموجودة في الأسوار التي يرابطون أمامها. ثم سقطت الأسوار الواقعة على القرن الذهبي بعد ساعة ونصف أو ساعتين تقريباً. وعندما علم الأمير أورخان قائد الفرق البيزنطية المرابطة خلف الأسوار الواقعة على بحر مرمره بسقوط المدينة، تسلق أحد الأسوار وألقى بنفسه في فوقه، فانتحر. وعُرفت جثته فيما بعد[1].

وهكذا سقطت القسطنطينية بعد حصار دام أربعة وخمسين يوماً. وبعد أربع ضربات مكثفة في ١٨ أبريل وفي ٦ ، ١٢ ، ٢٩مايو. سقطت القسطنطينية التي استمرت عاصمة للإمبراطورية البيزنطية لمدة ١١٢٥ عاماً. ودخل العثمانيون استانبول بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٩ مايو ١٤٥٣م (٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ)[2].

كان السلطان محمد في الثانية والعشرين من عمره، عندما فتح استانبول[3]. وقد استحق لقب الفاتح عن جدارة بهذا العمل الكبير الذي كلف المسلمين كثيراً. دخل السلطان المدينة من طوپقپو يحيط به لفيف هائل من

---

(1) Ducas: S. 291-293.

(٢) احمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٣٤٠، ، ٢٥٠أ.

(٣) لا تعرف السنة التي وُلد فيها محمد الثاني بالتحديد. يقول عالى في كنه الأخبار ٨٣٤هـ ، وعاشق پاشا زاده ٨٣٢هـ ، وتاج التواريخ لسعد الدين ٨٣٣ هـ ، وأنوري في دستور نامه ٨٣٥ هـ ، وشكر الله في بهجة التواريخ ٨٣٥هـ (١٤٣٢م) وكان من ندماء السلطان مراد الثاني، ورأيه أقرب إلى الصواب.

الوزراء والعلماء وكبار رجال الدولة. ثم أخذ يتجول في المدينة وهو يمتطي جواده، وينصح الجنود بالكف عن السلب والنهب. وتوجه بعد ذلك إلى أياصوفيا، وهناك نزل من على صهوة جواده. وانحنى على الأرض خاشعاً يحثو التراب على رأسه حمدًا لله وشكرًا. وعندما دخل أياصوفيا، وجد بها البطريق وأناساً كثيرين من المسيحيين. فنادى على البطريق وقال له: "**أنت ورفاقك وكل الناس من الآن فصاعداً، أحرار آمنون على** أرواحكم". ثم نادى قواد الجيش العثماني وحذرهم من تعرض أي جندي لأحد بسوء. وأمر الفاتح أحد العلماء بأن يؤذن لصلاة العصر في كنيسة أياصوفيا، ثم أدى الصلاة فيها إيذاناً بتحويلها إلى مسجد[1]. وذهب الفاتح بعد ذلك إلى قصر الإمبراطور. وهناك قدم إليه أحد الصربيين رأس الإمبراطور، فتعرف عليها بكوات الروم. وعندما أُحضرت الجثة وُجد النسر الذهبي مرسوماً على الجورب والحذاء. وهي شارات الملك التي يتربى بها الأباطرة حسب العادات القديمة. وقد أمر الفاتح بدفن الإمبراطور، بطريقة تليق بالحكام. ثم سأل عن زوجة الإمبراطور وأولاده. فأخبروه بأنهم هربوا على سفينة جستنياني إلى الموره[2].

ورأى الفاتح أن يهتم بشئون الروم الدينية، فأمر رجال الدين بانتخاب بطريق من بينهم. فاختاروا جناديوس بطريقاً لهم، وكان من أقوى المعارضين لاتحاد الكنيستين. وقد خول له السلطان صلاحيات واسعة في الشئون الدينية والدنيوية.

---

(١) انظر: أحمد راسم: المرجع السابق، م١، ص٢٨٤.

(٢) أحمد مختار باشا: المرجع السابق، ص١٦٢.
Feridun Dirimtekin: Adigeçen Eser, S. 220-225.

وبعد أن انتهى الفاتح من ترتيب الأحوال في استانبول، عاد إلى أدرنه في ١٨ يونيو ١٤٥٣م.(١)

وقد أرّخ المؤرخون العثمانيون لهذا الفتح العظيم بـــ "**بلدة طيبة**". ويُحسب هذا التعبير بحساب الجُمَّل، حيث يوافق السنة الهجرية للفتح ٨٥٧هـــ.(٢)

فتوحات محمد الثاني التي أعقبت فتح القسطنطينية:

(١) الصرب والبوسنة:

بعد أن فتح السلطان محمد القسطنطينية، عاد إلى أدرنة، فجاءته رسل من قبل ملك الصرب جورج برانكوفتش (**يوركى في الكتب التركية**)، للتهنئة بالفتح، وتقديم مفاتيح القلاع الصربية التي سبق للعثمانيين فتحها. وفي نفس الوقت كان ملك الصرب يتباحث مع المجر للاشتراك في الحرب الصليبية التي نادى بها البابا ضد العثمانيين.

كان أول هدف ترمي إليه سياسة السلطان محمد هو التمكين لسلطته في شبه الجزيرة البلقانية، حيث كان المجر الأشداء في الحرب يهددونها، بحكم قربهم من تلك الديار، بأعظم الأخطار. من أجل ذلك كان لزاماً عليه أن يفتح

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt I, s. 452-493.

(٢) يجرى حساب الجمل بحساب الأعداد التي تقابل الحروف الهجائية، وهي أ=١ ، ب=٢ ، جـ=٣ ، د=٤ ، هـ=٥ ، و=٧ ، ز=٧ ، ح=٨ ، ط=٩ ، ي=١٠ ، ك=٢٠ ، ل=٣٠ ، م=٤٠ ، ن=٥٠ ، س=٦٠ ، ع=٧٠ ، ف=٨٠ ، ص=٩٠ ، ق=١٠٠ ، ر=٢٠٠ ، ش=٣٠٠ ، ت=٤٠٠ ، ث=٥٠٠ ، خ=٦٠٠ ، ذ=٧٠٠ ، ض=٨٠٠ ، ظ=٩٠٠ ، غ=١٠٠٠.

بلاد الصرب، لكي يضمن لجيشه قاعدة ثابتة يستطيع الانطلاق منها لحرب المجر.[1]

بدأ الفاتح يعد العدة للتحرك لقتال الصرب سنة ١٤٥٤م، فعلم برانكوفتش بذلك، وأخذ يحصن قلاع العاصمة سمندره. ثم ترك الدفاع عنها لأحد قواده، وهرب هو وأولاده إلى المجر. تحرك الفاتح إلى الصرب، وضرب حصاراً حول سمندره وأستروفيتش. لم تسقط سمندره، أما أستروفتش فقد سلمها محافظها للعثمانيين لقاء احتفاظه بحياته. ثم عاد السلطان العثماني أدراجه إلى أدرنه، وترك القائد فيروز بك، لكي يكمل فتح بلاد الصرب. جاء هونيادي لمساعدة برانكوفتش، واشتركا سوياً في منازلة القائد العثماني، فهزماه وأسراه، ثم قاما بتخريب البلاد الواقعة بين ودين ونيش.

تحرك السلطان بنفسه إلى الصرب، فوجد برانكوفتش وحيداً بعد أن عاد هونيادي إلى بلاده. فآثر ملك الصرب التسليم، وقبل الاعتراف باستيلاء العثمانيين على بعض القلاع ودفع الجزية وتقديم الجنود للجيش العثماني وقت الحرب.

وفي ١٤٥٥م (٨٥٩هـ) تحرك السلطان على رأس جيشه إلى الصرب، وحاصر مدينة نوفوبردا الشهيرة بالفضة لمدة أربعين يوماً حتى استسلمت. وكانت هذه المدينة في يد العثمانيين، ثم استردتها الصرب. واستولى بعد ذلك

(١) كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص٤٣٥.

على بعض المدن الصغيرة والقلاع.[1] ولم يبق أمامه في الصرب إلا الاستيلاء على بلغراد مفتاح قلب أوروبا.

وقد سبق للعثمانيين أن حاصروا بلغراد لأول مرة في عهد مراد الثاني، ولكن هونيادي تمكن من رفع الحصار عنها. وهو في هذه المرة يأتي ومعه ملك الصرب للدفاع عن بلغراد. استعد السلطان محمد لكي يقود هذه المعركة بنفسه لوقوفه على مدى صعوبتها، فتحرك من صوفيا إلى الصرب. ولما وجد ملك الصرب نفسه وحيداً، هرب إلى المجر. هذا وتعد بلغراد مدينة حصينة حيث أنها على شكل شبه جزيرة تقع عند التقاء نهري الطونة وساوا. وإذا وقعت في يد العثمانيين فإن الطريق أمامهم إلى وسط أوروبا يكون سهلاً ميسوراً. لهذا قام البابا بتحريض هونيادي على ملاقاة العثمانيين. تمكن هونيادي من تحطيم السفن العثمانية التي جاءت لتكمل الحصار حول المدينة. واشتد القتال بين الطرفين، وتمكن هونيادي من إلحاق خسارة فادحة بالعثمانيين، حتى أن السلطان محمد جُرح في فخذه أثناء اشتداد القتال. ثم رفع الفاتح الحصار من حول المدينة يائساً من فتحها، وعاد أدراجه إلى أدرنه بعد أن استشهد من جنوده أربعة وعشرون ألفاً تقريباً[2] . وقد توفى هونيادي بعد انتهاء المعركة بعشرين يوماً أي في ١١ أغسطس ١٤٥٦، متأثراً بجراحه التي مني بها في هذه المعركة. ثم توفى

---

(١) تاج التواريخ لسعد الدين، جـ١ ، ص٤٥٠.
تاج لطفي: ص١٨٤.

(٢) تاريخ أبو الفتح: ص٧٢.
عاشق باشا زاده تارخى، ص ١٤٧.

جورج برانكوفتش في العام التالي أي في ٢٤ ديسمبر ١٤٥٧م. وقد قال البابا بى الثاني Pie متحسراً على مقتل هونيادي: "لقد ماتت آمالنا بموت هونيادي"[١].

وبعد موت برانكوفنش، تنازع أبناؤه على العرش وتصارعوا، ثم تولى أحدهم وهو لازار، لمدة عام واحد مات بعده. وتجدد الصراع على العرش مرة أخرى. فتمكن السلطان من ضم بلاد الصرب للدولة العثمانية ١٤٥٩م (٨٦٣هـ) ما عدا بلغراد. ثم ضُمت البوسنة إلى الدولة العثمانية في يونيو ١٤٦٣م دون قتال.

(٢) المورة وبعض الجزر اليونانية:

عندما مات حاكم أثينا نريو أكسييولى سنة ١٤٥٣م، ترك وراءه فتى قاصراً، فأُقيمت زوجته وصية عليه. وقد وقعت هذه السيدة في حب فتى من البندقية، ثم تزوجته. وأراد الفتى أن يتربع على عرش أثينا، ولكن ابن أخ نريو تصارع معه على العرش. وشكا أهل أثينا للسلطان العثماني، فأرسل قائده عمر بن طُراخان للاستيلاء على المدينة، لأن أهلها ساخطون على الطرفين، فتم له ذلك في سنة ١٤٥٦م (٨٦٠هـ).

عهد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين دراجازيس بحكم الموره إلى أخويه توماس وديمتريوس سنة ١٤٤٨م. كان توماس رجلاً غليظ القلب، أما ديمتريوس فكان يتصف بالدعة والميل إلى الهدوء. ولم يكد الأخوان يصلان إلى الموره، حتى قامت بينهما الفتن والمنازعات. وقبل أن يشرع السلطان محمد في فتح القسطنطينية، أرسل بعض جنوده إلى المورة، لمنع حاكميها من مساعدة أخيهما.

---

(١) د. سالم الرشيدي: المرجع السابق، ص ١٢٨.

ولما تم الفتح، بادر الأخوان بطلب الأمان، فمنحهما الفاتح الأمان بشرط دفع الجزية. ولكن الهدوء لم يستتب في المورة، حيث تدخل في شئونها بعض المغامرين الألبان طمعاً في حكمها. واستمر الصراع بين الأطراف الثلاثة فترة طويلة. وقد خشي السلطان من استيلاء الألبان على شبه الجزيرة، فأرسل إليهم القائد علي بن طُراخان سنة ١٤٥٤م، لكي يُوقف الخطر الألباني عن المورة. ولكن الوضع لم يستتب، فذهب السلطان بنفسه، واستولى على شمال المورة وضمها للدولة العثمانية. ولم يكد الفاتح ينسحب من المورة حتى حدث نزاع آخر بين الأخوين توماس وديمتريوس، وقام الألبانيون من جانبهم بتخريب ما وصلت إليه أيديهم. فدخل السلطان المورة مرة أخرى، واستولى على بعض أجزائها. ثم خصص لديمتريوس راتباً سنوياً سخياً، وجعل له مدينة أينوس مقراً. وقد ترهب الأمير الرومي في أخريات أيامه، وتوفى في أدرنه سنة ١٤٧١م. أما توماس فلم يكد يسمع بوصول الفاتح، حتى فر إلى شواطئ الموره، ثم مكث مدة حتى اعتراه اليأس، وقرر اللجوء إلى البابا ليطلب معونته سنة ١٤٦٠م. ولما لم يستجب البابا انتقل إلى ألبانيا ومكث بها حتى مات سنة ١٤٦٥م.

وهكذا ضُمت المورة إلى الدولة العثمانية، كما سبق أن ضُمت أثينا أيضاً. وأصبحت اليونان تابعة للدولة العثمانية، ما عدا بعض المدن على الشواطئ كانت تتبع البندقية، خاصة كورون ومودون وأرجوس وليبانت.

ولم تسلم هذه المدن من تعرض القائد العثماني عمر بن طُراخان لها، بعد أن عُين حاكماً على المورة. وقد كان هذا العدوان باعثاً على اتحاد بعض القوى الصليبية مع البندقية ضد الدولة العثمانية مثل البابا والمجر وألبانيا. ولكن هذا الحلف لم يكن مؤثراً، فقد تمكن القائد العثماني محمود باشا من الانفراد بالبنادقة الذين كانوا يخافون على المدن التي تتبعهم في المورة. وأنزل بهم الهزيمة تلو

الأخرى، حتى تمكن من الاستيلاء على بعض قلاعهم في المدن المذكـــورة.[1] وبعد ذلك تمكن العثمانيون بعد صدام طويل مع البابـــا ومـــع الجنويين مـــن الاستيلاء على بعض الجـــزر التابعـــة للجنويين في بحـــر ايجـــه لتـــأمين سواحلهم، مثل ايمبروس (يسميها العثمانيون ايمروز) وســـاموتراس (يســـميها العثمانيون سمادرك) وتاسوس (يسميها العثمانيون طاشوز) وليمنوس (يســـميها العثمانيون ليمنى) ولسبوس (يسميها العثمانيون مديللى).[2]

(٣) بعض مناطق الأناضول:

وجد الفاتح بعد القسطنطينية أن بعض الإمارات والدول فـــي الأنـــاضول تشكل خطراً على الدولة العثمانية، فبدأ يخطط للاستيلاء عليها بعـــد أن خـــاض بعض الجولات في الصرب والموره.

(أ) كانت إمبراطورية طرابزون الرومية أقوى البلاد الخارجـــة عـــن الحكم العثماني في الأناضول. وكان إمبراطورها يحيك المؤامرات من آن لآخر ضد الدولة العثمانية. وبعد فتح القسطنطينية بثلاث سنوات أمر الفاتح خضر بـك واليه على أماسيا بالهجوم على طرابزون أيام أن كان السلطان في بلغراد. وقـــد تمكن القائد العثماني من التوغل في طرابـــزون وإلقـــاء الرعـــب فـــي قلـــب إمبراطورها يوحنا. وكان من نتيجة هذه المعركـــة أن اعـــترف الإمـــبراطور بالتبعية العثمانية وأقر دفع الجزية. وبعدها أخذ يوحنا يبحث عـــن حليـــف لـــه يناصره ضد الدولة العثمانية، فوجد الأمير التركمـــاني أوزون حســـن (حســـن

---

(١) تاج التواريخ لسعد الدين: م١، ص٥٠٤، استانبول ١٣٠٥هـ.

(٢) سعد الدين: نفس المصدر، م١، ص٥١٣.

الطويل) على استعداد لمناصرته بشـــرط أن يـتزوج ابنتـه كـاترين. وافـق الإمبراطور على ذلك، وسعى لدفع بعض الإمارات الأخرى لمناصرتـــه مثـل سينوب والقرمان. كما حاول من ناحية أخرى أن يكسب عطف البابا بإيهامه بأنه يوافق على وحدة الكنيستين الشرقية والغربية. ولم يجن يوحنا ثمرة جهوده حيث فاجأه الموت سنة ١٤٥٨م، وترك وراءه ابناً قاصراً لم يتمكن من اعتلاء العرش لصغر سنه، فتولى بعده أخوه داوود.(١) وكان الفاتح مشغولاً آنـــذاك بـالموره، فوجد داوود الفرصة مهيأة أمامه للاستعداد لمواجهة الدولة العثمانيـــة. فأرسـل رسله إلى البابا وإلى حكام أوروبا خاصة فرنسا وجنوه يحثهم علـــى الإعـداد لحرب صليبية ضد العثمانيين. ولم يكن لجنوه مستعمرات غير مدينة أمـــاصره في آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأسود وكفه بشبه جزيرة القرم، بعـــد أن استولى العثمانيون على غلطه في أعقاب فتح القسطنطينية. وبعد أن عاد رسـل داوود ظن أن الأمور قد استتبت وأن العون سيرد إليه من الغرب ومن الشـرق. فحرص أوزون حسن على الامتناع عن دفع الجزية للفاتح. ولما علم الســلطان بذلك قاد جيوشه في البر وأمر محمود باشا بقيادة السفن في البحر الأسود قاصداً أوزون حسن الآق قيونلي. وأثناء سيره في الطريق استولى على أماصره، ثـــم فتح سينوب سنة ١٤٦١م (٨٦٥هـ).(٢) وعند ذلك أحسن أوزون حسن بـالخطر يقترب منه بعد أن تحرك السلطان إلى أرضروم، فأرسل أمه سارة خاتون علـى رأس وفد للفاتح. وقد قبل السلطان رجاء ساره، واشترط عليها ألا يساعد ابنـــها طرابزون وألا يغير على الحدود العثمانية. ثم زحف الفاتح نحو طرابزون ومعه

---

(١) أنظر: عمر فاروق: المرجع السابق، م٢، ص١٩٥-١٩٩
وأنظر: Ismail Hami Danişmend: Adigeçen Eser, cilt I, s. 300-311

(٢) تاج التواريخ لسعد الدين، م١، ص٨٢.

ساره، وتمكن بالجيش والأسطول من فتح المدينة والقبض على داوود في أواخر سنة ١٤٦١م (٨٦٦هـ)، وإرساله إلى أدرنه، لكي يقضي بقية أيام حياته بها.

وفزع البابا بى الثاني لهذه العاقبة المحزنة، ونادى دول أوروبا لحرب صليبية ضد العثمانيين تبدأ من مدينة أنكون بإيطاليا تحت قيادته. ولكن الفوضى والمنازعات الداخلية التي كانت سائدة في أوروبا لم تساعد على تحقيق هذه الحملة، فخابت آمال الصليبيين.

(ب) لم يكد أمير القرمان إبراهيم بك يعلم بوفاة صهره مراد الثاني حتى شن الحرب على الدولة العثمانية، ظناً منه أن السلطان الجديد محمد الثاني لن يستطيع الوقوف ضد زوج عمته. ولما لم يتمكن من الوصول إلى نتيجة من عدوانه، استعطف السلطان فعفا عنه. ولكن إبراهيم كان يضمر العداوة في نفسه، فاتصل بسلطان المماليك إينال وحرضه على قتال العثمانيين، إلا أنه لم يستجب لطلب الأمير القرماني. فثار إبراهيم على الدولة المملوكية واعتدى على بعض بلاد الحدود التابعة لهم، واستولى عليها. واعترضه الجيش المملوكي، ولم يكتف بإعادة ما أخذه، بل توغل في بلاد القرمان، ثم عُقد الصلح بين الطرفين. وقبل موت إبراهيم ثار عليه أبناؤه السبعة وطردوه من قونية. وما لبث إبراهيم أن مات، فتنازع أبناؤه العرش من بعده. ودام بينهم الصراع فترة طويلة واستنجد بعضهم بأوزون حسن وبعضهم الآخر بالسلطان الفاتح.[1] وحدثت بأوروبا أحداث شغلت الفاتح بها مدة من الزمن، ولما استقرت الأمور هناك عاد إلى آسيا الصغرى ليقضي على إمارة القرمان.

---

(1) Zuburi Danişmend: Adigeçen Eser, cilt,4, s. 315-317.

وقد تمكن السلطان من قهر القرمانيين وتولية ابنه مصطفى حكم بلادهم في سنة ١٤٦٧م (٨٧٢هـ). ولكن القرمانيين ما لبثوا أن ثاروا على الحكم العثماني، فأرسل إليهم الفاتح الصدر الأعظم اسحق باشا في سنة ١٤٧١م (٨٧٥هـ) الذي تمكن بعد صراع طويل بين الطرفين من ضم الإمارة للحكم العثماني والقضاء على شوكة القرمانيين.

(جـ) أما أوزون حسن أمير الآق قيونلية، فقد تحالف مع البنادقة درءاً للخطر العثماني الواقع عليه. وقام بالاستيلاء على مدينة خرت برت التابعة لإمارة ذى القدر التي تحظى بالحماية المملوكية، لكي يعبر منها إلى البحر الأسود، فيسهل عليه الاتصال بحلفائه البنادقة وطلب معونتهم العسكرية. غير أن سلطان مصر خوشقدم غضب من هذا المسلك، وأخذ يتودد إلى السلطان العثماني للاتفاق معه ضد أوزون حسن التركماني. وما أن علم أمير الآق قيونلية بذلك حتى أوفد أمه إلى السلطان المملوكي معتذراً عما قام به، فعفا عنه خوشقدم.[١]

اغتر أوزون حسن بقوته، فصمم على محاربة العثمانيين والمماليك في آن واحد. فأوفد ابن عمه يوسفجه ميرزا على رأس جيش، تمكن من الاستيلاء على بعض البلاد عند حدود الدولة العثمانية. فكتب الفاتح إلى ابنه مصطفى حاكمه على بلاد القرمان يحثه على منازلة جيش يوسفجه ميرزا. التقى الجيشان في قونيه في ١٩ أغسطس سنة ١٤٧٢م (١٤ ربيع الأول ٨٧٧هـ) ودارت بينهما معركة حامية، انتهت بالانتصار الساحق للأمير الصغير مصطفى، وأسر القائد الآق قيونلى.[٢]

(١) حوادث الدهور لابن تغرى بردى، ص٢١٠.

(٢) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٤٢٠.

أما الجيش الثاني الذي أرسله أوزون حسن بقيادة بعض أبنائه لقتال المماليك، فقد استولى على بعض مناطق الحدود المملوكية شمال الشام. ولما جاءت أوزون حسن أخبار انكسار جيشه على يد الأمير مصطفى ابن الفاتح، أمر بسحب جيشه من المناطق التابعة للمماليك.

وفي هذه الأثناء كان السلطان العثماني قد فرغ من مشاغله في الجبهة الأوروبية إلى حد ما، فأخذ يستعد في مارس ١٤٧٣م (شوال ٨٧٨هـ) للتحرك على الآق قيونلية. سار السلطان بالجيش شرقاً، ثم توقف عند مدينة سيواس، وأرسل فرقة من جيشه جعل على رأسها القائد "**خاص مراد باشا**" لاستطلاع الموقف. وكان الأمير التركماني متحصناً في إقليم أرزنجان، ينتظر الجيش العثماني، فالتحم معه خاص مراد في معركة حامية، انتهت بغرق القائد العثماني عند فراره في نهر الفرات وأسر بعض كبار رجاله.(١)

وما أن علم الفاتح بالنتيجة السيئة، حتى تقدم بنفسه لمواجهة أوزون حسن، وجعل في الميمنة ابنه بايزيد وفي الميسرة ابنه مصطفى واحتفظ هو بالقلب. كما جعل أوزون حسن ابنه زينل في الميمنة وابنه اوغورلى محمد في الميسرة. والتحم الجمعان في معركة فاصلة في أوتلقبلى، لقى فيها زينل حتفه، وهرب أخوه الثاني، وخارت قوى جيش أوزون حسن فولى هارباً، يتوعد الفاتح بالانتقام. ولكن الظروف لم تساعد الأمير التركماني، حيث ثار عليه ابنه اوغورلى محمد سنة ١٤٧٥م (٨٨٠هـ) ثم ابن أخيه من بعده. وتوفي أوزون حسن بعد ذلك.(٢) فتولى بعده ابنه خليل الذي حالف العثمانيين وعقد معهم معاهدة للصلح.

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt2, s. 87-110.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ص٢٨٢.

(٤) ألبانيا والأفلاق والبغدان:

(أ) كان جورج كاستريوتا (اسكندر بك) أحد الحكام المناوئين للحكم العثماني. وقد رأى السلطان محمد الثاني بعد أن فتح القسطنطينية أن يقضي على هذا الحاكم الذي كان يتحالف مع الصليبيين من آن لآخر ضد الدولة العثمانية. وقد وثق اسكندر بك في قوته، فأخذ يتصدى للعثمانيين بجرأة شديدة، كلما حدثتهم النفس بالتعرض لألبانيا. قام اسكندر بك بمحاصرة مدينة بيرات الألبانية في يوليو سنة ١٤٥٥م لتخليصها من الحكم العثماني. ولكن العثمانيين تصدوا لهذه المحاولة وأوقعوا به هزيمة منكرة على يد القائد عيسى بن أورنوس وبمساعدة أكبر قواد اسكندر بك الذي فر إلى العثمانيين قبل المعركة ويدعى مويس غلام ديبرا. وشتتوا القوات الألبانية وقتلوا خيرة رجال اسكندر بك وكثيراً من جنود نابولى الذين كانوا يساعدونه.

وفي مايو ١٤٥٦ قاد مويس جيشاً عثمانياً، بغية القضاء على اسكندر بك، ولكنه فشل في مهمته. ولما قرر بعدها العودة إلى بلاده، طلب العفو من اسكندر بك، فقبل اسكندر تراجعه وخضوعه.

وجد ملك نابولى أن الألبان لا يقدرون على مواجهة العثمانيين، فأقنع البابا بأن ينادي أوروبا لكي تغيثه، فأرسلت إليه فرنسا وألمانيا والصرب بعض القوات لمساعدته.

لم تكد تهدأ نفس اسكندر بك القائد العنيد، حتى فر ابن أخته حمزه بك والتجأ إلى العثمانيين، ثم قام بتحريضهم على قتال خاله. تحرك الجيش العثماني تحت قيادة اسحق بك وكان يرافقه حمزه الذي يعرف بلاده جيداً. وقد أشار حمزه على اسحق بالتوجه إلى العاصمة كرويا مباشرة. ولكن اسكندر بك خشي

أن تسقط العاصمة في يد العثمانيين، فتحصن عند بحيرة ألبولينا في انتظار الجيش العثماني. ودارت بين الفريقين معركة في سبتمبر ١٤٥٧م، أوهم فيها اسكندر العثمانيين بأنه هُزم وفر أمامهم فتعقبوه. فلقيهم في الجبال التي يجيد الحرب فيها، وأنزل بهم هزيمة منكرة، وأسر ابن أخته، ثم أرسله إلى نابولي. وقد لقب البابا كاليكست الثالث اسكندر بك بـ "القائد العام للمقام المقدس" بسبب انتصاره في معركة ألبولينا.

وبعد موت ألفونس ملك نابولي ١٤٥٨م، لم يعد هناك حام ولا نصير لاسكندر بك. وقد طلب البابا پی الثاني منه مساعدة فرديناند بن ألفونس على تولى العرش. كما أن أحداث الموره والصراع مع البندقية والقلاقل المستمرة في آسيا الصغرى كانت تشغل بال الفاتح وتقلق راحته. فقرر عقد الصلح مع ألبانيا، حيث لم تعد هناك فائدة من استمرار المعارك مع اسكندر بك لوعورة بلاده الجبلية. وهكذا انتهت المفاوضات بعقد الصلح سنة ١٤٦١م (٨٦٥هـ)، لكي يتفرغ كل منهما لمشاغله.(١)

لم يدم الصلح أكثر من ثلاث سنوات، حتى شرع اسكندر بك بعد عودته من إيطاليا في نقضه، بناء على إلحاح من البابا پی الثاني. وقد قام البنادقة بالاتصال بالألبان للتحالف معهم ضد العثمانيين الذين استولوا على مدينة أرجوس التابعة لهم في الموره، كما أن المجر اتفقت مع اسكندر بك على محاربة العثمانيين.

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt 2, s.65-67.

تحرك الجيش العثماني تحت قيادة "**بالابان باشا**" الألباني (**الذي أبلى بلاء حسناً في فتح القسطنطينية**) واصطدم بالجيش الألباني. وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من إحراز النصر على اسكندر بك، إلا أنه تمكن من أسر ثمانية من كبار قواده. ثم عاود "**بالابان**" الكرة على الألبان مرة أخرى وضيق عليهم الخناق، إلا أن بعض قواد اسكندر بك تمكنوا من إنقاذه من أسر محقق. وفي نفس العام أي في ٩ أغسطس ١٤٦٤م عاد "**بالابان**" للهجوم على اسكندر بك، إلا أن الزعيم الألباني تمكن من إنزال الهزيمة به. وعلى الرغم من ذلك عاد "**بالابان**" لدخول ألبانيا، كما دخل يعقوب الألباني على رأس جيش عثماني آخر. ولكن اسكندر بك تمكن من إنزال الهزيمة بهما كل على حدة. ولهذا قرر الفاتح التحرك على ألبانيا بنفسه.

دخل الفاتح ألبانيا في يونيو ١٤٦٥م (ذي القعدة ٨٧٠هـ)، وتمكن بسرعة من الاستيلاء على بعض القلاع، ثم تحرك حتى وصل إلى كرويا، وضرب حولها نطاقاً من الحصار. ثم وجد أن الحصار سيطول، فترك مكانه لبالابان، وعاد هو إلى استانبول. وجد اسكندر بك أنه لا قبل له بالعثمانيين، فترك الدفاع عن كرويا لأحد القواد الإيطاليين، ثم خرج منها إلى روما لطلب العون من البابا. ولكن البابا بول الثاني، كان يعاني من ضائقة مالية، فأعطاه مالاً قليلاً ودعا له. توجه اسكندر بعد ذلك إلى نابولي، فساعدته بالمال. عاد اسكندر بك في أبريل ١٤٦٧م، فوجد بالابان لا زال يحاصر كرويا، فانقض عليه فجأة وهزمه وقتله، فتفرق الجيش العثماني.[١]

---

(١) أنظر: صولاق زاده تاريخي: ص٩٥-٩٧.

علم الفاتح بهذه النتيجة السيئة، فقرر مواجهة اسكندر بك بنفسه. تحرك السلطان العثماني في ربيع سنة ١٤٦٧م، ودخل ألبانيا بالقرب من قلعة ألبسان، وأمر الجنود بتخريب بعض القلاع، والاستيلاء على بعضها الآخر، فاضطربت أحوال اسكندر.[١] وقرر الدفاع عن كرويا بكل ما أوتي من قوة، ولكن المنية عاجلته في ١٧ يناير ١٤٦٨م (جمادى الثانية ٨٧٢هـ). وجاء بعده ابنه جان، وكان صغيراً لا يقدر على الحكم بمفرده. فتصارعت البندقية ونابولي على النفوذ في ألبانيا. وفي هذه الأثناء، عاد الفاتح إلى استانبول لكثرة مشاغله، بعد أن صمم على إعادة الكرة على ألبانيا عندما تسمح الظروف.

عندما قرر الفاتح إرسال الصدر الأعظم كديك أحمد باشا ١٤٧٨م (٨٨٣هـ) لفتح إشقودره، قدم الصدر الأعظم الأعذار وأبدى عدم رغبته في الذهاب إلى ألبانيا نظراً لما سمعه من أحداث المعارك السابقة، فعزله الفاتح وحبسه في قلعة الروملي، وقرر الذهاب بنفسه لحسم موضوع ألبانيا.

دخل الفاتح ألبانيا، وأرسل أحمد بن أورنوس وعمر بن طُراخان على رأس القوات لفتح كرويا التي آلت إلى البنادقة بعد موت اسكندر. وقد ترك البنادقة لأمير البحر لوريدانو مهمة الدفاع عن المدينة، فأرسل إليها قوة، تمكن العثمانيون من قهرها وفتح المدينة في أواسط يونيو ١٤٧٨م (ربيع الأول ٨٨٣هـ). وبعد ذلك أمر الفاتح أحمد بن أورنوس بفتح إشقودره، ثم عاد هو إلى استانبول. وبعد عودته بستة أشهر تمكن أحمد من فتح المدينة في ١٤٧٩م.[٢] وهكذا تمكن العثمانيون من فتح معظم ألبانيا[٣].

---

(١) تاج التواريخ: م١ ، ص٥١٠.

(٢) تاج التواريخ: م١ ، ص٥٦٥.

(٣) انظر خريطة "الأرناءوط" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (١٢).

(ب) وجه السلطان العثماني نظره بعد ألبانيا إلى الإمارتين الرومانيتين: الأفلاق والبغدان.[1]

ومن الجدير بالذكر أن السلطان بايزيد الأول فتح الأفلاق ١٣٩٣م (٧٩٥هـ). لكن حاكمها مرشا الأول انضم إلى الصليبيين في حربهم ضد العثمانيين في معركة نيكوبوليس ١٣٩٦م (٧٩٨هـ). وبعد موقعة أنقره ١٤٠٢م (٨٠٤هـ) أعلن أمير الأفلاق استقلاله عن الدولة العثمانية. وقد تمكن محمد الأول من إعادة الأفلاق إلى الحكم العثماني ١٤١٦م (٨١٩هـ).

وبعد عامين توفى مرشا الأول، وقد تمكن ابنه دراكولا أشهر حاكم قاس وسفاك للدماء في التاريخ من تولي العرش بعده.

قام دراكولا بعقد معاهدة صلح مع السلطان محمد الفاتح ١٤٦٠م (٨٦٤هـ)، لكي يضمن حماية الدولة العثمانية له نظير دفع الجزية. ولكنه لم يحترم المعاهدة، وقام بالتحالف مع ملك المجر ماتياس كورفان ضد الدولة العثمانية. فقرر السلطان فتح الأفلاق وإرجاعها للحكم العثماني. وقد تحقق للعثمانيين الاستيلاء على بوخارست ١٤٦٢م (٨٦٦هـ)[2]. ثم استعاد دراكولا الحكم مرة أخرى، إلى أن غافله أحد عبيده وقتله سنة ١٤٧٩م، فأعاد العثمانيون سيطرتهم على الأفلاق مرة أخرى.[3]

---

(١) يقول عنهما الأوروبيون: ولاشيا ومولدافيا.

(٢) يسميها العثمانيون بُكْرَش.

(٣) تاريخ أبو الفتح، ص١٠٩.

أما البغدان فقد تولى حكمها في الفترة من ١٤٥٦ ــ ١٥٠٤ استيفان، وكان عنيداً رفض دفع الجزية المفروضة عليه من قبل الدولة العثمانية، فأرسل إليه الفاتح جيشاً ١٤٧٥م (٨٨٠هـ) بقيادة سليمان باشا الخادم. وقد تمكن استيفان من إلحاق هزيمة ساحقة بالجيش العثماني، رفعت شأنه في العالم المسيحي. ولهذا قاد الفاتح الجيش بنفسه ١٤٧٦م (٨٨١هـ)، والتقى مع الأمير البغداني في الأحراش، وتمكن من إلحاق الهزيمة به بشق الأنفس.(١) وتقدم الجيش العثماني بعد ذلك في الأراضي البغدانية، وأخذ يستولي على بعض المناطق. إلا أن ظهور وباء الطاعون بين الانكشارية جعل السلطان يسحب جنوده على الفور من البغدان، بعد أن قضى بها شهرين تقريباً.(٢)

(٥) الحرب مع البندقية:

بعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية، وُفقوا في حروبهم في ألبانيا والبوسنة والموره والجزر، وتمكنوا من الاستيلاء على إمبراطورية طرابزون وإمارة جاندار ودولة القرمان وإمارة علائية، فجر عليهم هذا كله حقد بعض الدول في الشرق وفي الغرب. ففي الشرق كان الآق قيونلية وفي الغرب كانت جمهورية البندقية وملك نابولي وملك المجر وعلى رأسهم جميعاً البابا. كما كان هناك اسكندر بك وفرسان رودس أيضاً.

وبعد أن استولى الفاتح على شبه جزيرة الموره ١٤٦٠م (٨٦٤هـ)، شعرت البندقية بالخطر على مراكزها في شواطئ الموره. فأخذت تعسد العدة

(١) صولاق زاده تاريخي، ١٢٠.
تاج التواريخ، ١١٢.

(2) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt2, s.80.

للصدام مع العثمانيين. أعدت البندقية أسطولاً بقيادة لويس لوريدانو وجيشاً برياً بقيادة برتولدو ديست Bertoldo d`Este. هاجم الجيش البري بعض قلاع الموره ١٤٦٣م (٨٦٨هـ) واستولى عليها من يد العثمانيين، كما هاجم الأسطول بعض الشواطئ بالموره واستولى عليها أيضاً. ثم تقدم جيش البندقية للاستيلاء على كورنته أقوى مدينة في يد العثمانيين، ولكنه لم يوفق، وقُتل قائده فعاد خاسراً. وتمكن العثمانيون سنة ١٤٦٤م بقيادة محمود باشا من استرجاع بعض المدن والقلاع التي كان البنادقة قد استولوا عليها مثل أرجوس وبتراس واسبرطه.

وفي ١٤٧٠م (٨٧٥هـ) هاجم العثمانيون جزيرة نيجربون التابعة للبنادقة، واستولوا عليها. فطلب البنادقة التحالف مع أوزون حسن ضد الدولة العثمانية، ولكن الحلف كان مفككاً.

وتتابعت بعد ذلك الغارات التخريبية البندقية على شواطئ آسيا الصغرى ١٤٧٢م (٨٧٧هـ)، خاصة على أنطاليا، ولكن دون جدوى. وفي ١٤٧٩م (٨٨٣هـ) بعثت البندقية رسولها جيوفاني داريو لتوقيع الصلح مع الدولة العثمانية. وقد وافقت البندقية بموجب المعاهدة على التخلي عن أرجوس ونيجربون ولمنوس ومعظم ألبانيا، ما عدا بعض الشواطئ، ودفع جزية سنوية.[1]

(٦) القرم:

كان الجنويون منذ أكثر من قرنين قد أقاموا لأنفسهم مستعمرات في شواطئ القرم وفي بعض قلاعها. وكانت كفه أهم قلاعهم في الشرق.

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt 2, s. 111-125.

توفى خان القرم حاجى گراى ١٤٦٧م (٨٧١هـ)، فتنازع أبناؤه على العرش. وقد نجح منكلى كَراى في تولي العرش بمساعدة جنويي كفه. وكافأ الخان الجديد الجنويين على مساعدتهم له، بأن جدد معهم المعاهدات التي تتيح لهم الاستمرار في السيطرة على كفه.

وفي ١٤٧٣م (٨٧٨هـ) توفى الحاكم التترى ماماك الذي كان ينظر في أحوال التتر المقيمين في كفه وما حولها، وتولى بعده أخوه أمينك. ولم يرض كبار رجال التتار على تدخل خان القرم في تعيين والٍ آخر على كفه، ودعوا السلطان محمد الفاتح للاستيلاء على المستعمرات الجنوية بالقرم. فأمر السلطان كديك أحمد باشا بقيادة الأسطول إلى شبه جزيرة القرم. وصل القبطان العثماني إلى كفه في ١٤٧٥م (٨٨٠هـ)، وتمكن من الاستيلاء عليها في ثلاثة أيام. ولم يجد العثمانيون صعوبة كبيرة في فتح بقية بلاد القرم. وبعد الفتح عفا السلطان عن منكلى كَراى، وعينه خان القرم من قبله.

وبعد فتح القرم، وسيطرة الأسطول العثماني على البحر الأسود، أصبح هذا البحر بحيرة عثمانية دون منازع.[1]

(٧) حصار رودس:

تشكل جزيرة رودس دون شك أهمية بالغة بالنسبة للعثمانيين، حيث تقع في بحر ايجه بالقرب من الشواطئ العثمانية. كما كانت هذه الجزيرة موئلا لقراصنة أوروبا. وبعد أن انتهى الفاتح من دخول القسطنطينية، أرسل إلى رئيس

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt2, s. 129-132.

فرسان القديس يوحنا برودس وهو جان دى لاستيك، رسوله لطلب الجزية، فرفض رئيس الفرسان هذا الطلب في كبرياء.

وفي ١٤٦٧م تولى بيير دوبسون رئاسة الفرسان. وكان فارساً نشيطاً استطاع أن يتحالف مع كثير من الدول المسيحية ضد الدولة العثمانية، كما لم يتوان عن السعى نحو الاستعداد المستمر للقتال مع العثمانيين.

أرسل السلطان قائده مسيح باشا **(من أصل رومي)** على رأس أسطول كبير إلى رودس ١٤٨٠م (٨٨٥هـ). ورغم الجهود الهائلة التي بُذلت لم يتمكن مسيح باشا من فتح الجزيرة. ومني العثمانيون بخسائر فادحة، وارتدوا عنها.[١]

(٨) الحرب مع إيطاليا:

زادت المعاهدة التي وقعتها البندقية مع الدولة العثمانية العداء بين البندقية وبقية دول إيطاليا، خاصة جنوه ونابولى. ولم يخف البابا سيكست الرابع غضبه وغيظه من المعاهدة أيضاً.

وجد الفاتح الفرصة مهيأة أمامه لفتح بعض المدن والقلاع في إيطاليا، بعد أن قدمت نابولى بعض سفنها لمساعدة رودس. وقد كانت العداوة بين دول إيطاليا عاملاً مشجعاً على الإقدام على هذه الخطوة. قام الأسطول العثماني بالاستيلاء على جزر زنتا وكورفو وسانتامورا وكفالونيا في ١٤٨٠م (٨٨٥هـ). ثم تقدم كديك أحمد باشا بعد ذلك واستولى على مدينة أوترانتو[٢].

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Escr, cilt 2, s. 137-140.

(٢) انظر خريطة "الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم(١٣).

وغادر بعدها ميدان المعركة سراً إلى استانبول، حيث قابل السلطان ورجاه أن يتحرك بنفسه إلى إيطاليا لكي يرى ما فعله، ويكمل الشوط بنفسه. ولكن المنية كانت أسرع من ذلك، فقد توفى الفاتح العظيم ١٤٨١م (٨٨٦هـ) [١].

العلاقات العثمانية المملوكية في عهد محمد الثاني:

ظلت العلاقات حسنة بين العثمانيين والمماليك في عهد محمد الثاني. فلما علم چقمق أن السلطان محمد الثاني أرسل جنده لتأديب بعض حكام شرق الأناضول الذين يقطعون طرق التجارة وينهبون الأموال ويستبيحون قتل الأنفس، أرسل إليه رسالة شكر وتقدير على ما قام به خدمة للمسلمين.[٢]

وفي ٢ صفر ٨٥٦هـ كتب السلطان محمد الثاني رده على هذه الرسالة، وأرسله من العاصمة العثمانية في ذلك الوقت وهي أدرنه إلى القاهرة. والرسالة مليئة بالمدح والثناء والدعاء لسلطان المماليك. وفيها يقدم السلطان العثماني نفسه على أنه بمنزلة الابن بالنسبة لچقماق، حيث يقول: **"ومن تتمة حديث المحبة الجاري على ألسن الأحبة، أن نسبة الجناب السلطاني الأعظمي هذا المحب نسبة الأب العطوف. وإن شئت قلت نسبة مولى الموالى إلى مولى هو أطوع الموالى".**[٣]

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt 2, s. 133-147.

بلغت مساحة الدولة العثمانية عند وفاة الفاتح، خلال الثمان والعشرين سنة الأخيرة من حكمه، أي منذ فتح القسطنطينية ١٤٥٣م وحتى وفاته ١٤٨١م: ٢٢١٤٠٠٠كم٢ ، منها ١٧٠٣٠٠٠كم٢ في أوروبا ، ٥١١٠٠٠كم٢ في آسيا. ومساحة القرم وحدها ٩٨٢٠٠٠كم٢ أضيفت إلى مساحة أوروبا.
(Yılmaz Öztuna: Adigeçen Eser, cilt4, s. 107)

(٢) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٣٧٤ب ــ ٣٧٦.

(٣) أحمد فريدون: نفس المرجع، ورقة ٣٧٦أ ــ ٣٧٨ب.

وبعد أن تم فتح القسطنطينية، احتفلت القاهرة بهذا النصر العظيم فزينت الأسواق والشوارع وأوقدت الشموع ودقت طبول النصر. وأرسل السلطان العثماني رسائل الفتوح الإسلامية لبعض الحكام المسلمين، يبشرهم بالنصر. فأرسل لإينال سلطان المماليك ١٤٥٣ــ١٤٦١م (٨٥٧ــ٨٦٥هـ) رسالة يشرح له فيها ما حدث. ويصف إينال في رسالته بأنه بمنزلة الأب،[١] مما يدل على مدى التبجيل والاحترام الذي خص به ابن عثمان سلطان المماليك. يقول السلطان العثماني عن فتح القسطنطينية: "**جهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً.**

فكأنها حصف على الخد الأغر : وكأنها كلف على وجه القمر

وهي محصنة صعب المرام شامخة الأركان راسخة البنيان مملوة من المشركين الشجعان خذلهم الله أينما كانوا وهو مستكبرون على أهل الإيمان متناصرون بالجزاير الغربية مثل رودس وقطلان ووناديك وجنويز وغيرهم من أهل الشرك والطغيان وحصن مسدد مشدد مشيد متسق النظام وما ظفروا[٢] به أسلافنا العظام هؤلاء السلاطين الأساطين الفخام مع أنهم جاهدوا حق الجهاد ولم ينالوا بها نيلاً.. و نزلنا عليها في السادس والعشرين من ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمائة.. ودار بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يوماً وليلة.. فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من شهر جمادى الأول هاجمنا مثل النجوم رجوماً لجنود الشيطان.. قد من الله تعالى

(١) كان إينال في الثانية والسبعين من عمره في ذلك الوقت، وكان محمد الثاني في الثانية والعشرين.

(٢) هكذا كتبت في الوثيقة.

بالفتح.. وأول من قتل وقطع رأسه تكفورهم اللعين الكنود فأهلكوا كقوم عاد وثمود.. وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام وتشرفت الخطة بشرف السكة والخطبة".

وقد أرسل الفاتح مع رسوله "هدية يسيرة من الأسارى والغلمان والأقمشة وغيرها" ليدلل على عظمة فتحه وانتصاره على "**الكفار**".[1]

وفي ٢٠ ذي القعدة سنة ٨٥٧هـ أرسل إينال رده على رسالة الفاتح مع قاصده برسباي الأشرفي: هنأ السلطان المملوكي السلطان العثماني في رسالته بالفتح "**الذي ادخره الله لأيام سعده وهذا النصر الذي من الله تعالى به على المسلمين**". وأرسل إليه هدية "**ليؤكد أسباب الوداد والمحبة ويوثق عرى الاتحاد والصحبة كما هو دأب السالفين الأقدمين من الحكام والسلاطين**".[2]

وفي سنة ١٤٥٦م وصلت إلى القاهرة سفارة عثمانية، برسالة تنبئ عن انتصار محمد الثاني على الصربيين، في وقعة نوفوبردا وغيرها من الوقعات الدامية ببلاد يوغوسلافيا الحالية. وأرسل إينال رداً مشابهاً. وقبل أن يتحرك الأمير المملوكي قاني بك، وهو الذي كلفه إينال أن يحمل هذا الرد إلى البلاط العثماني، شاع بالقاهرة نبأ وفاة محمد الثاني، ثم ظهر كذب هذا النبأ.[3] فأمر إينال بدق البشائر السلطانية بالقلعة ثلاثة أيام. ثم سافر قاني بك إلى القسطنطينية، ورجع سنة ١٤٥٧م محملاً بالهدايا الكثيرة.[4]

---

(١) احمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٣٣٨أ ــ ٣٤٠ب.

(٢) احمد فريدون: نفس المرجع، ورقة ٣٤٠ب ــ ٣٤٢ب.

(٣) جرح السلطان محمد الفاتح في فخذه أثناء محاولته فتح بلغراد، فشاع نبأ وفاته.

(٤) د. محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص٢٠٢.

ولكن العلاقات بين الدولتين بدأت تسوء، منذ أن تولى خشقدم حكم المماليك ١٤٦١ـ١٤٦٧م (٨٦٥ـ٨٧٢هـ)، نظراً لتضارب مصالح الدولتين في مناطق شرق الأناضول وجنوبه. فقد بدأ العثمانيون يولون اهتمامهم إلى الأناضول ويتدخلون في شئون بعض الإمارات التي كانت مشمولة بحماية المماليك كإمارتي ذولقادر[1] وقرمان،[2] لكن الأجل لم يمهل خشقدم للرد على هذا التدخل.

ظلت العلاقات بين قايتباى ١٤٦٨ـ١٤٩٦م (٨٧٢ـ٩٠١هـ) ومحمد الثاني متوترة، نظراً للمنافسة التي اشتدت بينهما على التدخل في شئون الإمارتين المذكورتين. وكان الموقف ينذر بالخطر بين الطرفين.

قانون وراثة العرش:

لم يكن لوراثة عرش السلطنة العثمانية قانون ثابت يُتبع عندما يموت السلطان الحاكم أو يُعزل أو يعتزل. وهذا ما أدى إلى تصارع الأمراء على العرش منذ نشأة الدولة العثمانية، باستثناء الأمير علاء الدين وأخيه السلطان أورخان. وقد قُتل كثير من الأمراء نتيجة لإعلانهم العصيان، أو للشك في احتمال قيامهم بتمرد، أو محاولة الاستقلال ببعض مناطق البلاد؛ أو سملت عيونهم لكي يقعدوا عن الحركة. وقد أعلن بعضهم العصيان على أبيه.

---

(١) تُكتب في كتب التاريخ العثماني ذو القدر، وفي كتب التاريخ العربية ذو لقادر، دلقادر، ذو لغادر، دلغادر. ولكن ذو لقادر أقرب إلى الصواب في ظني نظراً لاتفاقها مع لهجة تلك المنطقة من الترك.

(٢) قرمان أو قرامان أو قره مان.

وبعد أن اعتلى محمد الثاني العرش، أصدر قانونه المعروف بـ (قانوننامه' آل عثمان) وأجاز فيه للسلطان قتل إخوته من الأمراء حفاظاً على نظام السلطنة. ونص المادة الخاصة بوراثة العرش والتي وردت تحت عنوان "في بيان تنظيم القانون الخاص بشئون السلطنة"، وهو: "فلتكن السلطنة في متناول جميع أبنائي، وقد أجاز معظم العلماء للسلطان منهم قتل جميع إخوته الباقين حرصاً على نظام العالم. ولهذا فليعملوا بهذا القانون".[1]

وقد ظل هذا القانون معمولاً به إلى عهد محمد الرابع ١٦٢٣ــ١٦٤٠م (١٠٣٢ــ١٠٤٩هـ)، ثم غُير هذا القانون وأصبح العرش لأكبر أفراد الأسرة الحاكمة سناً.

أدى عدم وجود نظام ثابت لوراثة العرش إلى تصارع الإخوة طمعاً في الحكم أو حرصاً على الحياة. فبمجرد أن يعتلي أحدهم العرش يقيم المذابح لإخوته خوفاً من منافستهم أو تمردهم أو تآمرهم. لقد ولّد هذا الرعب صراعاً مستميتاً على الفوز بدست السلطنة، فمن لم يفز به فمصيره القتل، ولو لم يكن لديه أي طموح في تولي العرش. وأكبر صراع بين الإخوة من الأمراء شهده التاريخ العثماني، واستمر أحد عشر عاماً من ١٤٠٢ــ١٤١٣م (٨٠٥ــ٨١٦هـ)، حدث بين أبناء بايزيد الصاعقة، سليمان ومحمد وموسى ومصطفى بعد معركة "چوبوق أووه" قرب أنقرة التي هزم فيها تيمورلنك بايزيد الأول في ٢٠ يوليو ١٤٠٢م (١٩ ذي الحجة ٨٠٤هـ) وأسره.

---

(١) قانوننامه' آل عثمان، ص٢٧ استانبول ١٣٣٠هـ.
نص المادة بالتركية، وهو كيمسنه أولادمدن سلطنت ميسر أوله قرنداشلريني نظام عالم ايچون قتل ايتمك مناسبدر. أكثر علما دخي تجويز ايتمشدر آنكله عمل أوله لر.
انظر: Zuhuri Danişmend: Adigeçen Eser cilt 4, s. 211-222

وبعد أن سن الفاتح قانونه، سيطر الفزع على نفوس الأمراء، فتمكن بعضهم من الهرب إلى ممالك مجاورة خوفاً على حياتهم، أو نتيجة لإغراء حكام هذه الممالك لهم بالعمل على مساعدتهم في تولي العرش، أو بسبب خلافات دامية على الحكم. وقد أدى إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين من الإعدام والسجن أو خوفاً من العقاب، إلى تأزم العلاقات بين العثمانيين والمماليك، لأن سلاطين العثمانيين كانوا يخافون على عروشهم من منافسة هؤلاء الفارين.

• • •

وبموت أبي الفتح تنتهي المرحلة التي تحولت فيها الدولة العثمانية إلى إمبراطورية مترامية الأطراف. وتبدأ مرحلة جديدة تُعتبر بحق العصر الذهبي لامبراطورية آل عثمان.

والشيء الذي يسترعي الانتباه أكثر بالنسبة للعثمانيين، هو أنهم كانوا قليلي العدد، وبنوا إمبراطورية واسعة في وقت قصير. وقبل أن ينتهي قرن ونصف القرن من عمر دولتهم، صارت من أقوى القوى في العالم.[١]



(1) Halide Edib: Op. Cit., P. 10.

الفصل الرابع

فترة العصر الذهبي

١٤٨١ـ ١٥٩٠م (٨٨٦ ـ ٩٩٨هـ)



تدخل الدولة العثمانية في مرحلة العصر الذهبي فترة من الازدهار والتقدم، وتبلغ أقصى قوتها. ففي هذه المرحلة تتجه الفتوحات العثمانية نحو الشرق والجنوب أيضاً، وتتوسع فيهما توسعاً هائلاً، بالإضافة إلى فتوحاتها العظيمة في الغرب. ثم تبلغ قوتها أقصى مدى بلغته، حيث توالت الانتصارات الكبيرة على القوى الموجودة في المناطق المذكورة، وأصبحت لها السيادة في تلك الأرجاء. كما أصبحت لها السيطرة الكاملة على البحر الأبيض المتوسط.

الصراع بين بايزيد الثاني والأمير جَمْ على العرش:

أنجب السلطان محمد الفاتح ولدين، أحدهما اعتلى العرش من بعده وهو بايزيد الثاني (١٤٨١ـ١٥١٢م = ٨٨٦ـ٩١٨هـ)[١]، والآخر وهو الأمير جَمْ[٢] نازع أخاه على العرش، لأنه كان يعلم أن القانون الذي سنه أبوه سيطبق لأول مرة حفاظاً على استقلال السلطنة ومنعاً للفتنة. وقبل أن يموت الفاتح كانت تراود الأمير أحلام العرش، فلما تمكن أخوه الأكبر بايزيد من الفوز بعرش السلطنة؛ جمع "جم" جيشاً في قونيه وتحرك على رأسه قاصداً بروصه. وقد تمكن إياس باشا بمعاونة ألفين من الجنود العثمانيين من صد هجوم الأمير في البداية، لكن الأمير جم استطاع أن يستولي على بروصه في مايو ١٤٨١م، وقُرئت الخطبة له فيها كسلطان وضُربت السكة باسمه، وأعلن نفسه حاكماً على المناطق المجاورة أيضاً. لم يهدأ لجم بال، فأرسل إلى أخيه وفداً مكوناً من سلجوق خاتون ابنة السلطان محمد چلبى ومولانا إياس وأحمد چلبى بن شكر الله

(١) عندما اعتلى بايزيد العرش، طلب منه الانكشارية توزيع المنح والهبات على الجند ابتهاجاً بتعيينه، فأجابهم إلى طلبهم. وصارت هذه سنة لكل من تولى بعده، إلى أن أبطلها السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤م) (١١٨٧هـ). (محمد فريد: المرجع السابق، ص٦٨).

(٢) يكتب اسم جم في الكتب العربية المعاصرة للفترة "جَنْجَمه".

لكي يعرضوا عليه اقتراحاً بتقسيم السلطنة، على أن يكون جم حاكماً على الأناضول وبايزيد سلطاناً على الروملي؛ لكنه لم يستجب لهذا النداء.

استمر حكم الأمير في بروصه ثمانية عشر يوماً، ثم تركها هارباً إلى "يني شهر" لهجوم جيوش السلطان المكثف عليه. توجه جم إلى قونيه، ولما حس باقتراب الجيوش نحوه تركها في ٢٨ يونيو ١٤٨١م، واتجه جنوباً حيث سلطنة المماليك. عبر جبال طوروس ووصل إلى طرسوس ثم أذنه، وتوجه بعد ذلك إلى سوريا. طلب جم من أمير حلب أن يبلغ قايتباي برغبته في اللجوء إليه ومعه ثلاثمائة محارب من أتباعه، فوافق سلطان المماليك على استقباله في القاهرة متى وصل إليها.

عندما وصل الأمير إلى حلب في ١٩ يوليو من نفس العام، علم بايزيد الثاني بعبوره إلى الأراضي المملوكية، فأرسل إلى علاء الدين ذولقادر أمراً بالقبض على الأمير إن صادفه فيما بعد.

وصل جم إلى مصر في ٢٥ سبتمبر ١٤٨١م، فاستقبله قايتباي استقبالاً حافلاً، وعامله معاملة أبنائه، وبعد مدة من الزمن أرسل الأمير خطاباً إلى أخيه يطلب منه بعض المناطق في الأراضي العثمانية، لكنه رفض، واكتفى بتعيين راتب سنوي له قدره مائة ألف آقچه.(١)

ترك جم مصر في ١٠ ديسمبر من نفس العام وذهب إلى الحجاز مصطحباً معه أمه وزوجته لأداء فريضة الحج. ولما عاد إلى مصر في ١٢ مارس ١٤٨٢م، عاودته أحلام السلطنة مرة أخرى. وفي تلك الأثناء، أرسل إليه

---

(١) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٢٩١أ.

خلفاؤه من أمراء الأناضول ـ أمثال قاسم بك القراماني ومحمد بك حاكم أنقره وكذيك أحمد باشا حاكم لارنده ـ يستدعونه ويعدونه بالمساعدة.

طلب جم المساعدة من قايتباي لكي يتمكن من العودة إلى نيساره. عقد السلطان المملوكي مجلساً حضره كل أمرائه، وطرح عليهم الموضوع، فوافقوا بحجة أنه إذا حدثت اضطرابات في الأناضول فستكون في مصلحة المماليك، وعارض الأمير أزبك وحده رأيهم.

وبعد أن حصل جم على مساعدة قايتباي، ترك في مصر أمه وزوجته في ٢٧ مارس سنة ١٤٨٢م، ووصل إلى حلب في ٦ مايو، وفي يوم الأحد التاسع عشر من نفس الشهر دخل الأراضي العثمانية، فتجمع حوله زعماء الأناضول الذين وعدوه بالمساعدة. وفي ٦ يونية تم له حصار قونية، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها لقوة حصونها ودفاعها؛ فتوغل في الأناضول حتى وصل إلى أنقرة وحاصرها، إلا أن السلطان بايزيد تمكن من فك حصارها. أحس جم بالخطر يحيط به من كل جانب فهرب، وقرر اللجوء إلى إيران لكنه عدل عن فكرته في النهاية، وأرسل لأخيه رسولاً يطلب منه أن يترك له حكم بعض الألوية؛ لكنه رفض، وطلب منه أن يعيش في القدس مقابل راتب سنوي، فلم يوافق جم على ذلك.

اقترح قاسم بك على الأمير أن يذهب إلى الروملي، حيث يستطيع أن يطلب مساعدة ملك المجر، ولم يوافقه رغبته في اللجوء إلى العرب أو العجم.

استقر رأي جم أخيراً على أن يلجأ إلى جزيرة رودس لكي يساعده رئيس فرسان القديس يوحنا على دخول الروملي ومعاودة الثورة ضد أخيه.[1]

لجأ جم إلى رئيس الاسبتارية Hospitallers دوبوسون d`Aubusson فتوجس بايزيد الثاني خيفة مما قد يحدث في المستقبل، فعقد العزم على التفاوض مع دوبوسون لكي يحتفظ بالأمير عنده ويراقب تحركاته، نظير دفع خمس وأربعين قطعة ذهبية بندقية سنوياً. وافق رئيس الاسبتارية على ذلك، ثم استقر الرأي على ترحيله إلى فرنسا فقضى فيها سبعة أعوام انتقل بعدها إلى الفاتيكان ثم إلى إيطاليا في صحبة ملك فرنسا شارل الثامن.

وفي ٢٥ فبراير ١٤٩٥م (٢٩ جمادي الأولى ٩٠٠هـ) توفى جم في نابولي، فاستراح بايزيد الثاني من شره.

حروب بايزيد الثاني في أوروبا:

كان بايزيد الثاني ميالاً للسلم أكثر منه للحرب، محباً للعلوم الأدبية مشتغلاً بها. ولهذا سماه بعض مؤرخي الترك "بايزيد الصوفي". لكن دعته سياسة الدولة إلى ترك أشغاله السلمية المحضة والاشتغال بالحرب.[2] وكانت أول حروبه داخلية ضد أخيه جم كما رأينا.[3]

(1) Cavid Baysun: Cem Sultan, s. 15-31 Istanbul 1946

(٢) يطلق Shaw (ص٧٠) على عهد بايزيد الثاني Consolidation of the Empire أي مرحلة تماسك الإمبراطورية.

(٣) محمد فريدون: المرجع السابق، ص٦٨.

تراجعت جيوش محمد الفاتح بعد أن انتصرت على البغدانيين ١٤٧٦م، نظراً لمرض الطاعون الذي تفشى في الجيش. وقد أراد بايزيد الثاني أن يفتح البغدان، لكي يضمن للأسطول العثماني مجالاً أوسع على شواطئ البحر الأسود، الذي أصبح للعثمانيين ثلاثة أرباع شواطئه، على حد قول المؤرخ التركي إسماعيل حقي.[1]

بدأ بايزيد الثاني بالاستيلاء على مدينة كيلي Chilia مفتاح البغدان على البحر الأسود (١٥ يوليو ١٤٨٤م) (٨٨٩هـ)، وكانت تساعده قوات من الأفلاق والقرم. ثم استولى بعد ذلك على آق كرمان Cetatea Alba. وهكذا أغلق العثمانيون الطريق المؤدي بين البغدان والبحر الأسود باستيلائهم على كيلي وآق كرمان. وقد أدى هذا إلى تحرك أمير البغداد استيفان، لتخليص المدنيين من يد العثمانيين، وكسر الحصار الذي يمنع وصولهم إلى البحر الأسود. كلف السلطان علي باشا الخادم أمير أمراء الروملي ومعه أمير الأفلاق وقواته، بالتصدي لأمير البغدان الذي نهض لمنازلة العثمانيين.

لم يجد أمير البغدان أنه على درجة من القوة تمكنه من الوقوف ضد العثمانيين، فهرب إلى بولونيا (لهستان). وتم الاستيلاء على البغدان في (سبتمبر ١٤٨٥م) (٢٥ شعبان ٨٩٠هـ). عادت الجيوش العثمانية، ورجع بعدها استيفان إلى دياره ١٤٨٦م (٨٩١هـ). وعاودته أحلام استرجاع بلاده، فتعرض له أمير سنجق سلستره بالي بك ابن مالقوج بأمر من السلطان. وتمكن من إنزال الهزيمة به، رغم مساعدة قوات من المجر وبولونيا له. لم يجد أمير البغدان أمامه وسيلة،

---

(1) Dr. Ismail Hakki: Geçen Eser, cilt2, s. 181.

إلا التسليم بما حدث، والموافقة على أن يكون حاكماً علـــى بـــلاده مـــن قبـــل العثمانيين، بشرط دفع الجزية السنوية المقررة.

بعد أن فتح العثمانيون البغدان، أصبحت حدودهم تصاقب بولونيـــا، وقـــد أحس ملك بولونيا جون ألبيرت بالخطر، فقام بالاعتداء على البغـــدان (١٤٩٧م) (٩٠٢هـــ). ولكن القوات العثمانية بقيادة بالي بك ومعاونة أمير البغدان، تصدت للقوات البولونية المغيرة (١٤٩٨م) (٩٠٣هـــ)، وردتها على أعقابها. ثم تعقبتـــها في أراضيها واستولت على بعض المواقع والقلاع. ثم جاء موسم الشتاء، فعادت القوات العثمانية من بولونيا، بعد أن أوقفت خطرها على الأراضي العثمانية.[1]

توفى ملك المجر ماتياس كورفان (١٤٩٠م (٨٩٥هـــ)، ولم يكن له وريث شرعي، فتصارع الأمراء على العرش. وانتهز أمراء الحدود الفرصة، فـــأبلغوا الدولة العثمانية. تحرك بايزيد الثاني على رأس جيشه ١٤٩٢م قاصداً المجـــر، وأثناء الطريق راودته فكرة الانعطاف نحو ألبانيا إلى أن تواتيه الفرصة. دخـــل السلطان ألبانيا ١٤٩٢م (٨٩٧هـــ)، واستولى على بعض القلاع التابعة للبنادقـــة هناك، ثم عاد لسماعه باعتداء الشيعة على شرق الأناضول.

وُفقت فرنسا وألمانيا والبابا ونابولي وفلورنسا في تحريض الدولة العثمانية على البندقية، لوجود عداء شديد بينهم وبين البندقية. ولكن البندقيـــة أســرعت وأرسلت سفيرها إلى الدولة العلية، لتحاشي الصدام بين الطرفيـــن. إلا أن هـــذه المساعي باءت بالفشل، نظراً لتكرار مساعدة البندقيـــة لألبانيـــا ضـــد الدولـــة

(١) تاج التواريخ، م٢، ص٧٩ـ٨٥.

العثمانية. ورفض قبرص التابعة للبنادقة إيواء الأسطول العثماني الذي جنح على شواطئها بسبب العواصف، أثناء الحرب مع المماليك.

قرر الديوان العثماني فتح المستعمرات التابعة للبندقية في المورة. ولكي يتم للعثمانيين الاستيلاء عليها بسهولة، كلف السلطان اسكندر باشا حاكم البوسنة سنة ١٤٩٩م بالإغارة على شمال البندقية لشغلها.

تحرك القبطان كوچك داود باشا على رأس الأسطول قاصداً شواطئ المورة فوصل حتى مشارف "ليبانت" بصعوبة [١]، لهبوب العواصف الشديدة على سفنه. وأمر السلطان قوجه مصطفى باشا أمير أمراء الروملي بقيادة الحملة البرية على "ليبانت". وقد تمكن الجيش البري من السيطرة على المدينة وفتحها ١٤٩٩م.

ثم فتح العثمانيون ثغور مودون وكورون ونوارين (١٥٠٠م) (٩٠٦هـ).

استنجدت البندقية بأوروبا لمساعدتها على التصدي للعثمانيين الذين استولوا على الثغور الهامة التابعة لها في المورة. فأرسلت أسبانيا وفرنسا وصقلية قواتها لمساعدة البندقية. وقد رأت هذه القوات أن تقوم بمحاصرة جزيرة مديللي، لكي تشغل العثمانيين عن الاستيلاء على أملاك البنادقة. ولكن هذه المساعي باءت بالفشل، وتمكن العثمانيون من رفع الحصار عن الجزيرة.[٢]

(١) تحطم الأسطول العثماني في موقعة ليبانت البحرية في عهد سليم الثاني كما سيجيء شرحه، لسماها العثمانيون موقعة "اينه بختي" أي الحظ العاثر.

(٢) تاج التواريخ، م٢، ص١١٠.

ولما لم تجد البندقية أي ثمرة من التصدي للعثمانيين ، وقّعت معهم معاهدة صلح (١٥٠٢م) (٩٠٨هـ)، اعترفت فيها للعثمانيين بما استولوا عليه. وفي السنة التالية وقّعت معاهدة صلح من المجر لمدة سبع سنوات[١].

العلاقات العثمانية المملوكية في عهد بايزيد الثاني:

بدأت العلاقات العثمانية ـ المملوكية تسوء من جديد. فبعد أن تولى بايزيد الثاني عرش العثمانيين نازعه أخوه "جَم" على العرش. ولما لم يتمكن جم من التغلب على أخيه، هرب إلى مصر ١٤٨١م وطلب مساعدة قايتباي، فأمده سلطان المماليك بما أراد. تحرك الأمير العثماني على رأس جيش من حلب سنة ١٤٨٢م للاستيلاء على الأناضول وإرغام أخيه على التخلي عن العرش. ولهذا السبب ساءت العلاقات بين العثمانيين والمماليك إلى حد بعيد.

ظلت العلاقات سيئة بين العثمانيين والمماليك، وحدثت بينهما صدامات عسكرية على الحدود، أراد العثمانيون بها الانتقام من المماليك لإيوائهم الأمير جم. وقد كان النصر في هذه المعارك في صالح المماليك.

بدأ أول صدام مسلح بين الطرفين باعتداء قام به علاء الدولة أمير ذولقادر ومعه بعض الفرق من جنود العثمانين (١٤٨٣م) (٨٨٩هـ) على الحدود المملوكية، فتصدى تمراز الشمسي للمعتدين واستطاع أن ينزل بهم هزيمة فادحة، وأسر جنداً كثيراً من قوات العثمانيين. وعلى الرغم من انتصار المماليك فقد آثر قايتباي حقن الدماء، وأرسل قاصده أمير آخور الثاني جاني بك حبيب

(١) انظر خريطة "الإمبراطورية العثمانية حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادي" ضمن قسم الخرائط واللوحات رقم (١٤).

(١٤٨٥م) (٨٩٠هـ) ليعقد الصلح مع العثمانيين ويقدم للسلطان العثماني تقليد الخليفة العباسي بأن يكون بايزيد سلطاناً على بلاد الدولة العثمانية وما سيفتحه من "البلاد الكفرية".

التقى القاصد بعد أن عبر الحدود المملوكية ـ العثمانية، بعلاء الدولة أمر ذولقادر. فاستوقفه الأمير المذكور وأرسل ما معه من رسائل وأخبار إلى الصدر الأعظم مع مصلح الدين بك لكي يعرضها على السلطان، وحمله رسالة شخصية إلى الصدر الأعظم، قال فيها:

"عندما قدم إلينا عبدكم مصلح الدين بك، جاءنا شخص من الشام يُدعى خاير بك. وجاء قاصد الخليفة العباسي في مصر حاملاً معه رسالة. أخذ عبدكم المشار إليه الرسائل وحمل الأخبار وتوجه إلى خدمتكم لعرضها عليكم".[١]

ومن المحتمل أن تكون الخيوط الأولى لخيانة خاير بك المشهورة في تاريخ المماليك، قد بدأت منذ ذلك الوقت الذي عبر فيه الحدود المملوكية العثمانية دون علم قايتباي ورغم وجود عداء شديد بين الدولتين، واستمرت من بعد على شكل اتصالات سرية مستمرة بين خاير بك وبين بايزيد الثاني وابنه سليم من بعده.

لم يستجب بايزيد الثاني لنداء الصلح، وقام بالاعتداء على حدود المماليك المجاورة، فسير إليه قايتباي القائد أزبك في (١٤٨٥م) (٨٩٠هـ) . ودارت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة العثمانيين وأسر أحد قوادهم وهو أحمد بك ابن

(١) الرسالة محفوظة في أرشيف طوبقبو سرايي باستانبول، تحت رقم E.6201.

هرسك. وفي العام التالي عاود بايزيد المناوشات على الحدود، فأرسل إليه السلطان المملوكي أزبك مرة أخرى.

أرسل السلطان العثماني أسطوله إلى شواطئ الإسكندرونه،[١] إلا أن عاصفة هبت عليه فأغرقت معظم قطعه. ولم تنجح خطة بايزيد الثاني في قطع الطريق على أزبك الذي استمر في تحركه حتى وصل إلى أذنه واستولى عليها. لم يهدأ بال السلطان العثماني، فأرسل حملة ثالثة ١٤٨٧م بقيادة الصدر الأعظم داود باشا وأمير الروملي "خادم علي باشا" استولت على سيس وطرسوس وغيرها. وفي العام التالي التقى الجيشان في موقعة آغا چايرى فانتصر الجيش المملوكي. إلا أن قايتباي لم يجد الفرصة مواتية للتصدي للعثمانيين نظراً لثورة الجلبان عليه وسوء الأحوال الاقتصادية.

وفي مايو ١٤٨٩ (جمادي الثاني، رجب ٨٩٥هـ) جاء رسول من قبل العثمانيين يعرض الصلح، إلا أن الاتفاق لم يتم نظراً لعدم جدية المساعي العثمانية التي كان القصد منها الخديعة. فقد تأكد بايزيد الثاني من اضطراب الأحوال في مصر وعودة أزبك من حلب إلى القاهرة، ووجود فرصة مواتية للثأر من الهزيمتين السابقتين.

وفي أواخر عام ١٤٨٩م تجمعت لدى قايتباي المعلومات عن وجود حشود عثمانية قرب قيصرية، فأرسل قائده أزبك على رأس جيش للتصدي للعثمانيين. وقبل أن يحدث صدام بين الدولتين، أرسل القائد رسوله ماماى الخاصكى لبحث إمكانية عقد صلح مع العثمانيين بناءً على توصيات قايتباي. ولما لم يعد القاصد،

(١) تذكر إسكندرونه في الوثائق العثمانية بكلمة "إسكندرية"، راجع وثيقة رقم E.5693 ووثيقة رقم E.6671 بأرشيف طوبقبو سرايى باستانبول.

أدرك أزبك عدم رغبة بايزيد الثاني في عقد الصلح، فهاجم عساكر العثمانيين في كَولُكْ واستطاع أن يجليهم عنها، ثم استولى على كواره وعاد بعدها إلى القاهرة منتصراً في ١٤٩١م (المحرم ٨٩٦هـ).

لم يأمن قايتباي جانب العثمانيين، فأخذ يستعد لما عسى أن تأتي به الأيام. وأثناء عملية الاستعداد هذه قدم سنة ١٤٩١م (٨٩٦هـ) رسول من قبل بايزيد الثاني صحبة ماماى الخاصكى يعرض الصلح. قبل السلطان المملوكي الصلح، وعقده في أبريل ١٤٩١م (جمادي الثانية ٨٩٦هـ).

توفى السلطان قايتباي سنة ١٤٩٦م (٩٠١هـ)، فتولى العرش من بعده ابنه محمد (١٤٩٦ـ١٤٩٨م) (٩٠١ـ٩٠٤هـ). قام السلطان الجديد بإرسال خاير بك إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني، لكي يخبره بنبأ اعتلائه العرش حتى تظل علاقات الود قائمة بين الدولتين.

ظلت العلاقات حسنة بين العثمانيين والمماليك منذ وقّع الطرفان على الصلح في سنة ١٤٩١م وحتى نهاية عهد بايزيد الثاني ١٥١٢م. وخلال هذه الفترة اعتلى قانصوه الغوري عرش المماليك ، فزادت العلاقات بين الدولتين تحسناً، بدليل الرسائل الكثيرة والتحف والهدايا التي تبودلت بين الغوري وبايزيد الثاني.

أرسل بايزيد الثاني في أواسط صفر ٩٠٨هـ رسالة مع قاصده حيدر رئيس السلاّحين لتهنئة الغوري بالسلطنة جرياً على العادة القديمة بين الدولتين ،

"وذهاباً إلى المذهب المعروف، وتبعاً للرسم القديم، كما مر آنفاً وتقرر سالفاً".[1]

وقد أرسل قانصوه الغوري رده على رسالة بايزيد الثاني مصحوباً ببعض الهدايا والتحف مع أحد أمرائه الخاصكية ويدعى شجاع الدين هندوباي. وفي الرسالة يشكر الغوري الله سبحانه وتعالى على سلامة وجود السلطان العثماني، ويبين له أن سلفه قايتباي انعوج عن سبيل مصادقة بايزيد الثاني، أما هو فقد أزاح غطاء المنازعة وكشف عن وجوه المصادقة. وأصلح ما أفسده قايتباي، وأرجع العلاقات الطيبة بين الدولتين ونأى بها عن المعاداة.

ويبين سلطان المماليك في رسالته لبايزيد الثاني مخاطر فرق القزلباش[2] على مناطق الأناضول الشرقية واعتداءاتهم المتكررة **"وتوغلهم في صميم بلاد**

---

(١) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٤٨٩ب ــ ٤٩١ب.

(٢) القزلباش: اسم أطلقه الترك على تسع قبائل من التركمان كانت تلبس قلانس حمراء على الرؤوس، وهي: روملو وشاملو واستاجلو وتكه لو وذولقادر وأفشار وقاجار وورساق وصوفية قراباغ. والكلمة عبارة عن لفظين تركيين: الأول "قزل" ومعناه أحمر اللون والثاني "باش" ومعناه رأس. ومعنى الاصطلاح "أصحاب الرؤوس الحمراء".

استطاع الشيخ صفي الدين الأردبيلي وأولاده من بعده ــ بزعامتهم لجماعة المتصوفة والدراويش ــ جذب الكثير من المريدين ليس في إيران وحسب بل في الولايات التركية في آسيا الصغرى والشام والعراق العربي بتأثير دعاياتهم القوية. وكان التصوف قد بدأ يشق طريقه إلى المجتمع الإيراني في ذلك الوقت.

وقد تحولت فرقة الدراويش التي يتزعمها الشيخ صفي الدين إلى مركز مذهبي لبث الدعوة الشيعية. وكان لممارسة شيوخ الأسرة الصفوية للناحيتين الدينية والعسكرية معاً الأثر الكبير في إبراز قدرتهم ونفوذهم. وقد مهد الشيخ صفي الدين وابناه جنيد وحيدر المناخ لخليفتهم إسماعيل الصفوي الذي أعلن قيام الدولة مستفيداً من مركزه الروحي والمعنوي، ومستخدماً أفراد قبائل القزلباش الذين لا يهدفون لشيء سوى التضحية في سبيل نصرة شيخهم ومرشدهم الكامل. ولا يستطيع دارس للعصر الصفوي أن يتجاهل دور هذه القبائل في إيجاد الكيان الصفوي.

(أنظر القسم الأول الذي كتبه الدكتور أحمد الخولي في كتاب: تاريخ الصفويين وحضارتهم ص٣٧ ، ٣٨ ، ٤٢-٤٤. القاهرة ١٩٧٦).

الأمان وبوادى الترك وبحبوحة ديار قرامان وممالك الترك. وشروعهم في غض قبائلهم وهد معاقلهم، وسبى أطفالهم ونسوانهم".[١]

ولا أدل على حُسن العلاقات بين المماليك والعثمانيين، من أن بايزيد الثاني أرسل إلى الغوري رسالة يلتمس فيها العفو منه عن دولتباى حاكم طرابلس الشام لما ارتكبه من أخطاء، فأجابه الغوري إلى طلبه، وطلب منه أن ينصحه حتى لا ينحرف عن الطريق القويم مرة أخرى.[٢]

تأكدت الصداقة بين الدولتين أكثر بدليل الرسالة التي حث فيها الغوري بايزيد على محاربة القزلباش وعرض عليه المساعدة. ففي ٨ ربيع الأول ٩١٧هـ أرسل خاير بك رسالة إلى الصدر الأعظم، بناءً على أمر من السلطان المملوكي، أخبره فيها بوجوب محو **"فئة الصوفية الملاحدة القزلباش"** ومريديهم من **"الطائفة المخذولة الأوباش"** لأنهم يعيثون فساداً. وذكر له أنه أصدر أوامره إلى أمراء الحدود للاستعداد بجنودهم، لكي يلاقوا عساكر الدولة العثمانية، ويشتركوا معها في الحرب ضد القزلباش.[٣]

وتُطلق الوثائق التركية والعربية التي كتبها العثمانيون والمماليك في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) على إسماعيل الصفوي لقب "الصوفي" وعلى القزلباش لقب "الصوفية" وتصفهم بصفات مختلفة، منها: "الصوفية الملاحدة القزلباش" و"الطائفة المخذولة الأوباش" و"الأوباش القزلباش الملاعين" و"طائفة الملاحدة الملاعين" و"فرقة الملاحدة القزلباش لعاين الله عليهم" و"الطائفة الباغية دمرها الله".

(١) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٤٩١ب ـ ٤٩٤أ.

(٢) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٤٩٩أ ـ ٥٠٢أ.

(٣) الرسالة محفوظة في أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول، تحت رقم E.5483.

ظلت العلاقات حسنة بين الدولتين طالما لم يكن هناك تدخل من جانب إحداهما في شئون الإمارات التي تقع بينهما والتي كان بعضها مشمولاً بحماية المماليك والبعض الآخر مشمولاً بحماية العثمانيين. وقد ساءت هذه العلاقات عندما حدث التدخل، وكانت الحرب بينهما سجالاً. وفي الفترات التي حدث فيها احتكاك بين القوتين المملوكية والعثمانية كان النصر حليف المماليك في الغالب، حيث كانت قوة العثمانيين لا تزال في دور التطور والنمو.

النزاع بين أبناء بايزيد الثاني على العرش:

كان لبايزيد الثاني ثمانية أبناء، مات خمسة منهم وهو على قيد الحياة[١] وبقي ثلاثة عُينوا ولاة على بعض الأقاليم. عين ابنه الأكبر أحمد على أماسيا، وقورقود[٢] على صاروخان (مانيسه) ١٤٨٣م (٨٨٨هـ)، وعين أصغرهم وهو سليم على طرابزون في نفس العام تقريباً.

عندما اشتد المرض على بايزيد الثاني، أبدى رغبته في التنازل عن العرش لابنه الأكبر أحمد. ولما علم سليم بذلك طلب من أبيه أن يعينه حاكماً على إحدى ولايات الروملي، لكي يكون قريباً من العاصمة. لم يُجب سليم إلى طلبه، فظهر على رأس قوة كبيرة بالقرب من سمندرية وودين، وهدد بالاستيلاء عليهما، إن لم ينل ما أراد. ولما لم يرد عليه أحد استولى على أدرنه ١٥١١م. فأرسل إليه أبوه بعض القوات التي هزمته عند چورلى، فلجأ إلى خان القرم.

---

(١) وهم عبد الله (ت١٤٨٣م) ومحمد (ت١٥٠٤م) ومحمود (ت١٥٠٧م) وشهنشاه (ت١٥١١م) وعلمشاه (ت١٥١٢م).

(٢) يذكر اسمه في الكتب العربية المعاصرة للفترة قرقد أو قورقد.

وفي هذه الآونة بدأ الأب يجهز لإعلان ابنه الأكبر سلطاناً، ولكن الانكشارية التي تحب سليماً أعلنت العصيان ورفضت السلطان الجديد. وفيما الأمور تسير على هذا النحو إذ بسليم يصل إلى استانبول، فتستقبله حاميتها استقبالاً حاراً يدفع إلى إكراه أبيه على التنازل له عن العرش. وفيم الأب في طريقه إلى مسقط رأسه ديموطيقا لكي يقضي بقية أيام حياته، مات في بعض الطريق بعد أن دُس له السم بتحريض من ابنه سليم، كما يعتقد جمهور المؤرخين.[1]

تولى ياوز سليم أو سليم الصارم [2] العرش في أبريل سنة ١٥١٢م (٧ صفر ٩١٧هـ). لم يوافق أحمد على أن يكون سليم سلطاناً، فأعلن نفسه حاكماً على قونيه، وأرسل ابنه سليمان إلى أسكى شهر وعلاء الدين إلى بروصة لكي يخبرا الناس بأن أباهما هو السلطان الحقيقي. وعندما علم سليم بذلك وهو في بروصة جهز جيشاً وسار به لمحاربة أخيه وأولاده. لم يستطع أحمد الصمود أمام أخيه، فهرب إلى دارنده من توابع سوريا. قام السطان قانصوة الغوري (١٥٠١ـ١٥١٦م = ٩٠٦ـ٩٢٢هـ) باستطلاع رأس السلطان سليم في إيواء أخيه عنده. ولما علم الأمير أحمد بتصرف المماليك إزاء لجوئه إليهم غضب غضباً شديداً، ويئس من العودة إلى دياره، فتوجه إلى مناطق شرق الأناضول التابعة لشاه العجم إسماعيل الصفوي. وهرب أبناؤه سليمان وعلاء الدين وقاسم

---

(١) أنظر تاريخ الشعوب الإسلامية ص٤٤٥ ، ٤٤٦.
تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٧٢.

(٢) وُلد سليم ١٤٧٠م (٨٧٥هـ) في آماسيا عندما كان أبوه والياً عليها. أطلق عليه ياوز أي الصارم، وهو لا يزال صغيراً، لأنه كان عنيفاً في تصرفاته ودائم الحركة، متهوراً غضوباً مقداماً شجاعاً.
(منجم باشي أحمد دده: صحايف الأخبار في وقايع الأعصار، جـ٢، ورقة ١١٧٧ ، مخطوط في مكتبة طوبقبو سرايى باستانبول، برقم ٢٩٥٤) ولما كبر صار اللقب ملازماً لاسمه.

إلى مصر ابتداء من ١٥١٢م (٩١٨هـ)، ولجأ ابنه مراد إلى بلاد فارس فيما بعد.

مكث أحمد مدة لدى الصفوي، ثم عاد إلى بلاده. ولما علم سليم بعودته أمر بالقبض عليه، وخنقه سنان بك في ٢٥ فبراير ١٥١٣م في بروصة.

بعد أن اعتلى سليم العرش خنق أولاد إخوته الذين استطاع القبض عليهم، وهم: محمد وعثمان وموسى أبناء أحمد وأورخان وأمير شاه ابني محمود في ١٥١٢م (٩١٨هـ)، خوفاً على عرشه. ففزع قورقود مما حدث وأرسل لأخيه خطاباً بالتركية يتعهده فيه بالولاء ويشهد الله على قوله.[1] رد سليم على أخيه موافقاً على توسلاته.[2] وبعد ذلك توجس خيفة من ردته فيما بعد، فأنفذ إليه سنان بك أمير لواء منتشه، فخنقه في ١٣ مارس ١٥١٣ (٥ المحرم ٩١٩هـ).

لقد عاصر سليم المنازعات التي حدثت بين عمه جم وأبيه بايزيد الثاني، وخشي أن تتكرر هذه الأحداث من إخوته وأبنائهم.

فتح بلاد فارس:

بدأ نشاط الشاه إسماعيل الصفوي يزداد في نشر المذهب الشيعي خارج بلاد فارس في عهد بايزيد الثاني. وقد شجعت مجموعات العلويين الموجودة في مناطق الأناضول الشرقية الشاه على أن يرسل مريديه إلى هذه المناطق لنشر تعاليمه، وتشجيع هذه المجموعات على عصيان الحكم العثماني، تمهيداً لضم هذه

(١) أحمد فريدون: المصدر السابق، ورقة ٥٢٥ب.

(٢) أحمد فريدون: نفس المصدر، ورقة ٥٢٧أ.

المناطق المجاورة. وقد زادت شجاعة الشاه بعد سيطرته على إيران واستيلائه على آذربايجان والعراق، فبدأ يوسع مجال نشاطه ونفوذه. أرسل الشاه إسماعيل، "نور علي خليفة" إلى شرق الأناضول، فاستولى على توقات، وأمر بقراءة الخطبة باسم الشاه فيها، ثم تحرك حتى وصل إلى أماسيا.

امتد نشاط الشاه حتى وصل إلى وسط الأناضول. وقد قام نور علي بجمع العلويين تحت رئاسته في سيواس وطوقات وأماسيا وچوروم. ونشط شاه قولي في أنطاليا وحواليها. (١)

وقد علم قورقود بهدف شاه قولي الحقيقي من دعواه في أنطاليا، وطارده حتى هرب. ثم عاد إلى المدينة مرة أخرى. وهزم هو وأتباعه القوات العثمانية التي أُرسلت للقضاء عليه عدة مرات. وقد قتل الصدر الأعظم علي باشا الخادم

(١) قبل عصر بايزيد الثاني بقليل، أرسل صدر الدين شيخ تكيه أردبيل المجاورة لتبريز والذي يدعو للمذهب الشيعي كثيراً من مريديه إلى الأناضول لنشر مذهبه. ذهب أصدق مريديه قره بيق الخراساني على رأس عشيرته إلى الأناضول واستوطن حول تكه (أنطاليا الحالية). وبعد أن استقر بعض الوقت هناك، صعد على أعلى هضبة بالقرب من "المالي" وأنشأ هناك تكية. ظل قره بيق يتلقى تعليماته سراً من شيخه حتى مات بعد عشرين عاماً أو أكثر. وبعد موته حل محله ابنه شاه قولي في إدارة التكية ورئاسة العشيرة.

بدأ شاه قولي يتلقى تعليماته سراً من شيخه، وينفذها بحذافيرها في هذه المناطق، وأخذ يوسع نطاق نشره لمذهبه من يوم لآخر حتى كثر أنصاره. فكون تشكيلات عسكرية سراً وكون حكومة، وأخذ يجمع الضرائب بحجة الصرف على التكية، وكان ينفذ تعاليم الشاه إسماعيل الصفوي التي كان يرسلها إليه مع أناس من تبريز يذهبون إليه بحجة التجارة أو ما شاكل ذلك، وكان من أخلص أعوانه.

عندما تأكد شاه قولي من قوته بدأ يفرض مذهبه بالقوة والعنف على من لا يطيعونه في هذه النواحي. أعد الصدر الأعظم علي باشا الخادم حملة للقضاء عليه، فتقابل معه عند "كوك چاى" بالقرب من بوزغاد. ودارت بينهما معركة حامية سقط فيها شاه قولي قتيلاً، وجُرح الصدر الأعظم جرحاً بالغاً نقل على أثره إلى أماسيا، حيث مات هناك في يوليو ١٥١١م.

(Muallim Fuad Gücüyener: Yavuz Sultan Selim, cilt1 s.81,82,90 Istanbul 1945).

في إحدى المعارك من أثر جرح أُصيب به ١٥١١م (٩١٧هـ)، كما قُتل شاه قولي.[١]

كانت العداوة سافرة بين العثمانيين والصفويين بسبب اختلاف المذهب، وبسبب سعي الفرس لنشر المذهب الشيعي والترويج له في شرق الأناضول على الحدود مع العثمانيين وفي بعض المناطق التابعة للسلطان العثماني. وتفيض المصادر التركية في القول في هذا المجال، وتصور المذابح التي قام بها إسماعيل الصفوي وأعوانه لإرغام الناس على اعتناق المذهب الشيعي بالقوة والقهر.

كان الأمير سليم عندما كان والياً على طرابزون على عهد أبيه، يرصد تحركات الصفوي في شرق الأناضول عن قرب ويتابع مساعيه الدائبة لنشر المذهب الشيعي في المناطق التابعة للعثمانيين في المنطقة. وكان الصفويون ينشرون مذهبهم بالقوة في بعض الأحيان ويغيرون على بعض المناطق العثمانية المجاورة لحدودهم وينهبونها.

أثرت هذه الأحداث المؤسفة في نفسية الفتى سليم، فأرسل يشكو مراراً للصدر الأعظم ولأعضاء الديوان، ثم لأبيه، عندما لم يجد استجابة من هؤلاء.. ولكن عبثاً.[٢]

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt 2, s.229,254-256

(٢) انظر الوثائق التالية المحفوظة في أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول: E.6185-13 و E.6185-8 و E.6185-7 و E.6322 و E.6185-5 و E.6185-17 و E.6265.

وعندما تولى سليم العرش، وجد أمامه هذه المشكلة الملحة. وبعد أن قضى على إخوته، تفرغ للتصدي للقزلباش. فأرسل أوامره لتسجيل أسماء الموجود منهم في الأناضول. وقد بلغ العدد أربعين ألفاً بين سن السابعة وسن السبعين. فأمر بقتل بعضهم وزج البعض الآخر في السجون، على حد قول الروايات المتواترة.[١]

ومن الجدير بالذكر أن السلطان سليم استصدر فتوى من المفتي حمزة أفندي، بشرعية محاربة إسماعيل الصفوي، جاء فيها: "**إن طائفة القزلباش التي يرأسها إسماعيل بن أردبيل استخفت بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم وسنته والدين الإسلامي وعلوم الدين والقرآن المبين. وأحلت ما حرمه الله. وحقرت من شأن ما استخفت به كالقرآن الكريم وكتب الشريعة وحرقتها. وأهانت العلماء والمصلحين، وهدمت المساجد وحرقتها. المقتول على أيديهم من المسلمين شهيد وسعيد، ومقره جنة العلا، والمقتول منهم حقير وذليل، ومقره جهنم وبئس القرار.. ولأن هذه الطائفة كافرة وملحدة ومن أهل الفساد، إذن ينبغي قتالها والقضاء عليها**".[٢]

تبادل سليم مع إسماعيل الصفوي عدة رسائل قبل قيام الحرب بينهما. ففي ١٩ مارس ١٥١٤م (٢٣ المحرم ٩٢٠هـ) أرسل سليم للصفوي رسالة بالفارسية من أسكدار مع من يدعى "قليج" بعد أن تحرك قاصداً بلاد فارس. ثم أرسل له أخرى بالفارسية من إزميد في شهر صفر ٩٢٠هـ يدعوه فيها إلى الإسلام الصحيح، ويحثه على رفع مظالمه، ويخبره بأنه استصدر فتوى بقتله

(١) سعد الدين: تاج التواريخ، م٢، ص٢٤٥.

(٢) الفتوى محفوظة في أرشيف طوبقبو سراي باستانبول، تحت رقم: E.5960.

بسبب أعماله السيئة. فإن ثاب إلى رشده وغير مذهبه، فإنه سيُرجع إليه ما استولى عليه من أراضيه.[1] وللإمعان في احتقاره أرسل إليه هديه كانت عبارة عن مسواك وعصا وطيلسان، لكي يخبره بأنه ليس من سلالة المماليك لكنه من الدراويش.[2]

ذهب الرسول إلى همدان فوجد فيها الشاه. قدم له الرسالة، فرد قائلاً: "**وأنا أيضاً أعد العدة للحرب**".[3] ثم قام بقتل الرسول، وأرسل الرد مع رسول من قبله يحمل معه رد الهدية، وهي عبارة عن علبة من الذهب مليئة بالأفيون، لكي يرد على الإهانة، ويقول له إن كلامك عبارة عن هذيان.[4]

وصل الرد إلى سليم وهو في أرزنجان، وعندما قرأه واطلع على الهدية، تملكه غضب شديد. وأرسل إليه رسالة شديدة اللهجة بالتركية في جماد الأول من نفس العام، قال له فيها: "**إن كنت رجلاً، فلاقني في الميدان، ولن نمل انتظارك**".[5] وأرسل له هدية مع الرسالة كانت عبارة عن ملابس نسائية، ليدلل له على شدة احتقاره والاستخفاف به.[6]

---

(١) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٣٥١.

(٢) محمد جميل بيهم: المرجع السابق، ص١١٢.
يشير سليم بهذا إلى أن المذهب الشيعي قام على التصوف. والصفوي هذا ما هو إلا درويش صوفي.

(٣) أحمد فريدون: نفس المرجع، ورقة ٣٥٧.

(٤) محمد جميل بيهم: المرجع السابق، ص ١١٥.
يشير الصفوي بهذا إلى أن الولد كأبيه، فقد كان بايزيد الثاني يتعاطى الأفيون. (إسماعيل حقي، م٢،ص٢٦٣)

(٥) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٣٥٩.

(٦) محمد جميل بيهم: نفس المرجع: ص ١١٧.

رد الصفوي على هذه الرسالة، قائلاً: "نريد أن تنمو الصداقة بيننا كما كانت أيام بايزيد الثاني وأيام ولايتك على طرابزون. لسنا ندري، لماذا قامت العداوة بيننا؟ نريد أن تعود الصداقة القديمة التي كانت بيننا وبين آل عثمان قديماً. لا نريد لكم نتيجة سيئة كالتي حدثت أيام تيمور".(1)

رد سليم على هذه الرسالة برسالة تركية في جماد الثاني من نفس العام، ضمنها تهديده ووعيده: "استجبنا للدعوة وقطعنا الطرق الطويلة بجنود آياتها النصر. ودخلنا ممالكك. ولكنا لم نجدك في الميدان، وإذا كانت عندك نخوة أو رجولة، فاثبت في الميدان. لقد تركت أربعين ألفاً من جنودي فيما بين سيواس وقيصرية، لكي لا نرهبك. وهكذا تكون المروءة مع الخصم. ومع ذلك اختفيت منا وهربت. وإذا لم تظهر أمامنا، فلا يمكن أن تتصف بالرجولة أبداً".(2)

وأثناء تبادل الطرفين للمراسلات، كان سليم يواصل سيره من مكان لآخر في الأناضول قاصداً البلاد الشرقية. وعند بلدة "صو شهرى" بدأ الجيش العثماني يدخل بلاد فارس. وقد كانت سياسة الصفوي هي "إحراق الأراضي" لمنع العدو من الاستفادة من أي شيء.

وقبل أن يمر السلطان ببلاد ذولقادر أرسل إلى علاء الدين رسالة يطلب منه الاشتراك معه في الحرب، فرفض، ولم يبد أي استعداد لإمداد الجيش العثماني بالمؤمن والذخائر. وقد كانت الإمدادات العثمانية التي أتت بالسفن إلى طرابزون ومنها نقلت بالدواب، تكفي حاجة الجيش العثماني الزاحف. ظل الجيش العثماني

---

(1) أحمد فريدون: نفس المرجع، ورقة ٣٦٢.

(2) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٣٦٥.

يتحرك في أرض الفرس المخربة ولا يجد أمامه من يتصدى له، فأثر ذلك عليه، وأراد بعض القواد أن يشيروا على السلطان بالعودة، إلا أن واحداً منهم لم يجرؤ على ذلك، إلا "همدم باشا" والى القرامان الذي كان يصاحب الجيش. فأمر السلطان على الفور بحز رقبته. في يوليو ١٥١٤م (جماد الأول ٩٢٠هـ). وهدأت الأحوال بين الجنود على الأثر لمدة من الوقت. ولكن تحرك الانكشارية في أراضي خربة وعدم ثبات العدو أمامهم أثار فيهم الغضب، فقرروا المطالبة بالعودة. ولكن الخوف تملكهم من بطش السلطان، فوضعوا خطاباً في خيمته خفية ضمنوه مطلبهم، ولكنه لم يبال. فقذفوا خيمته باكر الصباح بالرصاص. وبعد أن علم السلطان بمحرضيهم أسرها في نفسه، وخطب فيهم محمساً إياهم ردافعاً لهم على استمرار فى التقدم. ثم وردت الأخبار بأن الشاه ينتظر في صحراء چالديران بخوى.[١]

اصل الجيش العثماني سيره حتى وصل إلى چالديران في ٢٣ أغسطس ١٥١٤م (٢ رجب ٩٢٠هـ) بعد أن قطع مسافة ٢٥٠٠ كيلو متراً. وفي اليوم التالي بدأت المعركة بين الطرفين. وقد فاز فيها الجيش العثماني بفضل الأسلحة النارية والطلائع التي تحمل البنادق الحديثة التي كان يستعملها لأول مرة.[٢] وقد جرح الشاه في ذراعه، فولى مدبراً ولم يعقب بعد أن أنقذه أحد الضباط ويدعى ميرزا سلطان علي" من الأسر.[٣] وقد تم للعثمانيين الاستيلاء على عرش الشاه

(١) سعد الدين: المرجع السابق، م٢، ص٢٩٥.

(2) Philips Price: Op. Cit., P.47

(٣) سعد الدين: نفس المرجع، م٢، ص٢٧٠.

والقبض على زوجته "تاجلو خانم". وهرب الشاه شمالاً إلى "درگوزين". ونجح الجيش العثماني في الاستيلاء على العاصمة تبريز بعد ذلك[1].

قرر السلطان العودة إلى أن ينقضي الشتاء ثم يعود مرة أخرى لكي يقضي على إسماعيل الصفوي. وقد ذكر ذلك في رسالة له بعث بها إلى قانصوه الغوري، حيث قال: "**صممنا العزيمة في السنة الآتية إلى تسخير البلاد الشرقية ودفع بقية السيوف من الرفضة القزلباشية خذلهم الله ودمرهم بعون الله الأزلي وتوفيقه الأبدي**".[2]

وبعد أن عاد السلطان إلى استانبول جاءه رسول الصفوي يعرض الصلح، فأبى.

فتح بعض مناطق الأناضول:

بعد أن قضى سليم الشتاء في أماسيا، وجد أن الجيش لا يقدر على محاربة الصفوي مرة أخرى، فقرر تأمين حدوده الشرقية والجنوبية ضد القزلباش، بالاستيلاء على بعض المناطق في شرق الأناضول وجنوبه.

(١) الكماخ:

أرسل السلطان أمير آخوره محمد باشا البيقلي في أبريل ١٥١٥م (نهاية صفر ٩٢١هـ) لفتح قلعة الكماخ التابعة للقزلباش والتي كانت تهدد منطقة أرزنجان وبايبورت. فاستولى عليها محمد باشا قبل وصول السلطان إليها.[3]

(١) انظر مخطط "ميدان معركة چالديران" ضمن قسم الخرائط واللوحات رقم (١٥).

(٢) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٧٣ب ـ ٥٧٦أ.

(٣) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٧٣ب ـ ٥٧٦أ.

(٢) ذولقادر:

نشأت في ألبستان ومرعش من ممتلكات المماليك إمارة تركمانية صغيرة سنة ١٣٣٩م (٧٤٠هـ) سميت باسم ذولقادر.

اشترك المؤسس الحقيقي لهذه الإمارة ويدعى زين الدين قراجه بك ١٣٥٣م (٧٥٤هـ) مع الجيش المملوكي في إحدى معاركه ضد الأرمن بينما كان زعيماً لعشيرته، وأبلى في المعركة بلاءً حسناً، استحوذ على إعجاب قائد الجيش المملوكي. وفي سنة ١٣٣٩م استولى علي ألبستان من "أرتنه بك" واستطع أن يجعل منها مركزاً لإمارته ثم ضم إليها مرعش فيما بعد. وقد تمكن ابنه وخليفته خليل بك ١٣٨٦م (٧٨٨هـ) من ضم ملكية وخربوت وبهسنى للإمارة.

ارتبطت هذه الأسرة بالعثمانيين عن طريق المصاهرة، فقد تزوج السلطان محمد چلبي ابنة أحد أمرائها ويدعي "سولي بك" ١٣٩٧م (٨٠٠هـ).وأرسل السلطان مراد الثاني إلى أحد أمراء هذه الإمارة ويسمى سليمان بك ١٤٥٤م (٨٥٨هـ) في طلب خمس بنات، زوج أجملهن وهي "سيتي مكرمه خاتون" لابنه محمد (الفاتح). وتزوج بايزيد الثاني عائشة خاتون ابنة علاء الدولة، فأنجبت له سليماً (الأول).

ظلت إمارة ذولقادر على علاقة حسنة بالمماليك والعثمانيين أيام حكم سليمان بك. ولما توفى اعتلى العرش مكانه ابنه "ملك أرسلان بك". وفي عهده استولى أوزون حسن علي خربوت، فطلب ملك أرسلان العون من مصر، وفي هذه الأثناء تمكن أخوه "شاه بوداق" من قتله، واعتلى العرش بعده في سنة ١٤٦٥م (٨٧٠هـ). وبعد أن استتبت الأمور له، تحالف مع المماليك. لكن

السلطان محمد الفاتح تدخل في الأمر واستطاع أن يعين أخاً لشاه بوداق يدعي شهسوار لتأكده من ولائه للدولة العثمانية. وعندما قويت شوكة شهسوار تمرد على العثمانيين رافضاً ولاءه لهم، فأصبحت الفرصة مواتية أمام المماليك الذين جردوا عليه حملة تمكنت من أسره وشنقه على باب زويلة في أغسطس ١٤٧٢م (٨٧٧هـ)، ونصب قايتباي مكانه شاه بوداق. إلا أن الفاتح لم يسكت على ما حدث، فقام بمساعدة علاء الدولة على اعتلاء العرش سنة ١٤٧٩م (٨٨٤هـ) لأنه من صنائع العثمانيين.

عندما فرغ بايزيد الثاني من خطر أخيه جم واتفق مع رئيس الاسبتارية على أن يحتفظ به لديه، أراد أن ينتقم من المماليك لمساعدتهم لأخيه وتحريضهم إياه على الحرب ضده، فساعد علاء الدولة سنة ١٤٨٣م وحرضه على محاربة المماليك وأمده بالجنود اللازمة. أغار أمير ذولقادر على ملطية التابعة للمماليك، إلا أن القائد المملوكي تمراز الشمسي رده عن هذه المدينة وأنزل به هزيمة منكرة سنة ١٤٨٤م؛ وأسر الكثير من جنود آل عثمان.

وبعد ذلك أنفذ قايتباي إلى عينتاب فرقة مكونة من ٥٠٠ جندي جعل على رأسها القائد أوزبك لإرهاب علاء الدولة وتحريضه على ترك صداقة العثمانيين وإعلان ولائه للمماليك. ولكن علاء الدولة رفض المساومة على صداقته للعثمانيين، وأصر على موقفه رغم تكرار دعوته إلى التغاضي عنها.(١)

لم يستمر علاء الدولة على عدائه للمماليك، فعندما أحس بقوتهم وخطرهم رضخ لمطالبهم في الفترة التي حدثت فيها صدامات بينهم وبين العثمانيين

(١) أنظر التقرير الذي كتبه أحد رجال العثمانيين ويدعى مصطفى عما أدلى به جاسوس عاد من أرض العرب، وهو مقيد بأرشيف طوبقبو سرايي باستانبول، تحت رقم E.12105..

(١٤٨٥ـ١٤٩٢م) (٨٩٠ـ٨٩٦هـ)، ومن ناحية أخرى كان يخاف بطش زوج ابنته بايزيد الثاني. ولما تأكد من أن المماليك يزدادون ضعفاً من يوم لآخر، تحالف مع العثمانيين.

وفي ١٣ أكتوبر ١٥٠٧م (٧ جمادى الثانية ٩١٣هـ) استطاع الشاه إسماعيل الصفوي الذي كان يسعى إلى نشر المذهب الشيعي في الأناضول أن ينزل بعض الهزائم بعلاء الدولة.[1]

وعندما سار سليم على رأس جيوشه سنة ١٥١٥م (٩٢٠هـ) لمحاربة الصفوي، لم يساعده علاء الدولة عندما مر بأراضيه، بل هاجم طلائع قواته على حد قول المؤرخ التركي الكبير إسماعيل حقي أوزون چارشيلي.[2] فأمر سليم الصدر الأعظم سنان باشا بمحاربته والقضاء عليه، عند عودته من حربه مع الفرس.

تحرك الصدر الأعظم إلى إمارة ذولقادر في غرة جمادى الأولى ٩٢١هـ على رأس جيش قوامه عشرة آلاف جندي، وهاجم علاء الدولة وهزمه وقطع رأسه مع رؤوس أربعة من أولاده وثلاثين من أمرائه. وبعد أن استراح السلطان من شر جده لأمه، منح حكم ذولقادر لعلي بن شهسوار الموالي للعثمانيين.

وبعد مقتل علاء الدولة لم يعد للمماليك نفوذ في إمارة ذولقادر، فقد أصبحت تابعة للعثمانيين. وسكت العملة وقرئت الخطبة باسم السلطان

(1) Ismail Hakkı: Anadolu Beylikleri, s. 169-174 Ankara 1969.

(2) Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt 2, s.271.

العثماني.(١) وأرسل سليم رسالة للغوري بهذا الخصوص مصحوبة برأس عــلاء الدولة.

(٣) ديار بكر:

كانت ديار بكر أهم المدن والحصون التابعة للصفويين في الأناضول عنـد حدودهم الغربية. كانت الكماخ وأرزنجان وبايبورت تشكل حدود الدولة العثمانية الشمالية الشرقية مع الصفويين، وكانت ديار بكر تشـــكل حدودهـم الجنوبيـة الشرقية معهم. وقد وفق العالم والمؤرخ إدريس البتليسي الذي لجأ إلى العثمانيين في إدخال ديار بكر تحت طاعة العثمانيين دون إراقة للدماء.(٢)

وعندما علم الصفوي بذلك وتأكد من عودة سليم إلى دياره، قرر محاصرة ديار بكر وإعادتها للنفوذ الصفوي. فأرسل جيشاً بقيادة قراخان الذي تولى حكـم ديار بكر بعد موت أخيه محمد خان بن اوستاجلو في معركة چالديران. ولكـــن هذا الجيش لم يتمكن من التصدي للعثمانيين بقيادة محمد باشا البيقلـــي. وفشـل الصفويون في إرجاع ديار بكر تحت حكمهم.

(٤) بعض مناطق شرق الأناضول:

وبفضل إدريس البتليسي دخلت مناطق أخرى في شرق الأناضول تحـــت الحكم العثماني، مثل: عمادية ، بتليس ، سيرت ، حصن كيفا (حســـن كيــف)، وميّافارقين (مفارقين) وغيرها. وأثناء فتح سليم للشام ومصر، وبعـــد فتحـــهما،

---

(١) صولاق زاده: صولاق زاده تاريخي، م١ ، جـ١ ، ص٣٧٤ استانبول ١٢٩٧هـ.

(2) Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt 2, s. 273.

انضمت للدولة العثمانية بعض البلاد الأخرى، مثل: ملطية وأورفه وبهسني والخربوت وماردين وغيرها.[1]

مكن الانتصار في شرق الأناضول وفي إيران، العثمانيين من التحكم في الطرق الرئيسية الاستراتيجية من الأناضول عبر القوقاز وسوريا وإيران، كما مكنهم من تنظيم خطوط دفاعهم وهجومهم في هذه المناطق، والسيطرة على طرق التجارة العالمية التي تنقل الحرير من إيران وبعض المنتجات الأخرى من الشرق، من تبريز إلى حلب وبروصه، مما در عليهم دخلاً هاماً من المكوس المفروضة على هذه التجارة. وجعل هذا الانتصار أيضاً السلطان سليم يتحكم في تجارة الحرير الإيرانية المزدهرة مع أوروبا ويقطعها متى شاء. كما جعله يسيطر على المنابع الرئيسية التي يجلب منها المماليك عبيدهم من القوقاز. وبهذا استطاع أن يضغط عليهم من عدة اتجاهات.[2]

فتح الشام ومصر وضم الحجاز

أسباب الفتح العثماني للشام ومصر:

لاشك أن فتح سليم للشام ومصر كانت وراءه دوافع وأسباب عديدة ومبررات قوية دعت إلى الاستيلاء على هذه المنطقة الشاسعة من العالم العربي. هذا الفتح الذي ضاعف أملاك الإمبراطورية العثمانية أكثر من مرة ونصف. وقد امتزجت الدوافع والمسببات وتفاعلت في عقلية سليم ، وأصبحت حافزاً ومبرراً له للقضاء على دولة المماليك الآخذة في الضعف والانهيار. والأسباب

(1) Dr. Ismail Hakki: Geçen Eser, cilt 2, s.275,276.

(2) Stanford Shaw: Op, cit. P.83.

التي دعت سليماً لفتح الشام ومصر، بعضها كان من صنع المماليك والآخر ناتج عن سياسة السلطان العثماني وتفكيره.

على أن المتتبع للسياسة العثمانية والسياسة المملوكية قبل عصر سليم يجد أن هذه الفترة مهدت للصدام وهيأت له. فقد ساءت العلاقات بين الطرفين، وحدثت بينهما صدامات محدودة على الحدود. عاصر سليم بعضها أيام أن كان والياً على طرابزون ١٤٩٠م. ويبدو أن هذه الأحداث أثرت فيه نظراً لأنها لم تكن في صالح العثمانيين في أغلب الأحيان. وقد أتاحت له الظروف قبل اعتلائه العرش، أن يحكم في منطقة مجاورة للمناطق التي دارت فيها الاضطرابات التي سببها تأثير نشر المذهب الشيعي بالقوة. لكن تصريف الأمور لم يكن بيده، ولا كان بيد أبيه، في أواخر حكمه، بل كان الصدر الأعظم علي باشا الخادم يتولى شئون السلطنة لمرض السلطان.

واعتقادي أن فكرة اتجاه الفتح نحو شرق الأناضول وجنوبه، إنما اختمرت في عقل سليم أيام ولايته على طرابزون. فلما تولى الحكم ١٥١٢م، واطمأن على الأحوال في أوروبا، بدأ يستعد لمحاربة الصفويين الذين كان خطرهم يستفحل في الأناضول. وبعد هزيمة إسماعيل الصفوي، بدأ يجهز لفتح الشام ومصر.[1] والأسباب الحقيقية التي دفعت إلى الفتح، هي:

---

(١) لا أوافق المؤرخ الإنجليزي توينبي فيما ذهب إليه بخصوص تعليل سبب الاستيلاء على الشام ومصر، بأنه صراع مذهبي بين القوتين الإيرانيتين: الدولة العثمانية السنية والدولة الصفوية الشيعية. سعت له الدولة العثمانية لكي تخل بالتوازن بينها وبين الدولة الصفوية.
(Toynbee: A Study of History, vol. I, PP. 347-400 Oxford 1945)

(١) إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين:

حرضت بعض الدول المجاورة للدولة العثمانية كدولة المماليك ودولة الصفويين الأمراء العثمانيين على اللجوء إليها، أو آوت الفارين منهم، لما يحدثه ذلك من تهديد للعرش العثماني. وقد سبب هذا التصرف عداءً شديداً بين العثمانيين وجيرانهم لخوف السلاطين من إمداد هذه الدول للأمراء، بجيوش لمحاربتهم خاصة إذا كانوا في أوائل عهدهم بالحكم. وقد هرب بعض الأمراء خوفاً على حياتهم إلى المماليك أو الصفويين، وأحسن هؤلاء وفادتهم وأكرموهم وأنزلوهم منازل خاصة، مما زاد من غيظ العثمانيين. وحاول بعض السلاطين العثمانيين جاهداً أن يحصل على هؤلاء الأمراء الهاربين، ولكن المماليك والصفويين لم يجيبوهم، بل إنهم أمدوا بعضهم بالجند والسلاح لمحاربة السلطان الجالس على العرش. فكلما حدث اضطراب في الدولة العثمانية، خاصة في منطقة الأناضول، كلما أفاد منه المماليك والصفويون، حيث يضعف ذلك من قوة الدولة الفتية التي تهدد كيان هاتين الدولتين، خاصة المماليك وهم آخذون في الضعف والانهيار.

ويبدو أنه بعد أن سن الفاتح قانونه، وأورد فيه فقرة خاصة بوراثة العرش تجيز لمن يفوز به قتل جميع إخوته الباقين حرصاً على مصلحة البلاد، خاف الأمراء، فقام جم يطالب بالعرش ويستميت في الطلب، وهرب آخرون فزعين خشية بطش السلطان الحاكم.

وعلى الرغم من إيواء المماليك والصفويين للأمراء العثمانيين الهاربين من ديارهم، إلا أن كلا منهما لم يحسن استغلال هذه الفرصة لصالحه. وقد شجعت مساعدة المماليك للأمير جم ــ رغم بساطتها ــ على زحفه على

الأناضول وزيادة العداوة بين العثمانيين والمماليك. وحدثت بعض الصدامات على الحدود بين الدولتين[1].

(٢) الصراع على الإمارات المجاورة:

تصارع المماليك والعثمانيون على النفوذ في مناطق الأناضول الجنوبية الشرقية والمناطق الواقعة شمال الشام. فكل منهما كان يسعى إلى تعيين أمير موال له في هذه المناطق، مما سبب توترا شديدا بينهما، كانت تزداد حدته كلما ازداد تدخل أي من الطرفين في شئون هذه الإمارات، التي كانت تتبع النفوذ المملوكي، والموجودة في صميم شبه جزيرة الأناضول، وخطرها شديد على العثمانيين. وكانت هذه الإمارات مهددة بالزوال في الفترة التي ازدادت فيها حدة الصراع بين هاتين القوتين. فهي إمارات صغيرة وضعيفة، وكان ضعفها سببا في عدم استقرار الحكم فيها، ومشجعا لكلا الدولتين على التدخل في شئونها كثيرا. يعتبرها المماليك حصونهم الشمالية، ويعتبرها العثمانيون جسما غريبا داخلا في صميم أناضولهم. كما أنهم كانوا يخافون من انتشار المذهب الشيعي في هذه المناطق التي لا تتبعهم، والتي وجد فيها الشيعة أرضا خصبة لنشر مذهبهم ولو تحت تهديد السلاح، لأن المماليك وهذه الإمارات تحت نفوذهم لم تكن قبضتهم عليها قوية، خاصة في أواخر أيام السلطنة المملوكية.

سبب إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين وكذلك النزاع على النفوذ في إمارات الأناضول توترا في العلاقات بين المماليك والعثمانيين، كان من نتيجته قبل فتح الشام ومصر، قيام عدة صدامات على الحدود لم تتعد أن تكون

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر : د. أحمد فؤاد متولي: الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له القاهرة ١٩٧٦م

تنفيساً عن غيظ العثمانيين من إثارة المماليك لهم. فلم تكن صدامات على نطاق واسع لأن العثمانيين كانوا مشغولين بفتوحاتهم في أوروبا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يستطيعون القيام بعمل حربي كبير مع المماليك لاتساع جبهتهم وطولها، والأناضول به إمارات لا تدين بالولاء لهم. ومن الخير لهم ضمها أولاً لتأمين ظهرهم ثم التوجه للقضاء على المماليك. وقد كان إسماعيل الصفوي خطراً داهماً عليهم لأن نفوذه كان يتسع في الأناضول، خاصة في الإمارات التركمانية. فقد كان يسعى على الدوام لنشر المذهب الشيعي خاصة في الدويلات المذكورة لضعفها وصغر حجمها[١].

(٣) التحالف المملوكي الصفوي:

كان واجب الجهاد الديني أحد المحركات الرئيسية للفتوحات العثمانية في أوروبا "بلاد الكفر" التي ينبغي ضمها للعالم الإسلامي. وكانت الغيرة على الدين حافزاً قوياً للسلاطين العثمانيين على فتح البلاد التي يعتبر فتحها "جهاداً في سبيل الله". كما كانت القومية الإسلامية هي الموجه الوحيد المتحكم في سياسة الدولة العثمانية، وذلك أن دولتهم اصطبغت من لدن قيامها بالصبغة الإسلامية البحتة. فقد كان سلاطينها الأول ينتمون إلى أهل الفتوة، وكانوا يتلقبون بلقب "الغازي". وقد بلغت القومية الإسلامية مداها عند السلطان سليم الأول، حتى أنه حاول أن يجعل اللغة الإسلامية الأولى وهي اللغة العربية لغة قومية للترك، ولم يمنعه من تحقيق هذا المشروع إلا المفتي. ولاشك أيضاً أن الإسلام الذي عاش من أجله العثمانيون هو الإسلام السني. وقد ازداد حدبهم عليه زيادة كبيرة بعد

(١) لمزيد من التفصيل انظر: د. أحمد فؤاد متولى : الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته

ظهور إسماعيل الصفوي، وإرغامه السنيين في إيران على الدخول في المذهب الشيعي.[1]

كان تحالف المماليك مع الصفويين ضد العثمانيين مثيراً لغضب سليم من الغوري السني الذي اتفق مع الصفوي الشيعي. ولكنه كان اتفاقاً هشاً بسبب التناقض بين الدولتين. وربما لم يساعد المماليك الصفويين ضد العثمانيين خشية أن ينتصر الصفويون فيكون ذلك وبالا على المماليك على حد قول ابن إياس.[2] ذلك أن الصفويين قائمون على قدم وساق لنشر مذهبهم الشيعي بشتى الوسائل. وهناك احتمال آخر، وهو أن المماليك اتفقوا مع الفرس خشية أن يهاجمهم العثمانيون، فيهب الصفويون لنجدتهم.

كان الوقت مناسباً للقضاء على الخطر الصفوي الذي كان يستفحل مع الأيام. ولم يترك سليم الجبهة الغربية، ويتحرك إلى الجبهة الشرقية إلا لازدياد الخطر الشيعي في الأناضول. وبعد أن أوقف سليم الخطر الصفوي، بدأ يغير على الإمارات التابعة للمماليك في الأناضول ويستولي على بعضها، وينصب للحكم في بعضها الآخر من يشاء مؤمناً مؤخرته قبل البدء في الصدام الكبير مع المماليك. قتل سليم علاء الدولة أكبر أنصار المماليك عند حدودهم الشمالية، وبعدها قتل ويراش خان حليف الشاه إسماعيل.

نصح سليم الغوري في رسالته إليه في ١٤ جمادى الأولى سنة ٩٢١ هـ بمناسبة القضاء على علاء الدولة، بألا يلتفت إلى تضرعات الشيعة، قائلاً: "**صممنا العزيمة في السنة الآتية إلى تسخير البلاد الشرقية، ودفع بقية**

(١) د. أحمد السعيد سليمان: التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة، ص١٦،١٧.

(٢) ابن إياس: المرجع السابق، جـ٥، ص٧٢.

السيوف من الرفضة القزلباشية، خذلهم الله ودمرهم بعون الله الأزلي وتوفيقه الأبدي. فالمرجو منكم ألا تلتفتوا لتضرعاتهم ولا تتقيدوا بسفسطانهم".[1] فلم يرد سلطان المماليك على الرسالة لشدة غضبه وغيظه مما حدث لأحد الحكام الموالين له. فأرسل سليم للغوري رسالة في أوائل المحرم سنة ٩٢٢ هـ يقول فيها: "**إن قيامنا بتأديب القزلباش الملاعين فيما مضى، كان لمجرد إظهار أنوار النواميس الإلهية والشرائع النبوية، وكشف حجاب ظلام أعداء الدين والدولة، والعمل على نشر نور الشرائع النبوية على العالم".**[2] علم الغوري في تلك الآونة بأن الدولة العثمانية تعد العدة لفتح الشام ومصر، فأرسل إلى السلطان سليم بهذا الخصوص.[3] فرد عليه السلطان العثماني مبيناً له عزمه على محاربة القزلباش.[4] على الرغم من أنه تحرك فعلاً لمحاربة المماليك. ويعرض الغوري في إحدى رسائله التي أرسلها إلى السلطان سليم فيما بعد الوساطة بينه وبين القزلباش حقناً للدماء، لأن أكثر الناس في هذه المناطق التي يزمع محاربتها من أهل السنة والجماعة. وأن إسماعيل الصفوي قرر عدم اللقاء مع سليم في أي معركة، فهو يفضل الهروب دائماً خوفاً وفزعاً. ويكفي ما لحق به في معركة چالديران سنة ١٥١٤م (٩٢٠هـ).[5]

وعندما كان السلطان العثماني في طريقه لمحاربة الغوري أرسل إليه رسالة تهديد، قال فيها: "**اتضحت لنا بعض تصرفاتك التي لا تليق والتي قصدت**

---

(١) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٧٣ب ــ ٥٧٦أ.

(٢) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٩٢أ ــ ٥٩٣ب.

(٣) الوثيقة محفوظة في متحف طوبقبو سرايي باستانبول، تحت رقم E.12282.

(٤) جلال زاده قوجه نشانجي مصطفى: مآثر سليم خاني طاب ثراه، مخطوط بمكتبه طوبقبو سرايي باستانبول، تحت رقم H.1415، ورقة ١٢٥أ ــ ١٢٧ب.

(٥) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٩٠ب ــ ٥٩٢أ.

بها تقوية ذلك الملحد المفسد ذي العادات السيئة الذي لا يدين بدين (إسماعيل الصفوي) فقصدت إليك ذاتنا لأنك أسوأ منه".[1]

(٤) الأسباب الاقتصادية:

بدأت الكشوف الجغرافية تظهر في أوروبا في أواخر القرن الخامس عشر، فقد اكتشف فاسكو داجاما سنة ١٤٩٨م طريق رأس الرجاء الصالح. وقد أحدث هذا الكشف تحولا خطيرا في البحرية الأوروبية أثر بطبيعة الحال على التجارة العالمية وغير مجراها. كانت تجارة الشرق تمر بالبحر الأحمر ثم تصل إلى السويس ومنها إلى القاهرة فالإسكندرية أو تمر بالخليج العربي ثم تصل إلى ميناء البصرة فسوريا أو بيروت ثم تعبر البحر الأبيض إلى أوروبا. وكان المماليك يحصلون مكوسا باهظة على هذه البضائع، كما كان الجنويون والبنادقة ينقلون هذه التجارة إلى أوروبا ويحصلون مكوسا عليها أيضا. لكن البرتغاليين استطاعوا بكشوفهم أن يغيروا هذه الطرق التجارية العابرة من خلال الطرق العربية، ويجعلونها تمر عبر طريق رأس الرجاء الصالح، ثم بدأوا يغلقون البحار العربية كالبحر الأحمر والخليج العربي. فتوقفت التجارة عبر هذه البلاد، وأحدثت رد فعل سيء على اقتصاديات المنطقة.

حدثت صدمات عديدة بين المماليك في عهد الغوري وبين البرتغاليين لفك الحصار المضروب حول المنطقة والذي يهددها بالاختناق. تحطم الأسطول المصري سنة ١٥٠٩م في موقعة ديو، فسعى الغوري يطلب الأخشاب من بايزيد الثاني لكي يبني أسطولا قويا يحكم به الحصار. وقد وقعت بين الطرفين معارك

(١) أحمد فريدون: نفس المرجع، ورقة ٥٩٣ب ـ ٥٩٤أ ، ب.
لمزيد من التفصيل انظر: د. أحمد فؤاد متولى: الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته.

عديدة في المحيط الهندي، إلا أن جهود المماليك لحل هـذه المشـكلة انـهارت بانهيار دولتهم. وتم للبرتغاليين تطويق المنطقة العربية ومنع التجارة من المرور عبر مياهها أو أراضيها.

أراد سليم بفتحه للشام ومصر أن يؤمن التجارة العثمانية الآتية من الشرق عبر البلاد العربية، والتي أصبح الخطر البرتغالي يعوق مسيرتها. وأن يحصـل على الأموال الطائلة من المكوس المفروضة على البضائع، إن استطاع أن يعيـد طرق التجارة كما كانت قبل الحصار البرتغالي.

وتعتبر الدوافع الاقتصادية التي دفعت سليماً لفتح الشام ومصـر إحـدى العوامل الرئيسية المحركة للسيطرة على هذه المناطق الغنية والخصبة.خاصـة بعد أن كثرت الحروب وأصبحت تكلف الدولة أموالاً باهظـة. وقـد أصبحـت الفرصة مواتية لفتح هذه البلاد بسبب العلاقات السيئة بين المماليك والعثمـانيين التي خلفتها العهود السابقة على تولي سليم عرش العثمانيين.

العلاقة بين الغوري وسليم الأول:

بعد أن اعتلى سليم عرش العثمانيين لم يرسل إليه الغوري رسالة تهنئـة بالجلوس على العرش، ولكنهما تبادلاً الرسائل من بعد في مناسبات أخرى. وقـد اتسمت المراسلات التي تبودلت بين السلطانين بشيء من الود الظاهري أحيانـاً وبالشك والحذر أحياناً أخرى، ثم تطورت إلى توتر فوعيد وتهديد. لقد اختلفـت لهجتها عن لهجة المراسلات التي تبادلها الغوري مع بايزيد الثاني. ومع ذلـك كانت هناك مراسلات سرية بين السلطان سليم وبين خاير بك اتسمت بالصداقة.

أرسل سليم رسالة إلى خاير بك ــ علها كانت في الخفــاء ــ مصحوبــة ببعض الهدايا لتوطيد أواصر الصداقة بينهما. وفي ٢٢ من ذي الحجة سنة ٩١٨ هــ أرسل خاير بك رداً على هذه الرسالة، متضمناً شكره لسليم على الهدية التي أرسلها إليه مع رسوله بهرام، ومذكراً إياه بما جاء في رسالته من أن "**المملكتين شيئاً واحداً**" أدخل عليه الفرح والسرور، ومؤكداً له على أن "**المملكتين مملكــة واحدة**"، وعلى أنه ينتظر ما يكلف به لكي يقوم به خير قيام.[١] والرســالة مــن أولها إلى آخرها على لسان خاير بك. ومن المحتمل أن تكون قد أرسلت من قبله إلى السلطان سليم للتأكيد على الولاء التام له، حيث تقول: "**والمملوك واقف على أثبت قدم لما يرد عليه من المراسم والخدم ليفوز بقضائها وامتثالها بالســمع والطاعة**".

وقد أحس سيباي نائب الشام بوجود مراسلات سرية بين خاير بك وســليم ــ على حد قول ابن زنبل ــ فأرسل إلى الغوري فيما بعد، يخبره بخيانه خــاير بك ومراسلاته المستمرة مع سليم، قائلاً: "**والذي يعلم به مولانا السلطان أن خير بك ملامي علينا ومكاتيبه لا تنقطع من عند ابن عثمان في كل حين**".[٢]

تحرك السلطان سليم من أدرنة في يوم الثلاثاء ٢٣ المحــــرم ٩٢٠هـــــ قاصداً محاربة إسماعيل الصوفي. ولما علم الغوري بذلك خشى مــن العواقــب الوخيمة المرتقبة على بلاده، إذ أن من ينتصر منهما سوف يحاول القضاء علــى القوة المملوكية. فأمر بعضاً من قوات جيشه بـــالتحرك إلــى حلــب انتظــاراً

(١) الوثيقة محفوظة في أرشيف طوبقبو سرايي باستانبول، تحت رقم E.5850-1.

(٢) ابن زنبل: آخرة المماليك "واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني" (تحقيق عبــد المنعــم عــامر)، ص٤، القاهرة ١٩٦٢.

لمجريات الأمور بعد انتهاء هذه الحرب، وهو يقول في سبب ذلك: "**حتى نرى ما يكون من أمر الصوفي وابن عثمان فإن كل من ينتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا**".[1]

بينما سليم في طريقه لفتح بلاد العجم علم بأن الشاه إسماعيل أرسل قاصده إلى الغوري يطلب مساعدته ضد السلطان العثماني إن هو فكر في غزو بلاده. وقد أكد هذا الخبر لديه تحرك بعض فرق الجيش المملوكي إلى حلب.

أرسل الصدر الأعظم أحمد باشا رسالة مع قاصده محمد يستفسر عن صحة هذه الأخبار من خاير بك. بعث الأمير المملوكي الرسالة بدوره إلى الغوري في مصر، فورد من جانبه أقباي يكلف خاير بك بالرد على رسالة أحمد باشا ونفي هذه الشائعات.

وفي ١٣ جمادى الأولى ٩٢٠هـ، وبينما جيوش السلطان العثماني في موقع بسيواس يسمى قلعة قوج متجهة إلى بلاد فارس، أرسل خاير بك رده إلى الصدر الأعظم مع "إينال باي" متضمناً نفيه حضور قاصد من قبل الشاه الصفوي، لصدق المحبة بين سليم والغوري، ولأن المملكة الشريفة والمملكة الرومية (العثمانية) مملكة واحدة وبيت واحد. وقد أفضى خاير بك إلى أحمد باشا بأن أحد جواسيسه أتى من بلاد الشرق، وأخبر بأن الشاه بمكان يدعى قَرقَان، وأن "**حاله ضعيف جداً**"، ثم أكد له على الصداقة بين السلطانين المملوكي والعثماني والاتحاد بينهما ضد الصفوي.[2]

---

(١) ابن إياس: المرجع السابق، جـ٥، ص٢٢.

(٢) الوثيقة محفوظة في أرشيف طوبقبو سرايي باستانبول، تحت رقم E.5552.

وهذه الرسالة لا تشير إلى حدوث اتفاق بين المماليك والصفويين، فلو كان حدث اتفاق في ذلك الوقت بالذات، بين السلطان المملوكي والشاه إسماعيل لأفضى خاير بك بسره إلى الصدر الأعظم في هذه الرسالة أوفي رسالة سرية بينهما. وقد ذكر الأمير المملوكي في رسالته إلى أحمد باشا معلومات جمعها أحد جواسيسه عن الصفوي مما يدل على حسن العلاقة بينهما رغم تخوف السلطان الغوري من نتيجة هذه الحرب سواء كان المنتصر فيها سليم أم إسماعيل.

بعد أن انتصر سليم على إسماعيل الصفوي في چالديران في ٢٣ أغسطس ١٥١٤م (٢ رجب ٩٢٠هـ)، أرسل رسائل الفتوح السلطانية إلى كثير من الحكام والأمراء مبشرا بالنصر. وقد أرسل إلى الغوري رسالة مع قاصده خضر أغا، يخبره فيها بانتصاره على القزلباش، مما يدل على أن سليما اقتنع بنفي خاير بك وقوع اتفاق مع إسماعيل الصفوي رغم عدم وجود وثيقة تثبت ذلك.

كلف السلطان المملوكي الأمير خاير بك بالرد على الرسالة، فكتب يقول للسلطان سليم: "**أن أباكم السلطان {الغوري} عز نصره فرح فرحا عظيما بالنصر على الطائفة الباغية من الأوباش القزلباش الملاعين خذلهم الله تعالى أجمعين، وأعلن البشائر والأفراح ثلاثة أيام، وأكرم رسولكم خضر أغا وأرسل معه مرسوما شريفا**".[(١)]

ورغم رسالة التهنئة بالنصر في چالديران التي بعث بها خاير بك إلى سليم بناء على طلب الغوري، إلا أن ابن إياس يذكر في بدائعه أن السلطان

(١) الوثيقة محفوظة في أرشيف طوپقپو سرايي باستانبول، تحت رقم E.9654.

المملوكي وأمراءه استاءوا من أخبار انتصار سليم الأول "**وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان**"[1] الغوري.

وعلى الرغم من أن الغوري أكرم رسول السلطان سليم وأخلع عليه كما ورد في الوثيقة السابقة وكما سيجيء في كلام شاهد العيان ابن إياس، إلا أنه لم يأمر بدق البشائر احتفالاً بالنصر الذي تحقق على يد العثمانيين، مما يؤكد أن السلطان المملوكي قابل هذه الأخبار بقلق بالغ. يقول ابن إياس: "**فلما حضر قاصد سليم باشا بن عثمان بين يدي السلطان قرئت مكاتبته بحضرة الأمراء أخلع على القاصد الذي حضر بأخبار هذه النصرة كاملية مخمل أحمر كفوري بصمور عالٍ من ملابيسه ثم أنزل القاصد من القلعة ولم يرسم بدق الكوسات في القلعة ولم يناد في القاهرة بالزينة ولم يعلم ما سبب ذلك**"[2]، وعلى الرغم من ذلك قال خاير بك في رسالته السابقة إلى السلطان سليم: "**فرح أبوكم {الغوري} عز نصره فرحاً عظيماً، وأعلنت البشائر والأفراح ثلاثة أيام**". وربما قال أمير حلب ذلك لعدم علمه بالحقيقة، وتوقعه إعلان البشائر ما دام القاصد قد قوبل بترحاب شديد وأخلع عليه.

ويبدو – في ظني – أن الغوري أمر بإرسال هذه الرسالة إلى سليم رغم عدم امتنانه بنتيجة المعركة، لأن السلطان العثماني أرسل إليه رسالة تبشير بانتصاره على الصفوي، وعلى الغوري أن يرد عليها لكيلا يثير على نفسه غضب ابن عثمان، لأنه لو لم يفعل ذلك لتأكد لسليم تحالفه مع الصفوي ضد العثمانيين.

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، جـ٤، ص٣٩٨.

(٢) ابن إياس: نفس المصدر، جـ٤، ص٤٠٤.

بعد أن هزم سليم إسماعيل الصفوي في چالديران، وفتح آمد (ديار بكر) وخربوت ثم فتح أثناء عودته الكماخ وذولقادر وقتل حاكمها علاء الدولة حليف الغوري. أرسل رسالة إلىالغوري بهذه المناسبة مصحوبة برأس علاء الدولة لكي تكون سبباً في نشاطه وباعثاً على انبساطه على حد قوله، ولكي يعلن "**هذا الفتح المبين في الأقطار والأمصار من بلاد الموحدين كما هو دأب الملوك والسلاطين**"، على الرغم من أنه يعلم جيداً أن علاء الدولة كان من أقوى أنصار المماليك. ولشدة غضب الغوري على مقتل علاء الدولة لم يرد على هذه الرسالة.(١)

وفي أواخر رمضان سنة ٩٢١هـ أرسل السلطان سليم قاصده حسن بك السلحدار إلى الغوري برسالة مصحوبة برأس ويراش خان القراخاني حاكم ماردين وزوج أخت الشاه الصفوي، لكي يفرح بنصر الإسلام المبين.(٢)

أرسل الغوري رده على هذه الرسالة، وفيها عبر عن مدى فرحته بالفتح. وأخبر سليماً بأنه أعطى نقوداً لقاصده "جمال الدين يوسف القيطان " **لكي يشترى بعض الأخشاب اللازمة لبعض المصالح المهمة في القاهرة**" من العثمانيين، وطلب منه أن يرسل إليه بعض صناع الأخشاب أيضاً.(٣)

لم يوضح الغوري ماذا يريد بالخشب وصناعة صراحة، ولكنه اكتفى بالقول بأن شراء الخشب "**لبعض مصالحنا المهمة في القاهرة**". فهل أراد السلطان المملوكي أن يجهز المراكب للتصدي للعثمانيين في البحر الأبيض إن هم بدأوه بسوء؟ أم أنه كان يريد أن يستعد لفك حصار البرتغاليين الذي يهدد

---

(١) أحمد فريدون، المرجع السابق، ورقة ٥٧٣ب ــ ٥٧٦أ.

(٢) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٨٤ب ــ ٥٨٧أ.

(٣) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٨٧أ ــ ٥٨٨أ.

مواني المماليك ويزداد خطره بعد فشلهم في مواجهته من قبل؟ الاحتمال الأول أقرب إلى الصواب في نظري لأن الغوري لو كان يقصد التصدي للبرتغاليين لقال ذلك في رسالته صراحة لكي يفرح سليم، حيث الخطر البرتغالي يزيد مع الأيام وتأثيره على العثمانيين قائم. ربما أيقن السلطان المملوكي أن الدائرة ستدور عليه بعد أن هزم سليم الشاه إسماعيل الصفوي وقضى على علاء الدولة حليف المماليك، فأراد أن يجهز المراكب لكي لا يفاجئه العثمانيون وهو لم يستعد بعد. لقد كان قتل حاكم ذولقادر أكبر أنصار المماليك عند حدودهم الشمالية منذ أربعة أشهر تقريباً. بمثابة مؤشر ونذير بالخطر الذي ينتظر المماليك..

وعلى الرغم من أن الغوري في رسالته السابقة أخبر سليماً بأنه فرح لمقتل ويراش خان وأقام الزينات في القاهرة، حيث قال: "**ابتهجنا بهذه البشارة كل الابتهاج وزينا الأسواق بأنواع الأقمشة والديباج**"، إلا أنني اعتقد أن سلطان المماليك كظم غيظه وأسرها في نفسه حيث لم يمض طويل وقت على مقتل علاء الدولة، والذي يعتبر قتله بمثابة ضربة له لم يستطيع أن يرد عليها، أو هو ألزم نفسه بما جاء في مراسلاته السابقة مع سليم عندما أعرب له عن عدم اهتمامه بحاكم ذولقار وترك حرية التصرف للسلطان العثماني لكي يختار الطريقة التي ينتقم بها منه.

بعد أن قضى سليم على ويراش خان نصير الشاه إسماعيل وحاكم ماردين "**لإعلاء كلمة الموحدين**"، أرسل رسالة إلى الغوري يطلب منه الدعاء له ويرجوه أن يكلف الفقراء والصالحين من أهل الحرمين الشريفين ـ "**جرياً وراء العادة القديمة المأثورة عن أبيه**" ـ بالدعاء لله أن يزيد الدين الإسلامي قوة ومنعه. ويذكر له العمل الذي ينبغي على الأمراء والسلاطين القيام به تجاه "**القزلباش الملاحدة المفسدين أرباب البدع والكفر والضلال**". ويخبره بأنه

استولى على ديارهم "**ابتغاء مرضاة الله**". ويؤكد على المحبة التي نشأت بينهما إرثاً واكتساباً.[1]

الاستعداد للحرب:

أرسل سليم رسالة إلى الغوري في أوائل المحرم ٩٢٢هـ. وهذه الرسالة تعتبر رداً على رسالة سابقة كان الغوري قد أرسلها إلى سليم، يسأل فيها عن سبب منعه للتجار والعابرين بعد فتح البلاد الشرقية. يذكر السلطان العثماني في هذه الرسالة مسببات ذلك قائلاً أن قيامه بتأديب القزلباش لم يكن للطمع في ديارهم، ولكنه كان لإظهار أنوار النواميس الإلهية والشرائع المحمدية، ولذلك اكتفى بتفريق شملهم على ألا يعودوا إلى ما كانوا عليه. ولكنهم عادوا إلى سلوكهم القديم، فأغلق طريق التجارة الشرقية ليقطع عنهم الإمدادات، وقرر تفتيش القادمين من ديارهم ومنع العابرين إلهم. ويؤكد سليم على أنه ليس به طمع في أحد من سلاطين المسلمين أو في مملكته أو رغبة في إلحاق الضرر به.

يتحدث سليم في أواخر رسالته من منطق القوة، فيقول للغوري: "**إذا لم توافقوا على قيامنا بسحق أعداء الدين حسبما أوجب الشرع الشريف وأصريتم على موقف الخلاف من هذا الأمر، فليظهر حينئذ ما خفي من التقدير الرباني "والأمر يومئذ لله"**".[2]

(١) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ١٢٧أ – ١٢٨أ.

(٢) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٩٢أ – ٥٩٣ب.

ورغم أن سليماً طمأن الغوري في رسالته السابقة، على أنه لن يحدث بين البلدين ما يكدر الصفو، وأنه لا يطمع في الاستيلاء على بلد من بلاد المسلمين؛ إلا أن الغوري علم مبكراً بتجهيزاته واستعداداته وتأكد لبعد نظره من نواياه الحقيقية التي كانت ترمي للاستيلاء على بلاده، وذلك قبل أن يبدأ السلطان العثماني في التحرك إلى مصر بشهرين على الأقل. وقبل أن يتحرك صدره الأعظم بشهر واحد تقريباً. ومن المحتمل أن يكون هذا راجعاً إلى نشاط الجاسوسية الذي كان المماليك يميلون إلى الاعتماد عليه للتأكد من نوايا جيرانهم كما كان يفعل العثمانيون.

لم تتخدر أعصاب السلطان المملوكي بما جاء في تلك الرسالة، فقرائن الأحوال تشير إلى أن سليماً يريد مصر لا بلاد فارس، خاصة بعد أن قضى في جمادى الأولى ٩٢١ هـ (١٥١٥م) على إمارة ذولقادر المشمولة بحماية المماليك وأصبحت حدود دولته ملاصقة لحدود دولة المماليك. ويذكر ابن إياس في هذا الصدد أن الغوري تحالف مع إسماعيل الصفوي لأنه أحس بخطر العثمانيين، وأرسل إليه عدة أفيال "**في الخفية في خبر سر بينه وبين الصوفي**".[1]

بدأ الغوري يستعد لملاقاة ابن عثمان في حلب، فأخذ يجمع جنوده وعتاده. وفي تلك الأوقات العصيبة لم يتخل المماليك عن عبثهم ولم يقدروا خطورة الموقف الذي أوشك أن يعصف بهم جميعاً، فثار الجلبان في القاهرة لتأخر رواتبهم؛ الأمر الذي أغضب السلطان الغوري، فترك القلعة واعتزل في المقياس وقال للأمراء "**أنا ما بقيت أعمل سلطاناً، ولّوا عليكم من تختاروه غيري!**". وقد

(١) ابن إياس: المرجع السابق، جـ٥، ص٣٥.

استغل المماليك الجلبان هذه الفرصة وتمادوا في العبث ونهبوا الدكاكين في القاهرة، واستمروا "**يشوشون على الناس ويخطفون العمائم.. وحصل منهم الضر الشامل**". وأخيراً استطاع كبار الأمراء أن يسترضوا السلطان الغوري، فأنب المماليك قائلاً: "**لا تشمتوا العدو فينا، وابن عثمان متحرك علينا، ولابد من خروج تجريدة له عن قريب**".(١)

وفي فبراير ١٥١٦م (أول صفر ٩٢٢هـ) طلب الغوري من الخليفة العباسي أبو عبد الله المتوكل على الله الثالث (تولى ١٥٠٩م ، ٩١٤هـ) وقضاة المذهب السني الأربعة الاستعداد لمصاحبته في سفره إلى حلب عندما صعدوا إلى القلعة لتهنئته بحلول أول الشهر الهجري صفر.

يروي لنا حيدر چلبى كاتب الديوان المشهور، الذي عاصر سليماً وصحبه في فتح الشام ومصر، يوميات معارك السلطان العثماني مع المماليك، فيقول: "**عقد الديوان الهمايوني في أدرنه في ١٤ صفر سنة ٩٢٢هـ، وتقرر فيه التوجه لمحاربة الديار الشرقية {بلاد فارس}. صدرت الأوامر بالاستعداد للحرب**".(٢)

وعلى الرغم من أن السلطان العثماني كان ينوي فتح الشام ومصر حقيقة، إلا أنه أشاع أنه عازم على التوجه إلى بلاد فارس لمحاربة القزلباش، مما جعل حيدر چلبي نفسه يكتب ذلك في يومياته (روزنامه)، ولا يكتب الحقيقة. وكان

(١) ابن إياس: المرجع السابق، جـ٤، ص٤٨٤، جـ٥، ص٧.
د./ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ط١، ص١٨١، القاهرة ١٩٦٥.

(٢) انظر: حيدر چلبي: المرجع السابق، ورقة ١٣٥أ ـ ١٤١ب.

هدف سليم من ذلك ، أولاً: جعل اتفاق المماليك مع الفرس عديم الجدوى، وثانياً: تحقيق المباغتة لغريمه.

وبينما الغوري يقوم بالاستعداد للقاء العثمانيين ، وصلت إليه وهو لا يزال في مصر رسالة من خاير بك نائب حلب، يذكر له فيها أن السلطان العثماني ينوي محاربة الفرس. ومن الجدير بالذكر أن خاير بك كان على اتصال بالعثمانيين سراً منذ وقت مبكر.ويريد من وراء رسالته إلى الغوري أن يثبط همته لكي يتمكن السلطان العثماني من مباغتته والقضاء عليه. لم يركن الغوري إلى كلام نائبه على حلب رغم أنه لم يشك فى ولائه له. ولم يكتف خاير بك بهذا، بل أوعز إلى سيباى نائب الشام لكى يقنع السلطان المملوكي بأن العثمانيين لن يفكروا فى محاربة المماليك. انخدع سيباى بكلام زميله، وأرسل إلى الغورى رسالة بهذا المعنى، ضمنها شكواه من الغلاء الموجود بالشام وقلة المؤن وعدم جدوى سفر السلطان المملوكي إلى الشام حيث قال: "**وإن كان العدو متحركًا فنحن له كفاية**"[1]. وقد أشار سيباى فى رسالته إلى خيانة خاير بك، قائلا: "**والذي يعلم به مولانا السلطان أن خاير بك ملامى علينا**"[2] إلا أن الغورى لم يصدقه فيما قاله عن خيانة نائب حلب هذا.[3]

وبينما كانت استعدادات الغوري للحرب تسير سيرًا حثيثًا، أرسل إلى السلطان العثماني رسالة في أواخر شهر صفر ٩٢٢هـ يستفسر عن سبب توقف التجارة بعد فتح بلاد ذولقادر ويخبره بأنه تأكد من أن الدولة العثمانية تعد العدة لفتح الشام ومصر. ويسأله إذا كان لهذا الفعل سبب قوي يدعو لذلك لكي يقوم

(١) ابن إياس : المرجع السابق: جـ ٥، ص ٢٢
(٢) ابن إياس: المرجع السباق: جـ ٥، ص ٤
(٣) ابن إياس: المرجع السابق: جـ ٥، ص ٥

بمنعه، ويلتمس منه أن يرسل إليه رده على رسالته بسرعة إذا كان به طمع في بلاده حقيقة.[1]

على أن سليماً قبل أن يشرع في التحرك لمحاربة المماليك، فكر في شرعية فتح مصر، لأن فتوح العثمانيين السابقة كانت جلها في بلاد الكفر (أوروبا) أو في بلاد الملاحدة القزلباش (بلاد فارس وما يتبعها في الأناضول)، ومصر دول إسلامية سنية.

عقد السلطان العثماني مجلساً خاصاً أوضح فيه خطوط السياسة التي تتبعها مصر وأحوالها الداخلية ونوع الحكم فيها وعداءهم له. فقال الصدر الأعظم أحمد باشا ابن هرسك: **"سلطاني العظيم، ينبغي عليك أن تؤدب سلطان مصر بشن حرب عليه. فعندما أسرت في مصر، سمعت من كبار المسئولين الرسميين أنهم لا يدخرون وسعاً في العمل على محو الإمبراطورية العثمانية كلية". عقّب محمد چلبي ابن نشانجي خوجه على هذا الكلام قائلاً: "سلطاننا العظيم، إن ولاية الحرمين ومقام الخلافة سيؤولان إلى الأسرة العثمانية!". وبعد أن سمع "مفتي الأنام" شيخ الإسلام زنبللي علي أفندي (١٥٢٥م = ٩٣٢هـ)[2] كل هذا الكلام في المجلس الخاص، قال: "يعتبر ظهور العداء من جانب العدو داعياً للحرب، لهذا أفتى بشرعية التحرك على مصر وشن حرب**

(١) الوثيقة محفوظة في أرشيف طوبقپو سرايي باستانبول: تحت رقم E.12282.

(٢) وكلمة (زنبللي) مكتوبة طبق أصلها التركي. وهي مكونة من الكلمة المجردة (زنبل) وهو معروف في العربية، ثم اللاحقة التي تشبه ياء النسبة في العربية أو تدل على الحرفة، وهي (لي) والكلمة كلها بمعنى: حامل الزنبيل. هو علي جمالي أفندي المشهور بين الناس بزنبللي علي أفندي (Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt, s. 666)

عليها، لأن أهلها قطاع طرق. والحرب والقتال معهم غـزو وجـهاد، قاتلـهم غازي ومرابط، والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد".[١]

وفي ٢٥ ربيع الأول ٩٢٢ هـ عبر الصدر الأعظم سـنان باشـا مـن استانبول إلى أسكدار متجهاً نحو البلاد الشرقية على حد قـول حيـد چلبـي.[٢] وعندما وصل إلى قيصرية، جاءه الأمر من السلطان بالتمركز فيها لحين صدور أوامر أخرى.

أمر الغوري عساكره بالخروج قبله إلى الريدانية. وأثناء تمركـزه فـي العباسية، جاءته رسالة من خاير بك تنم عن الخديعة التي دبرها سليم العثمـاني وعميله خاير بك، فقد أوضح خاير بك أن قاصداً جاءه من قبل السلطان العثماني للتفاوض في أمر الصلح، ومع رسالة خاير بك كتاب من السلطان سليم كله ألفاظ رقيقة منمقة ففيه يقول سليم للغوري: "أنت والدي وأسألك الدعـاء، وإنـي مـا زحفت على بلاد علاء الدولة إلا بإذنك، وكان قتله عين الصواب، وأما التجـار الذين يجلبون المماليك الجراكسة فإني ما منعتهم وإنما هم تضرروا من معاملتكم (العملة أو النقود) في الذهب والفضة، فامتنعوا عن جلب المـماليك إليكـم، وأن البلاد التي أخذتها من علاء الدولة أعيدها لكم، وجميع ما ترونه ويريده السلطان فعلناه".[٣]

---

(1) Muallin Fuad Gücüyener: Geçen Eser, cilt 1, s.128-130.

Abdulkadir Altunsu: Osmanli, Şeyhulislamlari, s. 14 Ankara 1972

(٢) حيدر چلبي: المرجع السابق، ورقة ١٣٥=١٤١

(٣) د. إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكة، ص ١٧٧ الخرطوم ١٩٥٩ نقلاً عن: ابـن إياس: المرجع السابق، جـ٣، ص٢٠.

تحرك السلطان الغوري من مصر إلى الشام في ١٨ مـــايو ١٥١٦م (١٥ ربيع الآخر ٩٢٢هـــ) وكان معه الخليفة والقضاة الأربعة، بعد أن أنـــاب عنـــه أثناء غيبته الأمير طومان باي. ثم وصل إلى حلب في ١١ يوليو ١٠ جمـــادى الثانية، وهناك اعتـــدى جيش المماليك على الأهالي بوحشية. وكان ذلك سـببا ـــ فيما بعد ـــ في قيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة، لشدة ما حـل بهم من الضرر منهم.[١]

تحرك السلطان العثماني من قصر طوپقپو سرايي في يـــوم الخميـس ٥ يونيو ١٥١٦م (٢٤ جمادي الأولى ٩٢٢هـــ) وقبل تحركه بيوم واحـــد أرســل رسالة إلى الغوري رداً على الرسالة السابقة التي أكد فيها الغوري على ما يزمع السلطان العثماني القيام به من غزو لبلاده.

يقول سليم في رسالته التي حملها رسولاه مع بعض التحف والهدايا التـــي كانت عبارة عن أواني وأقمشة كثيرة: **"إن الطائفة الطاغيـــة والفئـــة الباغيـــة (القزلباش) التي اجتمعت في البلاد الشرقية، حصلت منها أذية للعباد وتخريـب للبلاد وسفك الدماء المحصنة. فلا جرم تضاعفت الأجور في غزوهم وجهادهم. ونروم حسمهم واستئصالهم. ولقد كنا نزلنا في السنة الماضيـــة علـــى رأس رئيسهم (إسماعيل الصفوي)، لكنه نجا برأسه من حومة الوغي (في معركـــة چالديران)، وتشبث بيد الفرار. فلم نحسم في البلاد مادة شرهم ولم يأمن الناس من بقية شرهم، بل تدب عقاربهم إلى المسلمين. فلزم لهمتنا أن تثبـــت قـــدم الإقدام وتهتم بأمر الانتقام. فجهزنا لهذا المهم عسكراً جراراً، ينقضون علـــى الخصوم عند اللقاء والهجوم"**. ويلتمس سليم من الغوري في نهاية رسالته إمداده

---

(١) الوثيقة محفوظة في أرشيف طوپقپو سرايي، باستانبول تحت رقم E.11634.

بصالح الدعوات، وإرسال الخبر إلى أهل الحرمين المعظمين المبجلين في أمـــر السؤال بالتضرع والابتهال، لإعلاء كلمة الله العليا.[1]

كان سليم يريد الاستيلاء على السلطنة الملوكية حقيقة، وما كان يريـــد أن يحارب القزلباش كما ذكر. وإن ما قاله السلطان العثماني في رســـالته الســـابقة ليطمئن به الغوري، كان لمجرد التمويه عليه، ولزيادة التمويه أرسل إليه تحفـــاً وهدايا مع الرسالة، كما التمس منه في نهايتها الدعوات الصالحة له، لئلا يـــأخذ حذره ويستعد الاستعداد الملائم لمعركة قد تكون فاصلة. وقد آثـــر ســـليم هـــذه الطريقة، لأنه كان يخشى المماليك وقوتهم، ويحسب حساب ذلك. فلا تزال فـــي ذاكرته انتصاراتهم المتكررة على العثمانيين أيام آبائه وأجداده، على الرغم مـــن تغير ميزان القوى في المنطقة لصالح العثمانيين بعد معركة چالديران وهزيمـــة الصفوي وفراره.

وعندما وصل السلطان العثماني إلى قونية أرسل إلى الغوري رده علـــى الرسالة التي كان قد أرسلها إليه مع جمال الدين يوســـف القيطـــان فـــي العـــام الماضي ٩٢١هـــ.

يخاطب سليم الأول الغوري في رده إليه الذي حمله القيطان، قائلاً: "**حامي الحرمين المكرمين المبجلين المعظمين نصير الإسلام والمسلمين ظهير أمـــير المؤمنين أبوى سلطان غوري أعز الله تعالى أنصاره.. صدرت أوامرنا العاليـــة للخشب الباقية من السنة الماضية التي لم يسع حملها جفانكم أن يقبض كلـــها قيطانكم. وأما بخصوص صناع الخشب، فاحتجب هذا المطلب لعذر قوي، وهـــو**

(١) جلال زاده قوجه نشانجي مصطفى: المرجع السابق، ورقة ١٢٥أ ــ ١٢٧ب.

أن آراءنا الصائبة اقتضت أن نعمر مائة مركب كبير لتخريب بيوت من قالوا: "اتخذ الله ولداً".. والمقام العالي ينبغي أولاً يحمل ذلك على التقصير والفتور وغور ماء الحب الموفور وخمود جمر الود المبرور.[1]

رد الغوري على رسالة سليم، قائلاً: "وردت رسالتكم واطلعنا على ما فيها من التحية والسلام، فوجدنا مضمونها منبئاً عن توجهكم العالي إلى البلاد الشرقية لدفع الملاحدة القزلباشية، فشاورنا أمراءنا في القاهرة فاتفقوا بالآراء الصائبة على أن نتوجه إلى تلك الحدود بالعساكر والجنود لنصلح بينكم. فعزمنا بالمسير والرحلة نحو الحلب والشام. فالمرجو من خصائلكم الحميدة ألا تسارعوا إلى التوجه إلى تلك الولاية لأن أكثر أهلها أهل السنة والجماعة وأغلبهم خيار علماء هذه الأمة. وقد سمعنا من أكثر الواردين من هذه الديار إلى الحرمين الشريفين أن إسماعيل الصفوي المخذول لما هرب عن محاربتكم الشديدة قرر بنفسه اللئيمة ألا يتقابل معكم قط. فإذن لا تظهر الفائدة في توجهكم إلى دفع حيلة غير مضرة الرعايا.

والمناسب لنا أن نصلح بينكم لرفاهية الأنام، على أن لكم مهمات كثيرة غير هذه مثل فتح رودوس وأمثالها. وقد أرسلنا قدوة الأماجد محمد البيغا إلى سدتكم السنية لتمهيد أسباب المصالحة".[2]

يبدأ سليم الرسالة السابقة باستعراض لقوته وتسخيرها في سبيل الله ونصرة دينه على غير العادة في الرسائل التي سبقتها.

---

(١) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٨٨ب ـ ٥٩٠ب.

(٢) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٩٠ب ـ ٥٩٢أ.

وهذه الرسالة تعتبر رسالة تمويه وتضليل كالرسالة السابقة عليها، فلهجتها رقيقة يصف فيها السلطان العثماني الغوري بأنه أب له كالعادة. ويخبره بأنه سارع إلى قبول طلبه الخاص بالخشب على قدر ما قدر الله ويسر.

ويعتذر له بعذر قوي ـ "والعذر عند كرام الناس مقبول" ـ عن إرسال صناع الخشب إليه، لأنه يبني مراكب كبيرة لتخريب بيوت الكفار.

أرسل سليم هذه الرسالة إلى الغوري من مدينة قونيه بعد أن تأكد له أن السلطان المملوكي لن يشك في نواياه نحوه، حيث أن السلطان العثماني مر بنفس المكان وهو في طريقة إلى بلاد فارس منذ عامين تقريباً لقتال إسماعيل الصفوي، ولا يمكن الجزم من هذا المكان بالاتجاه الذي يريد السلطان العثماني أن يسلكه، هل يريد التوجه إلى الغوري أم إلى الصفوي؟!

ومن المحتمل أن يكون تأخر سليم في رده على الغوري ـ حيث كان خطاب الغوري إليه منذ ثمانية أشهر ـ مقصوداً، لتأخير إرسال الأخشاب التي طلبت لكي لا تبنى بها سفن على عجل وتستعمل ضد العثمانيين إن هم شنوا على المماليك حرباً.

بعد أن تحرك سليم لمحاربة الفرس بوقت قصير، أرسل للشاه إسماعيل الصفوي أربع رسائل متوالية، كانت كلها عبارة عن تهديد له ووعيد بيوم اللقاء. وقد اختلفت هذه الرسائل كثيراً في لهجة التهديد التي أخذت تزداد حدتها كلما اقترب يوم الصدام بين الطرفين. وعلى هذا لم يُباغت الشاه إسماعيل أو يفاجأ أو يتشكك في نوايا ابن عثمان.

وعندما أراد السلطان العثماني التوجه لمحاربة الغوري نشر الأخبار الكاذبة عن وجهته الحقيقية مدعياً أنه عازم على محاربة الفرس، كما أرسل إلى الغوري رسائل مليئة بالألفاظ المعسولة مصحوبة بالتحف والهدايا، للتمويه عليه وتضليله والتأكيد له على عزمه على التوجه إلى البلاد الشرقية لمحاربة القزلباش.

رد الغوري على رسالة سليم برسالة تدل على مكر شديد وعدم انخداع بالتمويه الذي قام به السلطان العثماني. فذكر له أنه شاور أمراء ديوانه في القاهرة بخصوص ما جاء في رسالة سليم الأول، علماً بأنه كان في ذلك الوقت بالشام وليس في مصر يعد العدة ويرتب الصفوف للقاء مرتقب مع جيوش العثمانيين. أخبر السلطان المملوكي سلطان العثمانيين بأن آراء الأمراء اقتضت التوجه بالعساكر إلى الشام وحلب لكي يصلح بين العثمانيين والصفويين لرفاهية الأنام. ولا شك أن الغوري قصد من هذا أن يموه هو أيضاً على سليم، ولا يخبره بنواياه الدفاعية عن بلاده واستعداداته لاحتمال نشوب الحرب بينهما، فما لزوم العساكر إذا كان قصد الغوري العمل على عقد صلح بين سليم والصفوي؟! أوهم السلطان المملوكي سلطان العثمانيين في رده بأنه صدق ما جاء في رسالته إليه من أنه ينوي محاربة الفرس لا المماليك.

وفي ١٠ جمادى الثانية ٩٢٢هـ وصل الغوري إلى حلب.

وفي ٢٦ جمادى الثانية (٢٧ يوليو) بدأ سليم يدخل الأراضي التابعة للمماليك، فوصل إلى "عين سلطان" من توابع بلاد العرب. وأصبح بهذا لا يستطيع التمويه على الغوري مرة أخرى، فقد أصبحت وجهته واضحة ومعروفة، ولم يعد هناك مجال للشك فيها. ويمكن الاستدلال على عزم السلطان العثماني الحقيقي على محاربة المماليك، بعد أن ترك قونية وسلك طريقاً آخر

إلى الشمال الشرقي غير الطريق الذي سار فيه بعد أن وصل إلى قونية في المرة السابقة عندما أراد أن يحارب إسماعيل الصفوي.

سار سليم إلى الشمال الشرقي هذه المرة لكي يتجنب عبور جبال طوروس الشاهقة، ثم اتجه إلى الجنوب عندما بلغ طرفها الشمالي، ووصل إلى ألبستان.[١]

ويبدو أن السلطان العثماني أحس من رد الغوري على رسالته السابقة ومن المعلومات الواردة إليه من جواسيسه عن تجمعات للجيش المملوكي في حلب بأن السلطان المملوكي يعلم بكل تحركاته ونواياه، فكان أن هدده في الرسالة التالية صراحة وأعلنه بالحرب.

أرسل سليم رسالة التهديد هذه وهو عند وادي توجان في أواسط رجب ٩٢٢هـ. وفيها يلوم الغوري على أفعاله، ويظهر له عدم خوفه منه مهما فعل. ويذكر له أنه كان متوجهاً أصلاً إلى الديار الشرقية، ولكنه عدل عن ذلك وتوجه إلى الديار المملوكية نظراً لما علم به من تحالف الغوري مع إسماعيل الصفوي. ثم يتحدى سليم الغوري ، ويقول له إننا استولينا على بعض ديارك وهي ملطية ولارنده وديوركي وشاركوي وجميع توابعها، ومتوجهون الآن إليك. ويخاطبه باستفزاز وتحد شديد اللهجة فيه استعراض للقوة وتعبير عن الغيظ، حيث يقول له: "**إن كانت لديك ذرة من الحمية وقدر من الرجولة ونصيب من الفتوة وفي قلبك جرأة وشجاعة خاصة، فلا تنزو في زاوية الخوف والرعب. واستعد أنت وجميع أعوانك وأنصارك، ولا تهرب من جرح السيف والطبر**". ويبلغ التحدي والاستفزاز مداه حين يقول: "إذا ظهر أمامك أي موقف يسهل عليك اتخاذه، فلا

(١) عندما تحرك سليم لمحاربة الفرس ٩٢٠هـ، مر بأسكدار ثم إزميد فقونية، واتجه بعد ذلك نحو الشمال الشرقي فمر بسيواس وأرزنجان فأرضروم وطرابزون..

تتأخر في السعي إليه. وإذا كانت لديك ذرة من الحمية، فعليك أن تعين الأسلوب الذي تريده والقصد الذي تبغيه، وأن تحدد المكان الذي تقصد إليه، لكي تلاقي جنودي الذين تعودوا على النصر".[1]

معركتا مرج دابق والريدانية:

التقى الجيشان المملوكي والعثماني في ضحى يوم الأحد ٢٤ أغسطس ١٥١٦م (٢٥ رجب ٩٢٢هـ) في مرج دابق، ودارت بينهما معركة طاحنة، لعبت فيها خيانة خاير بك دورها، حتى هزم المماليك وسقط سلطانهم الغوري ميتاً. ولاحت بشائر النصر العثماني في عصر اليوم نفسه بعد ثماني ساعات من بدأ القتال تقريباً[2].

قابل أعيان حلب ومشايخ قبائلها السلطان سليم وعرضوا عليه الطاعة والولاء وسلموه مفتاح القلعة.[3] دخل السلطان المدينة في يوم الجمعة غرة شعبان (٢٩ أغسطس)، وأقام صلاة الجمعة في جامع الملك الظاهر.

قرئت الخطبة باسم السلطان العثماني، وقد وصفه الخطيب بأنه "مالك الحرمين الشريفين"، فنهض سليم من مكانه واقفاً، وقال: "من أنا حتى أكون مالكا للحرمين، إنني افتخر بأن أكون خادم الحرمين لا مالكهما".[4]

(١) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٩٣ب ـ ٥٩٤أ ، ب.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر: د. أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته.

(٣) جلال زاده قوجه نشانجي مصطفى: المرجع السابق، ورقة ١٣٢أ.

(٤) أحمد راسم: المرجع السابق، حاشية ص٢٩٦ ، ٢٩٧.

وبعد ذلك أخذت بلاد الشام تتساقط الواحدة تلو الأخرى في أيدي السلطان العثماني دون مقاومة حتى وصل إلى دمشق. وفي ١٥ شوال (١٠ نوفمبر) أرسل سليم وهو في دمشق رسالة إلى سلطان المماليك الجديد طومان باي، يطلب منه أن يجيء هو ومن معه إلى عتبته السنية ليعرضوا الطاعة والولاء، ويطمئنه على مستقبله، ويذكر له في نهاية الرسالة أنه أرسل إلى جان بردي الغزالي في غزة بنفس الخصوص، لكي يقدم ومن معه الطاعة والولاء.[١]

لم يجد سليم مفراً من إكمال مهمته بعد رفض طومان باي لمطالبه الخاصة بإعلان الطاعة والولاء حقناً للدماء. ويذكر ابن زنبل أن السلطان سليماً لم يكن ينوي فتح مصر، فبعد أن استولى على دمشق، فكر في العودة إلى بلاده، لولا تحريض خاير بك.[٢]

وفي ٢٦ ديسمبر (٢ ذي الحجة) تلاقى القائد العثماني سنان باشا مع جان بردي الغزالي في جلجولية بالقرب من غزة، ودارت بينهما معركة حامية انتهت بهزيمة جان بردي وفراره.

تذكر المصادر التركية المعاصرة للفترة أن الغزالي هرب بعد هزيمته في غزة،[٣] وتذكر المصادر العربية التي عاصرت الفترة نفسها أن الغزالي أسر ولكنه تمكن من الفرار فيما بعد أو بالأحرى سُهل له الفرار على ما يبدو، نظراً

---

(١) جلال زاده قوجه نشانجي مصطفى: المرجع السابق، ورقة ١٣٣أ ــ ١٣٥ب.

(٢) ابن زنبل: المرجع السابق، ص٤٢.

(٣) مترقجي نصوح: فتح نامة ديار عرب، مخطوط وحيد في مكتبة نور عثمانية في استانبول، رقم ٤٠٨٧، ورقة ٢٦أ
حيدر چلبي: المرجع السابق، ورقة ١٤٣أ ــ ١٦٠ب.
جلال زاده قوجه نشانجي مصطفى: المرجع السابق، ورقة ١٣٦أ ، ب.

لثبات تواطئه مع العثمانيين. وقد اطلع الغزالي خاير بك على خطة طومان باي العسكرية وعلى الطرق التي يجب على السلطان سليم اتباعها لقهر المماليك، وذلك قبل المعركة الحاسمة في الريدانية.(١)

يقول السلطان سليم في رسالة الفتوح التي أرسلها إلى ابنه الأمير سليمان في معرض حديثه عن معركة غزة: **"أبدى جان بردي المذكور بعض مظاهر الإخلاص في هذه النواحي (غزة)، ثم تراجع وهرب إلى مصر، والتقى بطومان باي".(٢)**

يبدو من كلام سليم أن الغزالي ساعد على انتصار العثمانيين في غزة، ثم تراجع بعد أن تحقق النصر للعساكر العثمانية وهرب إلى مصر. وربما رجع إلى مصر ليعمل من وراء خطوط المماليك لصالح الجيش العثماني. ولو لم تحدث من الغزالي خيانة لما كرمه السلطان العثماني وأخلع عليه عندما ذهب إليه يعرض الطاعة والولاء بعد دخوله القاهرة، ولما أعطاه بعض الأمراء هدايا ثمينة بعد انتصار سليم على طومان باي في المعارك التي دارت في الريدانية وفي داخل مدينة القاهرة.(٣)

---

(١) ابن زنبل: المرجع السابق، ص٤٥ ، ٤٦.
ابن إياس: المرجع السابق، جـ٥ ، ص١١٨ ، ١٢٨ ، ١٢٩.
ابن طولون: إعلام الورى (تحقيق عبد العظيم خطاب) ص٢١، القاهرة ١٩٧٣.

(٢) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٩٤ب ـ ٥٩٨ب.

(٣) جلال زاده قوجه نشانجي مصطفى: المرجع السابق، ورقة ١٤١أ.
منجم باشي أحمد دده: المرجع السابق، ورقة ١١٨٥أ.
حيدر جلبي: المرجع السابق، ورقة ١٥٠أ.
ثلاث وثائق محفوظة في أرشيف طوبقبو سرايي بإستانبول: تحت رقم D.9682.

وفي يوم الخميس ٢٢ يناير ١٥١٧م (٢٩ ذي الحجة ٩٢٢هـ) تلاقى الجيشان المملوكي والعثماني في الريدانية. ودارت بينهما معركة حامية، انتهت بهزيمة المماليك وفرار سلطانهم. ولكنه عاد ودخل القاهرة مع جنوده، ودارت بينه وبين العثمانيين عدة معارك داخل المدينة. نجح سلطان المماليك نجاحاً مؤقتاً في قتاله، ولم يستطع أن يستمر في القتال رغم ما أحرزه نظراً لانفضاض الجراكسة من حوله، فولى هارباً مرة أخرى. ثم عاود الكرة، وبعدها ولى هارباً، ولجأ إلى حسن بن مرعي في مدينة سخا بالغربية. وقد أبلغ ابن مرعي السلطان سليم عنه، وتم القبض عليه، وشنقه على باب زويلة في ١٣ أبريل ١٥١٧م (٢١ ربيع الأول ٩٢٣هـ).[١]

انضمام الحجاز إلى الإمبراطورية العثمانية، وتسليم الآثار النبوية الشريفة:

أمر السلطان سليم بكتابة "رسائل للتبشير بالفتح ومنح الأمان مصحوبة بفرمانات" إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة وينبع،[٢] في يوم الجمعة ١٣ فبراير ١٥١٧م (٢١ المحرم ٩٢٣هـ) قبل دخوله القاهرة بيومين، بعد قيام جنوده بتطهيرها. وبعد أن استتبت الأمور لسليم في القاهرة، أرسل شريف مكة زين الدين بركات (حكم ١٤٩٧ ـ ١٥٢٥م) ابنه أبا الحسن ومعه مشايخ طوائف

---

(١) وصل الأسطول العثماني إلى شواطئ الإسكندرية بعد دخول السلطان سليم مصر، وقد حمل هذا الأسطول العائد إلى استانبول: الخليفة العباسي المتوكل و٢٠٠٠ من التجار المصريين المشاهير والفنيين ورجال الدين. (Stanford Show: Op. Cit., P. 85)

(٢) حيدر جلبي: المرجع السابق، ورقة ١٥٠أ

الأعراب للتهنئة بالفتح وعرض الطاعة والولاء، فأخلع السلطان عليهم وأحسن إليهم جميعاً.[1]

بعد أن قبل السلطان سليم طاعة شريف مكة زين العابدين بركات التي قدمها ابنه، أرسل إليه الشريف ابنه الأكبر محمد أبا نمي يطلب خلعته وإبقاءه في حكم بلاده. وعندما علم سليم بقدوم محمد أبي نمى إلى القاهرة في يوم الجمعة ٣ يوليو (١٣ جمادى الثانية)، أمر بإرسال الأغوات لاستقباله. وفي يوم الاثنين استقبل السلطان ابن شريف مكة استقبالاً حافلاً. وبعد ستة أيام قدم محمد أو نمى الطاعة والولاء وبعض الهدايا للسلطان سليم.[2] ثم سلمه مفاتيح الأماكن المقدسة والآثار النبوية الشريفة الموجودة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.[3] وهكذا

---

(١) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة ٥٩٤ب ــ ٥٩٨ب.

(٢) حيدر جلبي: المرجع السابق، ورقة ١٤٣ ــ ١٦٠.

(٣) مترقجي نصوح: المرجع السابق، ورقة ٦٦أ ، ب.

بعض الآثار النبوية الشريفة التي حملها ابن شريف مكة وسلمها إلى السلطان سليم في القاهرة:

البردة النبوية الشريفة	نعلا النبي صلى الله عليه وسلم
مقبض سيف النبي صلى الله عليه وسلم	سهم النبي صلى الله عليه وسلم
بيرق السعادة النبوي ومحفظته	سجادة النبي صلى الله عليه وسلم
مرجل إبراهيم عليه السلام وغطاء فضي لمقامه	
قدر نوح عليه السلام	سيف داود عليه السلام
قميص يوسف عليه السلام	عصاتا شعيب عليه السلام
سجادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه	عمامات الصحابة رضوان الله عليهم
سيوف الصحابة رضوان الله عليهم	ألوية الصحابة رضوان الله عليهم
مسابح الصحابة رضوان الله عليهم	لواءا الحسن والحسين رضوان الله عليهما
نسخة من القرآن الكريم بخط علي رضي الله عنه	
نسخة من القرآن الكريم بخط زين العابدين رضي الله عنه	

سيف جعفر الطيار رضي الله عنه　　　　سيف خالد بن زيد رضي الله عنه
سيف شرحبيل بن حسن رضي الله عنه　　　　تاج أويس القرني رضي الله عنه
مقبض السيوف الستة الخاصة بالعشرة المبشرين بالجنة
مفتاح مكة المكرمة　　　　قبيعة سيف
(أحمد راسم: المرجع السابق، حاشية ص٢٢٩ ــ ٢٣١)

لاتزال بعض هذه الآثار النبوية الشريفة التي جاء بها السلطان سليم والتي أتى بها آخرون من سلاطين العثمانيين من بعده، محفوظة حتى اليوم في جناح الأمانات المقدسة (أمانات مقدسه دائره سى) بمتحف طوبقبو سرايي بأستانبول، وهي: سيفا النبي صلى الله عليه وسلم وقوساه، وسيوف الصحابة رضوان الله عليهم.

البيرق الشريف: يعتبر البيرق الشريف من أهم الأمانات المقدسة، ويطلق عليه العثمانيون (سنجق شريف). كان السلاطين العثمانيون وقوادهم يحملون هذا البيرق عندما كانوا يخرجون على رأس جيوشهم للحرب.

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم التي بعث بها إلى المقوقس عظيم القبط في مصر (عثر الفرنسي بارتلمي Barthlemy على هذه الرسالة التي كتبت سنة ٦٢٧م بين صفحات إنجيل قديم في أحد الأديرة في مصر سنة ١٨٥٠م، وعندما علم بحقيقتها قدمها إلى السلطان عبد المجيد)

أثر قدم النبي صلى الله عليه وسلم على المرمر: (عثر أحد قواد الجيش العثماني ويدعى أحمد بك على هذا الأثر في طرابلس الغرب، وقدمه إلى السلطان عبد المجيد في استانبول ١٨٤٧م، فكافأه السلطان بمائة وأربعة عشر قرشاً).

سنة النبي صلى الله عليه وسلم: (عبارة عن جزء من إحدى أسنان النبي كسرت أثناء معركة أحد).

شعرة من لحية محمد صلى الله عليه وسلم.

البردة النبوية الشريفة: (أحضرها السلطان سليم الأول بعد أن فتح مصر) وهى أثمن هذه الآثار ويحتفظ بها الأتراك حاليا فى صندوق من الذهب الخالص خلف القضبان فى الجناح المذكور.

ختم محمد صلى الله عليه وسلم

تراب من قبر محمد صلى الله عليه وسلم

محفظة الحجر الأسود من الذهب، وأخرى من الفضة (لا يعرف أي السلاطين العثمانيين أمر بصنعهما ولا أيهم أتى بهما إلى استانبول)

مصراع باب التوبة: (أحضره السلطان مراد الثالث إلى استانبول سنة ١٥٩٢م بعد أن وُضع آخر مكانه)

نسخة من القرآن الكريم بخط عثمان بن عفان: (مكتوبة على رق غزال وعليها قطرات من الدم من أثر طعنة السيف التي تلقاها عثمان عندما كان يقرأ فيها. وهذه النسخة أهداها السلطان جقمق المملوكي إلى السلطان مراد الثاني في ٢٠ ذي الحجة سنة ٨٤٣هـ).

أقفال كثيرة للكعبة، بعضها كان من إهداء السلطان بايزيد الثاني.

أصبحت الحجاز تابعة للإمبراطورية العثمانية[1].

أقر سليم حكم الحرمين الشريفين على ما هو عليه، وبعث مع محمد أبي نمى رسالة بالعربية إلى أبيه، تتضمن الموافقة على أن يكون حكم مكة في الشريف بركات وابنه الأكبر محمد من بعده.[2]

السلطان سليم يفكر في جعل الدين الإسلامي ديناً للإمبراطورية والعربية لغة لها:

بدأ السلطان رحلة العودة إلى استانبول في يوم الخميس ١٠ سبتمبر ١٥١٧م (٢٣ شعبان ٩٢٣هـ) بعد أن قضى سبعة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً بالحساب الهجري. ووصل إلى استانبول في يوم الأحد ٢٥ يوليو ١٥١٨م (١٧ رجب ٩٢٤هـ).

وبعد عودة السلطان سليم من فتح الشام ومصر، ارتأى له أن يجعل جميع المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية يهتدون بالإسلام بالقوة أو عن طريق الإقناع. وقد ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث فكر في أن يتخذ من العربية لغة للإمبراطورية كافة.

ثلاثة مزاريب: (أحدها من الفضة أمر بصنعه سليمان القانوني، وآخر من الذهب أمر بعمله أحمد الثالث، والثالث من الفضة صنع في عهد مراد الرابع، ولا يعرف من أتى بها إلى استانبول بعد أن أهديت إلى الحجاز)
Kemal Çiğ: Topkapi Müzesi Mukaddes Emanetler Resimli Rehberi, s. 3-45. Istambul 1950

(١) انظر خريطة "الامبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليم الأول" ضمن قسم الخرائط واللوحات رقم(١٦).

(٢) جلال زاده قوجه نشانجي مصطفى: المرجع السابق، ورقة ١٤٣ب ، ١٤٤أ.

ولكن شيخ الإسلام علي جمال أفندي (المشهور بين الناس باسم زنبللي علي أفندي) ت ١٥٢٥م = ٩٣٢ هـ) اعترض على ذلك، قائلاً: إن خطوة كبيرة كهذه لا يمكن أن تتخذ دون صدور فتوى بشأنها. إن حرية الوجدان والعقيدة التي منحت من قبل السلطان محمد الفاتح، لا يمكن أن تلغى. وبعد نقاش طويل وحاد تضمن سرداً للقصص المروية التي تواترت في هذا الموضوع، ارتاب السلطان سليم في صحة هذه الحريات. فجاء جمالي أفندي في حضرة السلطان بثلاثة من الانكشارية الذين خدموا كجنود في عهد الفاتح، وأصبح عمر الواحد منهم يفوق القرن من الزمان، ثم سألهم لكي يدلوا بشهادتهم، فأقروا جميعاً بأن هذه الحقوق منحت في ذلك العهد. وعند ذلك تخلى السلطان سليم عن رغبته ومنيته في توحيد عقيدة الإمبراطورية العثمانية بالقوة.[1]

تغيير اتجاه الفتوحات في عهد السلطان سليم الأول:

كانت فتوحات الدولة العثمانية قبل عهد سليم الأول تتجه نحو البلقان وأوروبا (بلاد الكفر)، ثم بدأت في عهد سليم تتحول جدياً نحو الشرق والجنوب لأول مرة في تاريخها. لقد كان شاغل "الأمير سليم" أيام أن كان والياً على طرابزون على عهد أبيه، هو الخطر الصفوي الزاحف تجاه وسط الأناضول في صميم أملاك الدولة العثمانية؛ لهذا بذل كل ما في وسعه بعد أن اعتلى العرش

(1) Halide Edib: Op. Cit., P. 24.

كان علي جمالي أفندي يعارض السلطان سليم أحياناً، رغم عنف الأخير وإقدامه على البطش والقتل بسرعة. ويواجهه في بعض المواقف بأحكام الشرع الشريف، ويقنعه برأيه في كثير من الأوقات. وكان يتحمل غضب السلطان وانفعاله الشديد بحكمة وروية.

انظر: (Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt. I, s. 666-668)

خلفاً لأبيه، لكي يوقف هذا الزحف الذي كان خطراً يهدد الدولة العثمانية من جهة الشرق.

أدت دعوة الصفويين إلى المذهب الشيعي في شرق الأناضول إلى نمو روح العصيان بين الناس في تلك المناطق وانتشار المذاهب والمشارب المختلفة بينهم. وهدد المذهب الشيعي الأسرة العثمانية نفسها، فقد وقع تحت تأثير الدعاية لهذا المذهب الأميران شهنشاه ومراد ابنا الأمير أحمد أخي السلطان سليم. وهذا معناه تهديد الدولة العثمانية من الداخل فضلاً عن تهديدها من الخارج، هو تهديد سياسي لها من داخلها فضلاً عن أنه تهديد ديني لها من خارجها.

كان الوضع إذن يستوجب من سليم أن يتخذ خطوة حاسمة لردع الصفويين الذين استشرى خطرهم.

وأول شيء قام به السلطان سليم هو إحكام الحصار حول القزلباش في الأناضول، ثم أعمل فيهم القتل بعد أن استصدر فتوى من المفتي بوجوب قتل القزلباش لأنهم ملاحدة خارجون على الدين الإسلامي.

توجه السلطان العثماني لقتال الصفويين في بلاد فارس، وقد تمكن من دحرهم في موقعه چالديران، ثم تقدم بعدها حتى استولى على عاصمة ملكهم تبريز. وبعدها، اضطر إلى الرجوع إلى بلاده بسبب تمرد الانكشارية عليه عدة مرات لتمسكه بتتبع الشاه إسماعيل الذي لم يثبت أمامهم وهرب بعيداً في الجبال

وفي المناطق الوعرة. وهناك سبب آخر يسوقه "أحمد أسرار" عن سبب انسحاب سليم من بلاد فارس وهو خوفه من هجوم مملوكي مرتقب.(١)

وهكذا لم يضع النصر في چالديران نهاية للأسرة الصفوية، ولكنه أضعفها وأوقع عليها الجزاء، وأوقف الخطر الشيعي في الأناضول وجعله ينحسر عن هذه المنطقة ويعود إلى موطنه الأصلي بلاد فارس.

لم يقبل سليم عقد صلح مع الشاه إسماعيل الصفوي بعد معركة چالديران، لأنه كان يريد أن يعود إلى الحرب معه مرة أخرى بعد فتح مصر على حد قول إسماعيل حقي أوزون چارشيلي. عندما وصل السلطان العثماني إلى دمشق أثناء عودته من فتح الشام ومصر، جاءته رسالة من الشاه مصحوبة ببعض الهدايا، مؤداها: **"ملكت كثيراً من البلاد والتبعة. استوليت على مصر خاصة، وأصبحت "خادم الحرمين الشريفين". والآن أرضك أرض الإسكندر. لقد زال ما كان بيننا، ولن يعود مرة أخرى. عد إلى مملكتك، وأعود إلى مملكتي. فلنصن دماء المسلمين سوياً. إنني سأحقق رغبتك ومنيتك أياً كانت".**

لكن السلطان العثماني لم يطمئن إلى هذه الرسالة المعسولة، ولأن جنوده تعبوا لطول معركتهم مع الچراكسة فإنه لم يتوجه بهم إلى بلاد فارس، واكتفى وهو عند مرج دابق أثناء عودته بإرسال الصدر الأعظم پيري محمد باشا على رأس ألفي جندي إلى ديار بكر لمراقبة تحركات الشاه عن قرب. وصل الصدر الأعظم إلى الفرات الأعلى، واطمأن على استقرار الأحوال هناك عند الحدود مع الصفويين، ثم عاد ولحق بالسلطان سليم في الأناضول.(٢)

(1) Ahmet Asrar: Osmanli Devletinin Dini Siyaseti ve Islam Alemi, s. 25 Istanbul 1972

(2) Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt 2, s. 285,296.

وإذا كان سليم قد حارب إسماعيل الصفوي المسلم، فإن العثمانيين يعتبرون الشيعة ملاحدة ينبغي قتالهم وتدميرهم.

والسؤال الذي يدور في الأذهان هو: لماذا اتجه سليم ولأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية لفتح دولة إسلامية سنية كدولة المماليك؟

لقد كانت دواعي الفتح كثيرة ذكرتها تحت عنوان أسباب الفتح. ويعتبر فتح الشام ومصر أطول معركة حربية خاضتها الدولة العثمانية، فقد استغرقت أكثر من عامين. وضمت بلاد الشام ومصر والنوبة والحجاز وبني غازي وشمال السودان حتى كسلا. وقد بلغت مساحة الإمبراطورية العثمانية في عهد سليم قرابة ثلاثة أمثال مساحتها في عهد أبيه.[1] تحقق لسليم كل هذا الفتح خلال أربعة أعوام فقط من حكمه تمتد من ١٥١٤ ــ ١٥١٨م.[2]

أما أرتريا وزنزبار واليمن فقد دخلت ضمن التبعية الاسمية و كذلك الحال بالنسبة للجزائر التي تبعت الدولة العثمانية بفضل بربروسا.

ويروي البعض أن الفتح العثماني أنقذ الشرق العربي من توغل النفوذ البرتغالي في المياه العربية بعد أن فشل المماليك في إبعاد خطره عن المنطقة. فبعد فتح مصر ركز العثمانيون اهتمامهم على بناء قاعدة بحرية في السويس

(١) كانت مساحتها في عهد أبيه تبلغ ٢٣٧٣٠٠٠كم^2، وبلغت في عهده ٦٥٥٧٠٠٠كم^2: منها ١٧٠٢٠٠٠كم^2 في أوروبا ، ١٩٠٥٠٠٠كم^2 في آسيا ، ٢٩٥٠٠٠٠كم^2 في أفريقيا. وقد كانت مساحة ولاية مصر وحدها سنة ١٥٢٠م تبلغ ٢٧٥٠٠٠٠كم^2.
من الجدير بالذكر أنه لم تدخل ضمن هذه المساحة البلاد التي تبعت الإمبراطورية العثمانية تبعية اسمية.
(Yılmaz Öztuna: Geçen Eser, cilt 5, s. 67) .

(2) Yımaz Öztune: Ayni Eser, Ayni Yer

على أنقاض القاعدة المملوكية، تكون مرتكزاً لهم لضرب البرتغاليين في المياه العربية الجنوبية والمحيط الهندي.

وبعد أن سقطت الشام ومصر في يد العثمانيين وضمت الحجاز وتقوضت دولة المماليك، شرعوا في السيطرة على بقية البلاد العربية.

بلغت الدولة العثمانية أقصى مدى بلغته في القوة في عهد عاشر سلاطين آل عثمان سليمان القانوني[1] (تولى ١٥٢٠ ــ ١٥٦٦م = ٩٢٦ ــ ٩٧٤هـ). وقد اتجهت الفتوح في هذا العهد إلى الاستيلاء على بعض مناطق أوروبا وشمال أفريقيا وبعض المناطق العربية الأخرى كاليمن وعدن والعراق والتصدي للشيعة ودخول عاصمتهم مرة أخرى ومواجهة النمسا وفتح رودس. كما ازدادت في هذا العهد القوة البحرية في البحر الأبيض المتوسط خاصة. وتصدى العثمانيون للبرتغاليين في مياه الهند وفي المياه العربية الجنوبية.

وازدهرت الحياة في الدولة العثمانية في عهد سليمان الأول، فصدرت القوانين المنظمة للولايات التابعة للدولة العثمانية في عهده، ولهذا أطلق عليه القانوني تمييزاً له عن غيره من سلاطين آل عثمان. وقد روعي في هذه القوانين التي صدرت الظروف المحلية لكل إقليم صدرت بشأنه، فجاءت مختلفة بعض الشيء عن بعضها البعض.

---

(١) يطلق ستانفورد شو على عهد سليمان القانوني "ذروة العظمة العثمانية" The Peak of Ottoman Grandeur

الثورة الأولى للشام ومصر ضد الحكم العثماني

ظهرت في أعقاب الفتح العثماني للبلاد العربية، وخلال ثلاث سنوات منه، سلسلة من الثورات قامت بها قوى مملوكية، عملت على إعادة السلطنة المملوكية، أو قوى عثمانية ناقمة على الإدارة في استانبول، أو قوى بدوية ومحلية حاولت الحفاظ على نفوذها.[١]

(١) جان بردي الغزالي والي الشام:

بعد أن عاد سليم إلى بلاده، قام الغزالي (تولى ١٥١٧ ــ ١٥٢٠م) بالقضاء على مشايخ الأعراب المناوئة للحكم العثماني في الشام، إظهاراً للولاء للعثمانيين لكي يموه على تحركاته في المناطق المحيطة التي كان القصد منها التحالف مع البلاد المجاورة للمساعدة في طرد العثمانيين.

استيقظت في نفس جان بردي أحلام إقامة دولة مستقلة تحت قيادته بعيدة عن السيادة العثمانية. فقام بعدة محاولات للاستقلال بالشام عن الحكم العثماني في أواخر عهد السلطان سليم وأوائل عهد ابنه سليمان. وقد قويت هذه المحاولات في السنة التي مات فيها سليم (٩٢٦هـ = ١٥٢٠م). ومن الجدير بالذكر أن الشاه إسماعيل الصفوي كان على أتم الاستعداد لأن يمد هذه المحاولات بالجنود، لكي يرى اليوم الذي يُطرد فيه العثمانيون من الشام ومصر، فيشفى غليله.[٢]

---

(١) الدكتور عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص٨٣...

(٢) الوثيقة محفوظة في أرشيف طوبقبو سرايي باستانبول/ تحت رقم E.5469-2.

ويبدو من استقراء الأحداث التي وردت في بعض الوثائق، أن والي مصر خاير بك كان على علم بتطور الأحداث في الشام منذ أن بدأت، وكان يود لو أن الحكم العثماني انحسر عن الشام ومصر. وقد اتفق سراً مع الغزالي شريكه في الخيانة السابقة. ويظهر أن الخوف من انتكاس ثورة جان بردي قد ثبط عزيمة خاير بك، فهو يخشى أن تدور الدائرة عليه لو فشل الغزالي في مسعاه.

وبموت السلطان سليم "**أقامت المماليك الجراكسة صدورها**" على حد قول ابن إياس.[1] ووجد جان بردي الفرصة سانحة أمامه لكي ينفذ ما يصبو إليه: استولى على دمشق وطرد نائبها العثماني، واستولى على حماة أيضاً. ولم يبق أمامه من الحصون القوية إلا حلب، فحاصرها، ولكنه لم يتمكن من فتحها ، فعاد إلى دمشق. وفي يوم الجمعة ٢٢ صفر ٩٢٦هـ، خطب بالجامع الأموي له وهو حاضر بمقصورته بأنه: "**سلطان الحرمين الشريفين**"، ولقب بالأشرف، وخرج من الجامع في موكب حافل.

وفي ٢٦ صفر خرج السلطان جان بردي الغزالي لملاقاة العساكر العثمانية، عندما علم بقدومها إلى دمشق تحت قيادة فرهاد باشا. تلاقى الفريقان في ضواحي دمشق، ودارت بينهما معركة قصيرة، هزم فيها الغزالي وقطعت رأسه وأرسلت إلى العتبة السنية.[2]

---

(١) ابن إياس: المرجع السابق، جـ٥ ، ص٣٦٧.

(٢) ابن طولون: المرجع السابق، ص٢٦٦ ، ٢٦٧.

(٢) أحمد باشا العثماني والي مصر:

وفي أواخر عام ١٥٢٣م ثار أحمد باشا العثماني الملقب فيما بعد بالخائن في كتب التاريخ على الدولة العثمانية بقصد الاستقلال بحكم مصر. وكان لأحمد باشا هذا دور كبير في فتوحات الدولة العثمانية في البلقان وطمع في أن يكافئه السلطان سليمان القانوني بالصدارة العظمى. ولكن إبراهيم باشا صهر السلطان نجح في الفوز بهذا المنصب، وفي إبعاد زميله إلى مصر والياً عليها، ولم يكد أحمد باشا يصل إلى مقر حكمه حتى وطد العزم على الثورة ضد الحكم العثماني. فقرب إليه المماليك حيث أنه چركسي الأصل من الكرج، وقام في ٧ فبراير ١٥٢٤ باحتلال القلعة، ثم أعلن نفسه سلطاناً باسم **"الملك المنصور السلطان أحمد"**، وقرئت الخطبة وسكت العملة باسمه.

وأخذ أحمد باشا يجمع حوله الأنصار من المماليك ومن البدو، ولكن البدو الذين عهد إليهم بسد الطريق أمام الجيوش العثمانية التي قد ترد لمحاربته خانوه، كما أن إشاعة راجت عنه مؤداها أنه اعتنق المذهب الشيعي عجلت بنهايته. فقد جعلت أنصاره ينفضون من حوله، كما جعلت الأهالي يتمنون الخلاص منه.

وقد شجع هذا الانكشاية على التصدي له، فقد ضيقوا عليه الخناق وحاصروه في القلعة وقبضوا عليه في ٦ مارس ١٥٢٤م (٢٩ ربيع الثاني ٩٣٠هـ) ثم قطعوا رأسه وأرسلوها للعتبة السنية.[١]

---

(١) مخطوط مجهول المؤلف: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، ورقة ٦_٨ مخطوط بمكتبة متحف طوبقبو سرايي بإستانبول تحت رقم A.5550.

فتح جزيرة رودس

كان أول عمل عسكري قام به السلطان سليمان القانوني بعد فتح بلغراد ٩٢٧ هـ (١٥٢١م) هو فتح جزيرة رودس التي كانت نية أبيه مبيتة لفتحها وضمها للممالك العثمانية، لولا أن عاجلته المنية. ويذكر المؤرخ التركي الشهير إسماعيل حقي أوزون چارشيلي دون سند تاريخي أن هذه الجزيرة ساعدت المماليك أثناء معركة الريدانية، ولا يذكر كيف تم ذلك ؛ كما يشير إلى أنها ساعدت الغزالي عندما أعلن العصيان على الدولة العثمانية بالشام، ولا يوضح كيف تحقق ذلك.

لما كانت رودس جزيرة القراصنة المسيحيين الذين يتعرضون للتجارة الإسلامية من آن لآخر، أصبحت الضرورة ملحة لفتحها بعد فتح الشام ومصر وضم الحجاز لقربها من سواحل الأناضول،[1] ولوجود خط ملاحي جديد مع الشام ومصر ينبغي تأمين مساره.

بدأ السلطان، فأرسل رسوله إلى رئيس فرسان القديس يوحنا برودس الفرنسي الأصل الذي يدعي فلير دي ليل آدم Villiers de L`Isle Adam، لكي يدعوه لتسليم الجزيرة دون قيد أو شرط وانسحاب من يؤثر الهجرة منها مقابل عدم التعرض لأحد، فلم يقبل هذا العرض. عندها أمر السلطان پيري باشا والوزير الثاني أحمد باشا بقيادة الأسطول المتحرك على الجزيرة في يونية ١٥٢٢م (٩٢٨هـ)، وقام بنفسه بقيادة الجيش البري الذي تمركز عند مشارف خليج مرمورا المقابل للجزيرة في بحر ايجه. ضرب الأسطول حصاراً قوياً حول الجزيرة، ثم بدأت القوات تنزل مدافعها أثناء الليل على الشواطئ وتملوس

(1) Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt2, s.313.

الهجوم المكثف. ولما وجد رئيس الفرسان أنه لا قبل له بالجيش العثماني على الرغم من وصول مدد له من نابولي، آثر التسليم في ديسمبر من نفس العام، مشترطاً على العثمانيين: ترك حرية العبادة للمسيحيين الذين يبقون بالجزيرة. وإعفاء سكان الجزيرة من الجزية لمدة خمس سنوات. وإمهال الذين يبقون بها لمدة ثلاث سنوات حتى يرحلوا إن أرادوا. والموافقة على إخلاء الجزيرة من أهلها الذين يرغبون الرحيل عنها خلال اثنى عشر يوماً، ثم تسلمها. وقد وافق السلطان على هذه الشروط، كما وافق على رجاء رئيس الفرسان بنقلهم إلى جزيرة مالطة التابعة لفرنسا.(١)

الحرب مع المجر ومعركة مُهاج

بدأت العداوة بين المجر والدولة العثمانية، منذ أن وطأت أقدام العثمانيين البلقان. فقد دأبت المجر إما على مساعدة خصوم العثمانيين في المنطقة، أو على التصدي للدولة العثمانية، طوال ما يزيد على قرن ونصف القرن من الزمان.(٢)

قتل ملك المجر مندوب السلطان لدفع الجزية المقررة، فكان هذا بمثابة إعلان للحرب. تحرك السلطان العثماني على رأس الجيوش العثمانية في ٨ أغسطس ١٥٢٠م (٩٢٧هـ) لفتح مدينة بلغراد الحصينة، وقد سبقه إليها الصدر الأعظم بيرى محمد باشا والوزير الثالث أحمد باشا. وتمكنت الجيوش العثمانية بعد قتال مرير من فتح المدينة.

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt2, s,323.

(2) Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt2, s. 323.

وقد دخلها السلطان وأدى صلاة الجمعة في إحدى كنائسها التي حولت إلى مسجد على الفور. واكتسبت هذه المدينة لقب "دار الجهاد" لأنها أصبحت قاعدة العثمانيين المتقدمة للزحف على قلب أوروبا.(١)

وهكذا تحققت أولى محاولات سليمان في أوروبا وهي التخلص من المناطق المسيحية على جنوب نهري دراوا والدانوب في الصرب والبوسنة، لفتح الطريق أمام الجيش العثماني للتحرك شمالاً . ويعتبر فتح بلغراد أهم الخطوات في هذا السبيل، حيث كسر خط الدفاع الأوروبي على الدانوب وأكمل السيطرة على الصرب.(٢)

ولم يكمل السلطان سليمان فتوحه في بلاد جارته الشمالية المجر، بل توقف عند هذا الحد مؤقتاً، وتوجه لتحقيق حلم راود أباه، ولكن المنية عاجلته، ألا وهو فتح جزيرة رودس الذي تحدثنا عنه. وبعد ذلك عاد السلطان إلى المجر ليكمل ما بدأه.

عاد السلطان إلى المجر ثانية في ٢٣ أبريل ١٥٢٦م (١١ رجب ٩٣٢هـ)، وقد سبقه إليها الصدر الأعظم في ١٧ شوال، ثم تحرك بمحاذاة النهر وأخذ يستولي على القلاع والمدن الكثيرة التي صادفته.

أحس ملك المجر لويس(٣) بالخطر العثماني الشديد على بقية بلاده فأخذ يستعد للحرب ويطلب العون من أوروبا. وعندما أحس سليمان بتحرك البابا لجمع القوات الأوروبية ضد العثمانيين، سارع بإعطاء البندقية وراجوزة بعض

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt2, s. 312.

(2) Stanford Shaw: Op. Cit, P.91.

(٣) لايوش في الكتب التركية.

الامتيازات التجارية مرة أخرى لمنع اشتباك أساطيلهما في التحالف الذي يـهدف إليه البابا ولكن هذا التحالف لم يتم لشدة العداء بين الهبسبورج وفرنسا.[1]

كان لويس يعتمد اعتماداً كبيراً على فرسانه الذين اشتهروا بخوض غمار الحروب. فكون منهم قوة كبيرة استعد بها للتصدي للعثمانيين الزاحفين نحو صحراء مُهاج.[2] وكان من حسن حظ العثمانيين أن بالي باشا ابن يحيى باشا أمير سمندرية أطلع السلطان على بسالة الفرسان المجريين وشهرتهم في الحروب، فغير السلطان العثماني تنظيم الجيش في مواجهة هذه القوات العنيفة، ورسم لها خطة لتطويق الفرسان المندفعة عن طريق التقهقر أمامها حتى تبلغ المدافع العثمانية، ثم يجرى حصدها ساعة تطويقها بالقوات من الخلف.

تقدم السلطان على رأس الجيش في ٢٩ أغسطس ١٥٢٦ (٢٠ ذي القعدة ٩٣٢هـ) والتقى بالفرسان المجرية في مهاج على الضفة اليمنى للدانوب جنوب بودا، ولم تكن هذه القوات تدري بالخطة الجديدة، فوضعت خطتها على أساس التقليد المتبع لدى العثمانيين[3].

ودارت معركة حامية بين الطرفين قتل فيها ملك المجر وتشتتت قواته وهزمت.[4] وهكذا مكن النصر في مهاج العثمانيين من التحكم في غرب البلقان وأسفل الدانوب.[5]

---

(1) Stanford Shaw: Op. Cit., P.91.

(٢) موهاكس في بض الكتب التركية، كما تكتب في الكتب الأوروبية تماماً Mohacs.

(٣) انظر "مخطط ميدان معركة مُهاج" ضمن قسم الخرائط واللوحات رقم (١٧).

(٤) لطفي: تاريخ لطفي، ص٢١١. استانبول ١٢٩٠.

(5) Philips Price: Op. Cit., P.49.

وبعد هذه المعركة الحاسمة تقدم الجيش العثماني نحو العاصمة بودا (بودين). ودخلها السلطان في ٢٠ سبتمبر (١٣ ذي الحجة)، فسلمه يوسف بن سلاوون رئيس طائفة اليهود بالمدينة مفتاح العاصمة.[١] ثم جرى تهجير (سرگون) عدد كبير من أهالي بودا إلى أجزاء مختلفة من المدن العثمانية، كما جرت عادة العثمانيين، واستولى أيضاً على پست. وفتح الجيش العثماني معظم البلاد عدا المناطق الشمالية والغربية التي لا تزال في أيدي الهبسبورج. وقد اضطر السلطان إلى العودة إلى الأناضول لمواجهة بعض القلاقل، ورضى من زابوليا بالخضوع ودفع الجزية في ٢٤ سبتمبر ١٥٢٦م، واحتفظ بأجزاء البوسنة التي تحت السيطرة الهنغارية.[٢]

انتخب بعض أمراء المجر زابوليا[٣] خلفاً للويس الذي قتل في معركة مهاج. وبعد أن اطمأن الجيش العثماني على الأحوال في المجر عاد إلى بلاده. وبعد فترة وجيزة أعلن بقية أمراء المجر عدم رضاهم على انتخاب الملك الجديد. وقرروا ترشيح فرديناند أخي شارلكان إمبراطور ألمانيا من أسرة هبسبورج وملك بوهيميا ودوق النمسا في هذا المنصب. وقد كان فرديناند زوجاً لأخت الملك الراحل، كما كان الملك الراحل زوج أخت فرديناند. وبهذه الطريقة وجد للمجر ملكان، أحدهما تباركه الدولة العثمانية وهو زابوليا، والآخر يحميه إمبراطور ألمانيا وهو فرديناند. وقد سبب هذا التصرف عداءً طويل الأمد بين الدولة العثمانية وبين ألمانيا.[٤]

---

(١) پچوى: تاريخ پچوى، م١، ص٩٧-٩٩.

(2) Stanford Shaw: Op. Cit, PP.91,92.

(٣) ياتوش في الكتب التركية.

(4) Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, Cilt2, s. 328.

قام فرديناند بالاستيلاء على العاصمة بودا وطرد زابوليا منها، فاستنجد الأخير بالسلطان العثماني. لبى السلطان العثماني نداء الاستغاثة، فتحرك على رأس جيشه قاصداً بلاد المجر، ومعه سرداره الصدر الأعظم إبراهيم باشا في مايو ١٥٢٩ (٢ رجب ٩٣٥هـ). ثم دخل السلطان مهاج، ومنها تحرك قاصداً بودا فدخلها وأقر زابوليا على عرشها بشرط دفع الجزية.

الحرب مع النمسا وحصار فينا لأول مرة:

هرب فرديناند إلى فينا عاصمة النمسا، فتبعه السلطان سليمان في ٢٦ سبتمبر ١٥٢٦م. ومن الجدير بالذكر أن فرنسا كانت علاقتها بألمانيا سيئة في هذه الفترة، فبارك ملكها فرانسوا هجوم العثمانيين على فينا. حصن فرديناند المدينة وأقام الاستحكامات الحصينة في قلعتها، ثم أسرع يستنجد بألمانيا، فجاءته قوة كبيرة منها استعان بها على فك الحصار عن المدينة.

أدرك سليمان القانوني أن الموسم غير مناسب للاستمرار في حصار المدينة حيث أقبل الشتاء ببرده القارس وثلجه الغزير (سبتمبر ١٥٢٩)، كما أن المدافع العثمانية الضخمة لم تكن موجودة في الحصار وإحضارها عن طريق نهر الطونة يعرضها للقصف النمساوي الذي يؤدي إلى غرقها. وفضلاً عن ذلك فإن الاستيلاء على فينا يعتبر تغلغلاً في الأعماق يثير مشاعر أوربا الدينية[١]. ويحرك النزعة القومية الألمانية. وقد وجد ملك فرنسا نفسه في حرج أمام هذه المشاعر، ففضل أن يتبع سياسة ذات وجهين إرضاء للطرفين[٢] .

---

(1) Stanford Shaw: Op. Cit., P. 94.

(2) Dr. Ismail : Eser. cilt 2, s.329,330

شدد السردار الصدر الأعظم إبراهيم باشا هجومه على أسوار المدينة المنيعة وأحدث بها عدة ثلم، ولكن دون جدوى، فقرر العثمانيون العودة بعد أن استمر الحصار واحداً وعشرين يوماً.

لقد وصلت الإمبراطورية العثمانية أقصى مدى لها في الغرب عند الدانوب الأوسط. ويبدو أن سليمان ومساعدوه فهموا بفطرتهم أن المشكلة تكمن في إيجاد القوة البشرية التي تدير البلاد التي فتحت حديثاً، فهي هائلة جداً دون الخوض حتى أواسط أوربا[1] (١).

العودة إلى المجر:

أرسل فرديناند للسلطان العثماني يطلب منه السماح له بحكم المجر نظير تقديم الجزية المقررة، فرفض السلطان. عند ذلك قرر فرديناند الاستيلاء على بعض القلاع والحصون التي سبق أن استولى عليها العثمانيون ، ثم تحرك قاصداً بودا، وحاصرها لمدة شهرين تقريباً، إلا أن القوات العثمانية وقوات زابوليا ردته عنها.

الحرب مع ألمانيا:

وصل السلطان إلى المجر في ٢٥ أبريل ١٥٣٢م (١٩ رمضان ٩٣٨هـ) لمساعدة زابوليا وإقرار الأمن في المجر. وبدلاً من أن تتجه الجيوش العثمانية إلى العاصمة بودا تحولت إلى الشمال الغربي منها. وأعلن السلطان إمبراطور

---

(1) Philps Price: Op. Cit. p.49

ألمانيا شارلكان بالحرب، ولكن شارلكان لم يظهر أمام العثمـــانيين، فقـد كــان مشغولاً بتحصين فيينا خشية هجوم عثماني مرتقب عليها. ولما علم بخبر وجود العثمانيين في دياره، خشي من العواقب الوخيمة التي تحدث له أمام الفرنســيين إن هزمه العثمانيون، ففضل البقاء بعيداً، رغم استيلاء الجيوش العثمانية علــى كثير من قلاع بلاده. وعاد السلطان إلى استانبول في نوفمبر ١٥٣٢م (٢٣ ربيع الآخر ٩٣٩هـ).

باءت مساعي فرديناند لحكم المجر بالفشل، فآثر الصلح مع العثمــانيين. قبل السلطان سليمان عقد الصلح مع فرديناند، لأنه أحس بالخطر الصفوي يعـود مرة أخرى إلى شرق الأناضول في عهد الشاه طهماسب (تولى ١٥٢٤م). وكان من شروط الصلح أن يمتنع فرديناند عن الاعتداء على أراضــي زابوليــا، وأن يقوم بدفع الجزية عن المناطق المجرية التــي يحتفـظ بحكمــها، وألا يســاعد شارلكان إذا هاجمته الدولة العثمانية لعدم دخوله في صلح معها[ii] [1].

تجدد الحروب مع المجر:

توفى زابوليا (يانوش في الكتب التركية) ١٥٤٠م (٩٤٧هـ)، فســارعت زوجته إيزابيلا وأرسلت وفداً إلى استانبول، لاستئذان السلطان فــي أن يتولــى ابنها الرضيع سجسموند مكان أبيه، فوعدها سليمان بتحقيق رغبتها. ومن جهــة أخرى لم يكن فرديناند وشارلكان يعلمان بخبر موت زابوليا، حتى سارعا إلــى محاصرة بودين. ولما علم السلطان بذلك أرسل بعض قواته على وجه الســرعة سنة ١٥٤١م لإنقاذ المدينة المحاصرة، وسارع هو على رأس جيشه متوجهاً إلى

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser. cilt 2, s.336

ميدان المعركة. وقد تمكنت القوات التي سبقت السلطان - بقيادة أمير أمراء الروملي والوزير محمد باشا صقوللي- من فك حصار العاصمة بودين وأسر قائد القوات المعادية روكاندورف وقتله.

وجد السلطان بعد أن وصل إلى بودين أن الملك الصغير لا يقدر على حماية المجر من أي عدوان فقرر ضم المجر إلى الدولة العثمانية، وإرسال سجسموند إلى باكوية أردل Erdel (ترانسلفانيا). وبهذا تجزأت المجر بين الدولة العثمانية وفرديناند وسجسموند.

لم يكد الجيش العثماني يعود إلى استانبول، حتى قام فرديناند بمحاصرة بودين ويشت، فقرر السلطان سليمان التحرك بنفسه إلى المجر في ٢٣ إبريل سنة ١٥٤٣م (١٨ المحرم ٩٥٠هـ). ولما علم فرديناند بقرب وصول الجيش العثماني فك الحصار عن المدينتين، وفر فتعقبه العثمانيون واستولوا على بعض المواقع الهامة من الأراضي التي تحت نفوذه في المجر. ثم عاد الجيش العثماني إلى استانبول. وتكررت مناوشات فرديناند. ولما يئس من الوصول إلى مراده، ووجد أنه يخسر أجزاء من أراضيه في كل مرة، فضل الدخول مع الدولة العثمانية في صلح، يضمن به الاحتفاظ بالأراضي التي تحت يديه نظير دفع الجزية. وقد وقع الصلح في ١٩ يونيو سنة ١٥٤٧م (ربيع الآخر ٩٥٤هـ) لمدة خمس سنوات.

ولكن هذا الصلح لم يزد على أن يكون مجرد هدنة لالتقاط الأنفاس، فقد هاجم فرديناند أردل (ترانسلفانيا) التي تتمتع ملكتها إيزابيلا بحماية العثمانيين، وذلك بتحريض من أحد أعوان الملكة الموالية له. فأنذرته الدولة العثمانية، ولكنه لم ينخدع بالإنذار، لانشغال العثمانيين بالحرب ضد الفرس. أرسل السلطان

الوزير محمد باشا صقوللي للتصدي لفرديناند، فتمكن من رده عن أردل، ثم قفل راجعاً إلى بلغراد لبرودة الجو.

وقد انتهز جيش النمسا الفرصة واستولى على ترانسلفانيا، فوقعت على خضر بك ابن ميخال أمير سنجق سَجَدين مهمة تخليص ترانسلفانيا لانشغال الجيش العثماني في بلاد الفرس. استعان خضر بك بعلي باشا الخادم وحاكم بودين لمواجهة جيش النمسا الذي حاصر سجدين. انقض علي باشا على جيش النمسا فجأة، وتمكن من إنزال هزيمة ساحقة به. وتيسر للجيش العثماني بقيادة قره أحمد باشا الاستيلاء على تمشوار فيما بعد، وهي واحدة من أهم قلاع المجر.

وبعد كل هذه المحاولات اليائسة من فرديناند، وقع معاهدة مع الدولة العثمانية سنة ١٥٦٢م (٩٧٠هـ) لمدة ثمان سنوات مع دفع الجزية المقررة.

تولى ماكسمليان حكم بلاد المجر بعد وفاة أبيه فرديناند، أي بعد عامين من المعاهدة التي أبرمها أبوه مع العثمانيين، فقام على الفور بالاعتداء على أراضي أمير أردل (ترانسلفانيا) المشمول بالحماية العثمانية. ولما رأى أمير بودين العثماني أرسلان باشا ابن يحيى ذلك، هب لمساعدة أمير أردل للصمود أمام العدوان.

ورغم كبر سن السلطان الذي كان يبلغ من العمر الثالثة والسبعين واشتداد مرض النقرس عليه، قرر في ٢٩ أبريل سنة ١٥٦٦م (٩ شوال سنة ٩٧٣هـ) أن يتحرك بنفسه لملاقاة ماكسمليان الذي جمع جيشاً كبيراً قوامه فرق من جنود البلاد المجاورة. ومن الجدير بالذكر أن السلطان لم يخرج بنفسه لقيادة أي

معركة منذ ثلاثة عشر عاماً لاشتداد المرض عليه[1] وقد اشترك معه في هذه المعركة الصدر الأعظم الجديد محمد باشا صقوللي والوزير الثاني برتو باشا.

أخذ الجيش العثماني يتقدم في بلاد المجر حتى وصل إلى مدينة سكدوار، فاستمر في حصارها قرابة شهر ونصف الشهر حتى سقطت في يده، بعد أن قتل حاكمها الكونت زريني (زرنسكي موكلش في الكتب العثمانية) في ٧ سبتمبر ١٥٦٦م (٢١ صفر ٩٧٤هـ). ولم يعش السلطان ليرى هذه الفرصة، فقد قضى نحبه قبل يوم واحد من دخول جيشه المدينة. وكانت هذه هي الحرب الثالثة عشرة التي خاضها السلطان بنفسه (بلغراد ١٥٢١، رودس ١٥٢٢، موهاج ١٥٢٦، فيينا ١٥٢٩، ألمانيا ١٥٣٢، العراقين ١٥٣٣، كورفو[2] ١٥٣٦، البغدان ١٥٣٨، بودين ١٥٤١، گيران (استرگون) ١٥٤٣، تبريز ١٥٤٨، ناخجوان ١٥٥٣، سكدوار ١٥٦٦)[3] .

حرب البُغدان:

دخل والي البُغدان في طاعة الدولة العثمانية بعد أن فقد قلعتي كيلي وآق كرمان، وأخذ يدفع الجزية أحياناً ويماطل أحياناً أخرى بسبب انشغال الدولة العثمانية بحربها مع إيران ومصر والمجر. وعندما مر الجيش العثماني متوجهاً إلى فيينا، أبدى محافظ البغدان ترحيبه وعبر عن سروره بهذه الخطوة، وسارع

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser. cilt 2, s.409

(٢) تقع كورفو جنوب غرب ألبانيا

(3) Dr. Ismail : Eser. cilt 2, s.409,410

في دفع الجزية المفروضة عليه. وبعد فترة بدأ والي البغدان بترو رارش (تولى ١٥٢٧ – ١٥٣٨م) في التحالف سرا مع فرديناند.

صمم السلطان العثماني على أن يقود الجيش لمحاربة البغدان، فتحرك في يوليو ١٥٣٨م (صفر ٩٤٥هـ)، ولما علم رارش بتحرك السلطان، سارع في إرسال رسول إليه ليؤكد على أواصر الصداقة ومراعاة العهود، ولكن السلطان لم يستجب لدعواه، ودخل أراضي البغدان، ففر واليها إلى ترانسلفانيا، واستولت الجيوش العثمانية على البغدان. وعين محافظ آخر عليها سنة ١٥٣٨م عن طريق الانتخاب.

عصيان العلويين وحرب إيران

(١) عصيان العلويين:

ظهر درويش بكتاشي في شرق الأناضول سنة ١٥٢٧م (٩٣٣هـ) يدعى قلندر چلبي بن اسكندر، جمع حوله عشرين أو ثلاثين ألفا من العلويين، وكان شاه إيران يظاهره ويسانده ويحرضه على عصيان الدولة العثمانية. تجرأ قلندر على العثمانيين وأعلن استقلاله ببعض المناطق وضمها لنفوذه، فأرسل السلطان الصدر الأعظم إبراهيم باشا على الفور لإخماد هذه الفتنة.

وقبل أن يصل إبراهيم باشا إلى حيث يتمركز قلندر بن اسكندر، كان هذا العاصي قد أنزل هزيمة فادحة بالقوات التي هبت لمواجهته، وقتل قائدها محمود باشا والي القرامان وأعوانه. وأمام هذه القوة المتنامية، قرر إبراهيم باشا أن يغري أعوان قلندر من سپاهية ذو لقادر بالمال والضياع، لكي ينفضوا من حوله

فتضعف قوته. وبعد أن تحقق له ذلك، تمكن من اقتناص فرصة الليل للهجوم على العاصي قلندر، فهزمه وقبض عليه وقتله.

(٢) الحرب مع الفرس:

توفي الشاه إسماعيل الصفوي سنة ١٥٢٤م، فتبعه ابنه طهماسب على العرش. وقد اتبع نفس السياسة التي كان يتبعها أبوه وهي العداء مع الدولة العثمانية. فلم يكد يتولى العرش حتى سارع في التحالف مع شارلكان وفرديناند ضد الدولة العثمانية ، على الرغم من أن حالة الحرب لم تكن معلنة بين الدولتين العثمانية والصفوية. وفضلاً عن ذلك قام الشاه طهماسب بتحريض شريف خان حاكم بدليس الكردي التابع للدولة العثمانية على التحالف مع الفرس. ومن ناحية أخرى حاصر الشاه مدينة بغداد، وتمكن من القبض على واليها ذي الفقار خان الذي يتمتع بالحماية العثمانية وقتله. ثم دخل بغداد واستولى عليها. وكانت الدولة العثمانية مشغولة بالحرب في أوربا في ذلك الوقت، ولا تعير بلاد الفرس التفاتاً. إلا أن الأحداث الخطيرة توالت، مما دعا السلطان إلى التفكير في مواجهة الفرس، فأرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا على رأس الجيش إلى تبريز.

لم يكد الشاه يسمع بتحرك إبراهيم باشا حتى ترك عاصمته تبريز وتوجه إلى خراسان، فدخلها الصدر الأعظم في ١٣ يوليو سنة ١٥٣٤م (المحرم ٩٤١هـ) دون قتال. وبعد ذلك وصل السلطان إلى تبريز وأخذ ينظم أحوالها بمجرد وصوله إليها، ثم قرر التحرك إلى بغداد للاستيلاء عليها.

تقدم إبراهيم باشا نحو بغداد قبل قدوم السلطان، ولما علم والي بغداد تكه لي خان بتحرك الجيش العثماني فر هارباً. وقد تمكن العثمانيون من القبض عليه وقتله في ديسمبر سنة١٥٣٤م (٢٤ جمادي الأول ٩٤١هـ) ودخول بغداد

بسهولة. ثم وصل السلطان إلى بغداد فيما بعد فوجدها قد فتحت، فأخذ ينظم أحوالها. ولما علم بعودة الشاه إلى تبريز توجه إليها على الفور، ففر طهماسب ثانية إلى الشمال في يوليو ١٥٣٥م. وبعد أن استتبت الأمور في تبريز عاد السلطان إلى استانبول في ١٥٣٦م (٤ رجب ٩٤٢هـ). وبعد أن فتح العثمانيون بغداد، دخلت البصرة والقطيف والبحرين في طاعة العثمانيين[١] . عاود الشاه المناوشات مرة أخرى، فتحرك السلطان إليه في إبريل ١٥٤٨م (صفر ٩٥٥هـ)، وفتح بلاد الكرد[٢] وقلعة وان الشهيرة في أغسطس من نفس العام، قبل أن يدخل تبريز للمرة الثالثة، ثم قفل راجعاً إلى حاضرة بلاده.

ورغم هروب طهماسب وعدم وقوفه في وجه العثمانيين، إلا أنه كان يعاود المناوشات كلما سمع برجوع الجيش العثماني إلى دياره. ولما وجد أن مناوشاته هذه غير مجدية، فضل الصلح مع العثمانيين في ٢٩ مايو سنة ١٥٥٥م (٨ رجب ٩٦٢هـ). وبهذا احتفظت الدولة العثمانية بآذربايجان ومركزها تبريز، كما احتفظت بشرق الأناضول والعراق. وقد ظلت هذه المعاهدة سارية المفعول إلى أن توفى طهماسب ١٥٧٦م بعد أن استمرت الحروب بين الدولتين

(١) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين جـ٤ ، ص ٤٤ بغداد ١٩٤٩
لم تتوغل القوات العثمانية صوب البصرة إذ اكتفى السلطان بإعلان راشد بن مُغامس ولاءه له. ولكن لم تلبث العشائر العربية أن تمردت على الحكم الجديد. فزحفت القوات العثمانية إلى البصرة، واستولت عليها ١٥٤٦م، ثم زحفت هذه القوات إلى الإحساء ٩٦٣هـ (١٥٥٥م)، وإلى ما وراء ذلك حتى مسقط. ولكن لم يدم حكم العثمانيين طويلا فى المناطق الواقعة فيما وراء الإحساء لأنهم وصلوا إلى هذا الميدان متأخرين بعد أن ثبت البرتغاليون أقدامهم فى تلك النواحي. (د.عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث، من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، ص ٧٠٦ القاهرة ١٩٦٨) ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ محمد بن عبد الله آل عبدالقادر الأنصارى الإحسائي يذكر فى كتابه أن السلطان سليمان القانوني أرسل محمد باشا فروخ بعساكر كثيرة لفتح الإحساء فاستولى عليها ٩٦٣هـ وبنى مسجدا فى داخل الكوت، فى بلد الهفوف، يعرف الآن بمسجد الدبس. (تحفة المستفيد، بتاريخ الإحساء فى القديم والجديد، ص ١٢١ الرياض ١٩٦٠).
(٢) تسمى شهرزور أو كردستان

زهاء خمسة وثلاثين عاماً. ومن الجدير بالذكر أن بغداد عادت لأيدي الفرس مرة أخرى في عهد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧م=١٠١٢-١٠٢٦هـ) وتم الصلح بين الدولتين في سنة ١٠٢١هـ شريطة أن تعود للفرس البلاد التي استولى عليها السلطان سليمان القانوني من قبل بما في ذلك بغداد، التي تمكن السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م=١٠٣٢-١٠٤٩هـ) من إرجاعها لحوزة العثمانيين في (٢٧ ديسمبر ١٦٣٨م - ٢٠ شعبان ١٠٤٨هـ). ولم تعد لحكم الفرس مرة أخرى منذ ذلك التاريخ، وبقيت تحت الحكم العثماني حتى الحرب العالمية الأولى[١] .

النشاط البحري للدولة العثمانية
في عهد السلطان سليمان القانوني

(١) في البحر الأبيض:

(أ) عروج الريس وخضر الريس:

ينتمي البحاران عروج[٢] الريس[٣] وخضر الريس إلى أصل رومي من جزيرة مدللي. كان أبوهما يعقوب[٤] قد أخذ سنة ١٤٦٢م من يد عائلة جنوية تسكن هذه الجزيرة أيام السلطان محمد الفاتح، ثم عين ضمن فرق السپاهية في

(١) انظر : د.عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق، ص ٩٢

(٢) عروج: الأسم الأصلي في الكتب التركية "اوروج" وتعني الصيام وقد حرفت الكلمة في العربية إلى "عروج".

(٣) الريس: لقب يطلق على ربابنة السفن الشراعية وقد تغير اللقب إلى قبطان بعد القرن السابع عشر الميلادي
(Mehmet Zeki Pakalin: Adigeçen Eser, cilt 3, s.24)

(٤) كان ليعقوب أربعة أبناء هم: اسحق واوروج وخضر وإلياس.

قصبة "يكيجه واردار" الواقعة بين سلانيك ومناستر . ركز عروج الريس نشاطه البحري على سواحل الأناضول وسوريا ومصر، أما خضر الريس فقد كان نشاطه يتركز في سواحل بحر إيجه وسلانيك. وبينما كان عروج عائداً من ساحل طرابلس الشام، إذ بأحد فرسان رودس يلتحم معه في معركة بحرية يقتل فيها أخوه إلياس، أما هو فيجرح ويؤسر ويوضع في قلعة بودرم، لكن أخاه خضر الريس تمكن من إطلاق سراحه بعد فترة من الزمن.

دخل عروج في خدمة الدولة المملوكية بعد ذلك، وأصبح رئيساً لإحدى السفن القديمة "قادرغه". وقد تلقى مساعدات من الأمير قورقود والي أنطاليا، عندما كان يمارس نشاطه في البحر بجد ونشاط.

وقد ظل فرسان رودس يبحثون عن هذا الذي ألقى الرعب في قلوبهم في البحر الأبيض، حتى صادفوه في أحد السواحل يستريح، فهاجموه، إلا أنه تمكن من الخروج إلى الساحل والنجاة بنفسه، وسقطت سفينته في يد أعدائه. ولم يجد عروج أمامه إلا أن يعتمد على الأمير قورقود الذي انتقل إلى ولاية مغنيسيا، فقد قام الأمير بصنع سفينة له، مارس بها نشاطه البحري على سواحل إيطاليا هذه المرة كتوصية الأمير له.

أخذ عروج يتردد على جزيرة مدللي بسفن من سواحل إيطاليا أو بسفن الأعداء التي تمكن من الاستيلاء عليها. ولم يكد يعلم بسفر الأمير قورقود إلى مصر غاضباً من أبيه الذي وعد أخاه أحمد بالسلطنة، حتى ترك مدللي وتوجه إلى سواحل مصر وقضى الشتاء هناك. اتحد عروج مع أخيه خضر في العمل بعد ذلك، وجاءا سوياً إلى جزيرة جربة التي تقع بين طرابلس الغرب وتونس، وبدأ يتخذان من هذا المكان مركزاً لهما سنة ١٥١٠م (٩١٦هـ). وبينما كان خضر يمارس نشاطه البحري فيما بين الجزر وسواحل الروملي، قام السلطان

الجديد سليم الأول بمنع دخول السفن إلى كل السواحل وخروجها منـــها لمنـــع هروب أخيه قورقود من السلطنة. ولم يجد خضر أمامه مفـــراً إلا أن يمـــارس نشاطه فيما بين طرابلس الغرب وبروزه، ثم وصل إلى جزيرة جربة فيما بعد.

تردد الأخوان على "ابن عبد الله محمد الخامس" سلطان تونس من العائلـة الحفصية، وقدما له هدية، ثم طلبا منه أن يمنحهما حق الإقامـــة فـــي الميناء التونسي "حلق الوادي". وقد أذن سلطان تونس للأخوين بالتوطن فـــي الميناء التونسي، شريطة دفع خمس الغنائم التي يستولون عليها.

نجح الأخوان في أول حرب يخوضانها سوياً سنة ١٥١٣م، كما توالـــت انتصاراتهما. وبهذه الصورة ملأت شهرة الأخوين قلوب القراصنة فـــي البحـر الأبيض رعباً وفزعاً. وقد التحق بهما القباطنة الأتراك السبعة المشاهير بسفنهم، ومنهم: مصلح الدين بن كرد وكمال وابن أخيه محيي الدين.

ولم يهمل الأخوان إرسال هدية إلى السلطان ســـليم الأول، لاســتفادتهما الإيجابية من مساعدته. وقد قدمت الهدية إلى السلطان عن طريق محيي الديـــن الريس سنة ١٥١٥م (٩٢١هـ)، وقام السلطان بدوره بمنحهما سفينتين مجهزتين رداً على الهدية.

كان من الطبيعي أن يصطدم الأخوان بأسبانيا التي استولت على بعـــض السواحل الإفريقية المواجهة لها، نظراً لضعف الحكومات الإسلامية فـــي هـذه المناطق، وهي: بنو حفص في تونس، وبنو زيان في الجزائر، وبنو مرين فـــي مراكش. وقد حانت الفرصة عندما ورد وفد جزائري إلى الأخوين فـــي حلـق الوادي الذي يتخذانه مقراً لهما، وطلب منهما طرد الأسبان الذين استولوا علـــى

"بجاية". ولما لم يتمكن الأخوان من رد الأسبان، استوليا على شرشال، ثم على مدينة الجزائر التي طلبت منهما العون البري سنة ١٥١٦م[١] .

(ب) فتح الجزائر وحكم الأخوين لها:

كان استيلاء عروج وخضر على مدينة الجزائر حدثاً هاماً، فقد سارع الأسبان الموجودون فيها إلى الالتجاء إلى جزيرة پنون المواجهة للمدينة، وطلبوا العون والمساعدة من شارلكان في الحال. وعلى الرغم من أن شارلكان ملك أسبانيا أرسل أسطولاً إلى الجزائر، إلا أنه لم يتمكن من إخراج عروج منها. وأعلن عروج على الفور نفسه حاكماً على الجزائر، وبدأ يوسع نفوذه في المناطق الداخلية . وقد تمكن الأسبان من الاستيلاء على تلمسان وميناءها وهران، وانضوى حاكم تلمسان وهو واحد من بني زيان تحت نفوذهم.

ولما لم يتمكن الأسبان من الاستيلاء على الجزائر بالحرب، أمروا أمير تلمسان بالاستيلاء عليها عن طريق البر، إلا أن عروج علم بالخبر في حينه فاستولى بسرعة على تلمسان. ظل عروج الريس في تلمسان يدافع عنها، إلا أن الأسبان شددوا حولها الحصار. فاضطر إلى العودة إلى الجزائر بعد أن دافع عن تلمسان لمدة سبعة أشهر بمساعدة الأهالي. وقد لاحقه الأسبان وحاصروه في الجزائر، وعند خروجه أصيب بإصابتين شديدتين سقط على إثرهما قتيلاً[٢] سنة ١٥١٨م (٩٢٤هـ)، وهو في الرابعة والأربعين من العمر[٣] . فتولى أخوه

---

(1) Barbaros Hayreddin Paşa'nm Hatiralari
(Tarih Mecmuasinde bir makale), sayi 6, Temmuz , 1965, s.49 :انظر

(2) Dr. Ismail : Eser. cilt 2, s.363-367

(٣) هناك عبارات مدونة على برج قلعة شرشال كتبت أثناء وفاة عروج توضح أنه كان حاكما على الجزائر في سنة ١٥١٨م (٩٢٤هـ)، كما تظهر لقبه أثناء تقلده الحكم، وهو: "القائم بأمر الله المجاهد في سبيل الله اوروج بن يعقوب".
Dr. Ismail : Ayni Eser. cilt 2, s.367

خضر الريس الحكم من بعده، وهو الذي يطلق عليه الأوربيون لقب بربروس Barbarousse أو بربروسا Barbarossa أي صاحب اللحية الصهباء.

قام الأمير الأسباني "هوجو دو مونكادا" Hogo do Monkada بمحاصرة الجزائر براً وبحراً. ورغم أن القوات الأسبانية كانت كثيرة العدد، إلا أنها لم توفق في حصارها، وارتدت عن المدينة. أما أمير تلمسان "أبو حامي الثالث" الذي كان يشارك الأسبان في الحصار براً، فقد فر هارباً.

(ج) اتصال بربروسا بالعثمانيين:

ورغم ذلك كان وضع بربروسا حرجاً لأن إمكانياته كانت ضئيلة، فحفنة من الترك كانت معه لا يمكنها أن تتصدى لشارلكان أو للأهالي. ولهذا وجد أنه من الأفضل أن يتصل بالدولة العثمانية لطلب العون والمساعدة منها. وقد بادر بإرسال أربع سفن وكثير من الأسرى على سبيل الهدية إلى استانبول سنة ١٥١٩م (٩٢٥ هـ)(١) . ثم أعلن أن الجزائر ولاية عثمانية تابعة للسلطان سنة ١٥٢٠م(٢) .

امتن السلطان العثماني باتصال بربروسا به، وأرسل إليه بعض المعدات العسكرية وبعض السفن الحربية. فضلاً عن ذلك أرسل إليه براءة الإمارة وألفين أو ثلاثة آلاف من العساكر، كما صدر فرمان سلطاني يقضي بإرسال الجنود

---

(1) Dr. Ismail : Eser. cilt 2, s.368

توجد كتابات على الجامع القديم بالجزائر الذي يسمى جامع خير الدين باشا تحمل تاريخ جمادى الأولى سنة ٩٢٦هـ وفيها: "أمر ببناء هذا المسجد المبارك السلطان المجاهد في سبيل الله رب العالمين مولانا خير الدين باشا ابن الأمير المجاهد أبي يوسف يعقوب التركي"

Dr. Ismail : Ayni Eser. cilt 2, s.368,372

(٢) د. أرجمند كوران: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة د. عبد الجليل التميمي ط ٢، ص ١ تونس ١٩٧٤.

اللازمة إليه من الأناضول. وأعطيت للذين يذهبون إلى الجزائـــر كمتطوعيـــن، امتيازات الانكشارية[1] .

لم يوفق شارلكان في الاستيلاء على الجزائر، رغم أنه هاجمـــها بعنـــف، وتحطم أسطوله، وخاب مسعاه. ومن ناحية أخرى أقلق دخول بربروسا تحـــت النفوذ العثماني، حاكمي تلمسان وتونس، فقاما يحرضان أهالي الجزائـــر علـــى العصيان.

كان لحاكم تلمسان أخوان أحدهما يدعى مسعود والآخر عبد الله، تنازعـــا مع أخيهما على الحكم واضطرا في النهاية إلى الهرب إلى المغرب. وقـــد قـــام مسعود بمساعدة بربروسا عندما كان حاكماً على تلمسان كما وقع معه معاهدات الصداقة في الوقت الذي نقضها مع الأسبان . وعندما تولى عبد الله الحكم، أدخل تلمسان تحت نفوذ بربروسا. فقام الأخير بإرسال مائة وخمسين جندياً تركياً إلـــى "ابن محمد عبد الله الثاني" لتمكينه من الدفاع عن بلاده.

(د) ترك خير الدين بربروسا للجزائر وعودته إليها:

ثم هزم ابن القاضي الذي ثار بتحريض من حاكم تونس. وعلى الرغم من أن العصاة حاصروا قصر بربروسا، إلا أنهم لم يوفقوا في النيـــل منـــه. لكـــن المشاحنات التي نشأت بين المواطنين والترك والعرب جعلت القـــلاع التابعـــة للجزائر تتأثر بشدة حيث قلت منابعها. وهذا ما أجبر خير الديـــن علـــى تـــرك الجزائر، والانسحاب سنة ١٥٢٤م (٩٣٠ هـــ) إلى شرشال، لكي يبدأ حروبـــه البحرية.

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser , cilt 2, s.368 د. أرجمند كوران : المرجع السابق، ص ١١

وبعد عدة سنوات توجه إلى الجزائر بـــإصرار وتصميـــم، وهـــزم ابـــن القاضي، ثم جمع خصومه وتمكن بعد ثلاث سنوات من تولي حكم الجزائر. وفي الوقت الذي لم يخرج فيه خير الدين الريس للحرب نظراً لتوليه حكم الجزائـــر، أمر أحد أعوانه من القباطنة ويدعى "آيدين الريس" بالنزول إلى البحر على رأس أسطول مجهز لمواجهة الأسبان. وقد قام سلطان الجزائر بإرســـال جـــزء مـــن الغنائم التي كسبها آيدين من الأسبان إلى استانبول[١] .

(هـ) أول نزاع بين خير الدين وأندريه دوريا:

تمكن بربروسا في ٢٧ مايو سنة ١٥٢٩م (٩٣٦ هـ) من الاستيلاء علـى قلعة بنون أو "آده قلعه" كما يسميها الترك، والتي أنشأها الأسبان على جزيـــرة صغيرة تبعد عن مدينة الجزائر ٣٠٠ متر[٢] . وقد نتج عن ضياع جزيرة بنـون من أيدي الأسبان، أن كلفوا الأميرال الجنوي أندريه دوريا الذي يعمل لحسـابهم، ويعد أمهر بحار في البحر الأبيض المتوسط بالهجوم على جزيرة شرشال، لكنـه فشل. وعقب ذلك خرج بربروسا إلى البحر على رأس خمس وثلاثيـــن سـفينة وقصف مواني الأسبان، ثم عاد غانماً إلى الجزائر. اقتنص بربروسا الفرصـــة وحصل على معلومات هامة عن استعدادات الأسبان من الأسرى الذين قبـــض عليهم هذه المرة، وزاد استعداداته نتيجة لذلك، فقام باســـتدعاء ســنان الريـس الموجود في جزيرة جربة لمساعدته. وقد بلغ عدد قطـــع الأســطول المشـــترك

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser , cilt 2, s.369

(2) Samih Aziz Ilter: Şimali Afrikada Türkler, 89 Istanbul 1936-1937

د. عبد الرحمن جايجي: المسألة التونسية والسياسة العثمانية ١٨٨١-١٩١٣، ترجمة الدكتور عبدالجليل التميمي ، ص ٢٦ تونس ١٩٧٣

بينهما ثمان وأربعين سفينة. أما أسطول أندريه دوريا فقد بلغ عدده ستين سفينة بعد أن أمده ملك فرنسا بعشرين منها.

هاجم الأمير الجنوي جزيرة جربه بهذا الأسطول، إلا أنه ووجه بدفاع شديد، وانسحب فور سماعه بوصول بربروسا.

(و) دعوة بربروسا للدخول في خدمة الدولة العثمانية:

هاجم أندريه دوريا سواحل المورة، عندما كان الجيش العثماني مشغولاً بحربه في الأناضول، واعتدى على قلعة كورون، وتمكن من الاستيلاء على المورة في أغسطس سنة ١٥٣٢م، ثم استولى على پاتروس وليبانت (اينه بختي)، إلا أن محمد بك ابن يحيي أمير سنجق سمندره استعاد قلعة كورون فيما بعد.

كان الجيش العثماني في البر على قدر كبير من النجاح، وما كان قد وصل إلى هذه الدرجة في البحر. وقد ارتأى للدولة العثمانية أن تكون على قدر كبير من النجاح في البحر نظراً لامتداد سواحلها ووقوف ملك أسبانيا وإمبراطور ألمانيا شارلكان ضدها في هذه الفترة. كان من الضروري لها أن تبحث عن بحار يمكنه التصدي لحوت البحر أندريه دوريا، فوجدته في شخص أمير الجزائر خير الدين بربروسا. وقد أرسل السلطان سليمان القانوني فرماناً إلى بربروسا، يأمره فيه بالقدوم إلى استانبول بعد أن يعين مكانه واحداً من أهله إن وجد من هو أهل لذلك، وإلا أخبر السلطان كتابة بعدم وجود من يثق فيه.

وبعد أن اتخذ بربروسا الترتيبات اللازمة في الجزائر ، ترك مكانه لحسن أغا الخادم –الذي يتمتع ببنوته– نائباً عنه، كما ترك معه رمضان چلبي أو

الحاج مستشاراً. واستقل أسطولاً مكوناً من عشرة سفن في أواسط أغسطس سنة ١٥٣٢م (المحرم ٩٣٩ هـ). وبينما هو في طريقه إلى البحر صادف "دلي يوسف" يقود ست عشرة سفينة، فضمه إليه، ومرا سوياً من مرفأ بونيفچيو الذي يقع بين جزيرتي سردينيا وكورسيكا. واستوليا على ثمان عشرة سفينة كانت تحمل قمحاً لجزيرة صقلية. وبعد أن أخذا ما بها، أطلقا عليها النيران. وقد قُتل في المعركة "دلي يوسف"، وعُرف من الأسرى الذين قبض عليهم أن أندريه دوريا ذهب إلى كورون ومعه خمسون سفينة. فتحرك بربروسا مسرعاً إلى پَرَوَزه، ولما وصل إليها، كان أندريه دوريا قد انتقل إلى إيطاليا منذ ستة أيام.

ترك بربروسا پَرَوَزه ومعه أربع وأربعون سفينة، أرسل منها خمساً وعشرين إلى الجزائر، وتوجه بالباقي إلى قلعة كورون. فقابل هناك القبطان أحمد بك كمانكش الذي اصطحبه إلى استانبول، وأنزله ضيفاً في قصره في ميدان "آت" سنة ١٥٣٣م(١).

استقبل السلطان سليمان بربروسا وثمانية عشر شخصاً من رفاقه، وطرح عليه عدة أسئلة عن أندريه دوريا وما أثاره في البحر الأبيض المتوسط. وقد أثارت إجاباته الجريئة في نفس السلطان الاهتمام، فأنعم عليه برتبة أمير الأمراء (بكلر بك) ورتبة الأميرال الذي يشرف على جميع الترسانات البحرية. ثم أرسله إلى الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي كان يقضي بعض الوقت في حلب، وهو في الطريق إلى إيران لفتحها. واستقبل الصدر الأعظم خير الدين باشا في حلب، ومنحه رتبة قبطان غاليبولي وأمير أمراء الجزائر، وألبسه الخلعة، ثم أرسله إلى استانبول.

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser , cilt 2, s.370-372

وانظر : دلي أرجمند كوران : المرجع السابق، ص١٢

وانظر أيضا: د. عبد الرحمن جايجي : المرجع السابق، ص ٢٧

ويقال إن السلطان سليمان هو الذي أطلق عليه اسم خير الدين، فقد قال له: "أنت خير لهذا الدين، فليكن اسمك خير الدين". وقد شوهد هذا الاسم مكتوباً على الجامع الذي يحمل اسمه بتاريخ ٩٢٦هـ[١] .

(ز) حروب بربروسا البحرية خدمة للعثمانيين:

(١) الاستيلاء على تونس والتراجع عنها: عندما استتب الأمر للأتراك في مدينة الجزائر، تحول اهتمامهم بالضرورة إلى تونس للاستيلاء عليها، حتى يضمنوا حرية التنقل بين حوضي البحر الأبيض المتوسط.

قام خير الدين بربروسا بحملته الأولى على تونس سنة ١٥٣٤م (ذي القعدة ٩٤٠ هـ)، حيث كان يقوم على أمرها، مولاي الحسن من سلالة الحفصيين. وقد استقبل الأميرال خير الدين من طرف الشعب أحسن استقبال، واستولى بسهولة على مدينة تونس في ١٨ إبريل سنة ١٥٣٤م، ونادى بسقوط الحفصيين.

إن تمركز الحكم العثماني بتونس، قد دفع مولاي الحسن وبعض الأمراء الإيطاليين والبابا أن يستنجدوا بشارل الخامس (شارلكان) الذي قام باحتلال مدينة تونس في ٢١ يوليو سنة ١٥٣٥م، مرجعاً مولاي الحسن على العرش. وقد أصبح هذا الأخير خاضعاً لتبعية شارل الخامس، وسلم إليه قلعة حلق الوادي[٢] .

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser , cilt 2, s.372

(٢) تاريخ يچوى: م ١ ، ص ٤٩٣

Samih Aziz Ilter: Adigeçen Eser, s.102

د. عبد الرحمن چابچي : المرجع السابق: ص ٢٧

د. أرجمند كوران : المرجع السابق: ص ١٢

(٢) الحرب مع البندقية وحلفائها: كانت جمهورية البندقية تتبع سياسة مزدوجة باستمرار. فضلاً عن ذلك كانت على عداء دائم مع العثمانيين. وكان البابا بول الثالث أحد الأسباب التي تدفع البنادقة إلى الاعتداء على العثمانيين، رغم معاهدات الصداقة التي كانت توقع بين الطرفين أحياناً. وقد تمكن البابا من الجمع بين شارلكان وفرانسوا الأول ملك فرنسا، ودفعهما لتوقيع معاهدة صداقة بينهما تستمر لمدة عشر سنوات، كما تمكن من ضم البندقية إليهما وأخذ يحرضهم ضد الترك سنة ١٥٣٧م.

وفي هذه الآونة استولى أمير البوسنة "الغازي خسرو باشا" على بعض القلاع التابعة للبندقية. وفي نفس العام نقل الوزير الثاني لطفي باشا جنوده البرية بالمراكب، واشترك مع الأسطول الذي كان يرأسه بربروسا في التوجه إلى البحر الأدرياتيكي في مايو سنة ١٥٣٧م (أول ذي الحجة ٩٤٣ هـ).

وبعد أسبوع واحد تحرك السلطان بنفسه من استانبول متوجهاً إلى سواحل أولونيا Avlonya وكان دافعه إلى ذلك مساعدة جنوده الذين ذهبوا إلى الأدرياتيك من ناحية، والقضاء على العصيان الذي اتسع في دالفينه نتيجة لتحريض البنادقة من ناحية أخرى. وكان من نتيجة هذه الحركة المفاجئة أن انتهى العصيان وانتهت معه القلاقل في تلك النواحي.

وفي هذه الآونة، صدرت الأوامر لأسطول مكون من مائة وخمس وثلاثين قطعة بحرية، مضافاً إليها مائتان وثمانون، بقصف السواحل الشرقية لإيطاليا. وبينما الأسطول في طريقه إلى هذه المناطق، تمكن أندريه دوريا من الاستيلاء على اثنتي عشرة سفينة كان يقودها علي كتخدا وكيل ترسانة غاليبولي الذي كان في طريقه للالتحاق بالأسطول وأغرقها عن آخرها. ولما سمع السلطان بهذا الخبر السيئ وهو في أولونيا، أمر لطفي باشا بمحاصرة جزيرة كورفو. ولدى

سماع أندريه دوريا بتحرك الأسطول العثماني إلى كورفو، انسحب إلى مسينا Mesina. ظل الحصار حول جزيرة كورفو مستمراً لمدة عشرين يوماً دونما نتيجة، فقرر السلطان رفع الحصار لحلول الشتاء. وقد تمكن بربروسا في هذه الفترة من الاستيلاء على بعض الجزر التابعة للبندقية مثل شيرا وپاتموس وناقسوس وغيرها.

(٣) حروب پروزه والتحكم في البحر الأبيض المتوسط: تكور تجمع قواد أساطيل الدول المتحالفة وهي إمبراطورية شارلكان والبندقية والبابا والبرتغال في جزيرة كورفو، بينما الأسطول العثماني يوالي الاستيلاء على الجزر الواحدة تلو الأخرى. وقد دارت المباحثات فيما بينهم حول تكليف شارلكان بالاستيلاء على الجزائر، وتكليف جمهورية البندقية باسترجاع الجزر التي استولى عليها الترك.

جاء البنادقة إلى كورفو أولاً ثم تبعتهم أساطيل البابا، ولم يعرف شيء عن تحرك أسطول شارلكان. وفي نفس الوقت قام أميرال الأسطول البابوي كريماني بالهجوم على قلعة پروزه الواقعة جنوبي يانيه، ثم حاصرها. ولما لم يوفق بعد حصاره لها، عاد إلى كورفو فور علمه بوصول الأسطول العثماني. وبعد ذلك وصل أندريه دوريا في ٢٢ سبتمبر إلى كورفو ومعه تسع وأربعون سفينة. تقدم بربروسا بسرعة نحو پروزه بعد أن قصف كفالونيا، وذلك لعلمه بتجمع سفن المتحالفين فيها. ولما لم يتمكن أندريه دوريا من الصمود أمام نيران السفن العثمانية الكثيفة، قرر التراجع بما معه من سفن المتحالفين. وانتهت المعركة في ٢٨ سبتمبر سنة ١٥٣٩م (جمادي الأولى ٩٤٥ هـ).

وكان من نتيجة معركة پروزة الشهيرة في تاريخ البحرية العالمية أن فقد أندريه دوريا سمعته كبحار لا منافس له، واحتل منافسه وهو خير الدين

بربروسا موقعه. واكتسب رؤساء الأسطول أمثال طورغود الريس ومراد الريس وصالح الريس وكوزلجه الريس شهرة كبيرة بفضل الانتصار في معركة بروزه.

لم تجن البندقية فائدة من وراء تحالفها مع القوات التي ذكرت سابقاً، فقررت عقد الصلح مع العثمانيين. وبموجب الصلح تركت البندقية القلاع الواقعة على سواحل المورة ودلماسيا والجزر التي استولى عليها بربروسا للعثمانيين، مع دفع الجزية لهم[1] .

(٤) النزاع العثماني الأسباني: جعل خير الدين بربروسا باشا الترك حكاماً للبحر الأبيض بعد موقعة بروزه الشهيرة.

تحركت في نفس الإمبراطور شارلكان أطماع الاستيلاء على الجزائر، وطرد العثمانيين منها. فقاد جيشاً كبيراً حمله على السفن ومعه أندريه دوريا وفرسان البابا وفرسان مالطه بسفنهم في خريف ١٥٤١م.

نزلت العساكر إلى البر بمجرد وصولها إلى الجزائر، فقابلها جنود القلاع بعنف، كما دافع عن قلعة الجزائر حسن أغا الخادم وكيل بربروسا. واستمر الهجوم والدفاع ما يقرب من أربعة أشهر، خسرت قوات التحالف فيها بعض أفرادها كما دمرت العواصف بعضاً من سفنها، وعاد شارلكان بقواته المتبقية إلى دياره في ديسمبر ١٥٤١م.

(1) انظر: Barbaros Hayreddin Paşa'nn Hatiralari (Tarih Mecmuasi), sayi 9, Ekim 1965 s.57,58

(٥) المساعدات التي قدمها الأسطول العثماني للفرنسيين: لـــم تنته الحروب بعد بين فرانسوا الأول وشارلكان. وعلى الرغم من أن فرانســـوا كان يطلب المساعدة باستمرار من السلطان العثماني، إلا أنه كان يمارس سياسة ذات وجهين نظراً للتعصب الديني المتبع في أوربا. وقد كان السلطان ســـليمان يلتمس له العذر دائماً ويهب لمساعدته كلما طلب ذلك.

توقف شارلكان عن نشاطه البحري بعد فشله في الاستيلاء على الجزائر. وكانت فرنسا في وضع لا يمكنها من التغلب على شارلكان في البحر، فكـــانت مطالبها من العثمانيين تقتصر على المساعدات البحرية. تحالف فرانســوا الأول مع الترك ، كما تحالف شارلكان مع إنجلترا. ومع أن السلطان العثماني كان يود ضم البنادقة للحلف التركي الفرنسي، إلا أنه نجح في تحييدهم دون ضمهم. وكان هدفه من وراء ذلك أن يمنع أي تحالف بين البنادقة والإمبراطور شارلكان.

قاد خير الدين باشا أسطولاً مكوناً من ١٤ سفينة في ربيع ســـنة ١٥٤٣م (٩٥٠ هـــ) وتقدم به في البحر الأبيض، مصطحباً معه السفير الفرنسي بولن دو لاجارد. وعندما وصل الأسطول إلى رجيو المجاورة لنابولي التحق به أســـطول جزائري مكون من ٤١ سفينة. وبعد أن استولى بربروسا على رجيو وبعـــض المناطق الأخرى، تقدم إلى ميناء أوستيا، ثم واصل السير بحذاء الساحل حتـــى وصل إلى مرسيليا في ٢٤ يونيو سنة ١٥٤٣م.

قابل قائد الأسطول الفرنسي فرانسوا دو باربون (دوق دنكيان) الأســـطول العثماني بمراسم الاحتفال. وكان هذا القائد في الثالثة والعشرين مـــن العمـــر، وعندما قابله بربروسا سأله عن خطة الحرب، وقد دهش أيما دهشة عندما وجـــد أن الفرنسيين الذين استنجدوا بالعثمانيين ليست لديهم خطة عســـكرية. وتقـــرر الاستيلاء على نيس من يد دوق سافوا حليف شارلكان.

سلمت نيس في ٢٠ أغسطس سنة ١٥٤٣م نتيجة للحصار الشديد. ومن الجدير بالذكر أن ذخيرة الجيش الفرنسي قد نفدت أثناء حصار قلعتها الداخلية، فطلبوا من بربروسا المزيد، فأخذته الدهشة من ذلك، ووجه كلامه إلى قائد أسطولهم فرانسوا، قائلاً: "ما أحسن هؤلاء المحاربين! ملأوا سفنهم بزجاجات الشراب. ولم ينسوا شيئاً سوى البارود". ثم سأل السفير معاتباً بشدة: "هل كنت تتسلى عندما قلت لي في استانبول أن الدولة على أتم الاستعداد؟".

وصل الأسطول العثماني إلى ميناء طولون للراحة، وقد تمكن بربروسا في هذه الفترة من تخليص طورغود الريس من أسر ابن أخي أندريه دوريا ويسمى جانتينو دوريا.

ترك بربروسا الأسطول العثماني في غرب البحر الأبيض، وقبل عودته أمر الأسطول بضرب سواحل أسبانيا وسردينيا، ومساعدة الفرنسيين ضد أعدائهم، ثم عاد سنة ١٥٤٤م إلى استانبول ومعه ٤٠٠ من البحارة العثمانيين الذين كانوا يساعدون الفرنسيين.

(ح) وفاة بربروسا:

لم يخرج بربروسا إلى الحرب مرة أخرى بعد مساعدته للفرنسيين، فقد كان كبير السن يبلغ من العمر الثمانين تقريباً. وبعد عودته من غرب البحر الأبيض بعامين، توفي ودفن في بشكطاش في ١٦ يوليو سنة ١٥٤٦م[1] (٢جمادي الأولى سنة ٩٥٣ هـ). وقد أطلق اسمه على المرفأ الذي يقع على

(١) ويقال إنه توفي في ٤ يوليو ١٥٤٦م، عن عمر يناهزالرابعة والسبعين.
Barbaros Hayreddin Paşa'nn Hatiralari (Tarih Mecmuasi), sayı 10, Ekim 1965 s.65

البسفور في مواجهة قبره[١]. وبعد وفاته تمكن الأسطول العثماني من المحافظة على قدرته ونشاطه لمدة من الزمن.

٢- في المحيط الهندي والخليج والبحر الأحمر:

ازداد نشاط البرتغاليين في المحيط الهندي والخليج والبحر الأحمر في عهد السلطان سليمان القانوني، فاستولوا على مدخل البحر الأحمر والخليج وعلى ديو ١٥٣٨م الواقعة على شواطئ الهند، كما وضعوا لأنفسهم ركائز على الشواطئ خاصة في الخليج .

وقد احتدم الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين على هذه المياه في عهد السلطان سليمان القانوني، فالعثمانيون يريدون منع البرتغاليين من التسلط على مداخل المياه العربية الجنوبية وعلى بعض الشواطئ وطردهم من هذه المواقع الهامة. وكان البرتغاليون من جانبهم يهدفون إلى السيطرة على بعض المناطق الحساسة في المياه العربية، وإزالة جميع العوائق التي تعترض تجارة الهند[٢] .

واصل السلطان سليمان القانوني سياسته الرامية إلى تأمين مداخل المياه العربية في الجنوب، فأرسل القبطان المشهور سلمان الريس للاستيلاء على اليمن. وقد تمكن سلمان وأخوه من فتح جزيرة كمران اليمنية الواقعة على البحر الأحمر من يد البرتغاليين. ثم تحركا إلى اليمن واستطاعا الاستيلاء على بعض

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser , cit 2, s.372-383

ظل الأسطول العثماني لمئات السنين يطلق المدافع تحية لروح بربروسا، كلما تحرك للحرب ماراً ببشكطاش. وكان إلى عهد قريب يقام احتفال قومي وعسكري كل عام في تركيا في ذكرى الانتصار في بروزه.

(Barbaros Hayreddin Paşa'nn Hatıraları, aynı sayı, aynı sayfa)

(٢) د. أحمد فؤاد متولي: البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، على ضوء الوثائق التركية. بحث في حولية كلية العلوم الاجتماعية بالرياض العدد الرابع سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

أجزائها سنة ١٥٣٩م (سنة ٩٤٥ هـ). وقد ترك سلمان أخوه حسين حاكما عليها، وعاد هو إلى السويس، بعد فشله في الاستيلاء على عدن. ولكن سليمان باشا الخادم تمكن من فتح منطقة زبيد في مارس سنة ١٥٣٩م (٩ شوال ٩٤٥ هـ)، ثم فتح عدن[1] .

أمر السلطان بيري الريس بالإبحار إلى مياه الهند سنة ١٥٥١م (٩٥٨ هـ)، للتصدي للبرتغاليين، فاستولى بيري أولا على مسقط، ثم حاصر البرتغاليين المتواجدين في جزيرة هرمز، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها، فتوجه إلى البصرة لطلب النجدة من واليها العثماني.

واحتدم الصراع في جزيرة هرمز وفي خليج البصرة بين العثمانيين والبرتغاليين، ولكن النصر كان حليف البرتغاليين في أغلب المعارك التي دارت في الخليج، وكذلك التي وقعت في مياه الهند حيث سبق وأن استقر البرتغاليون في هذه المناطق منذ فترة وتمركزوا فيها وقووا حصونهم وقلاعهم على الشواطئ[2] .

محاولة فتح جزيرة مالطة

انضم أسطول عثماني مكون من ٩٠ سفينة في ربيع ١٥٥١م إلى الأسطول الذي كان يقوده طورغود في جزيرة أغريبوز، ثم تحركت القطع البحرية إلى جزيرة مالطة مركز القراصنة في البحر الأبيض. وقد قام سنان باشا بقيادة المراكب الحربية وتحول بها إلى طرابلس الغرب التي كان فرسان

---

(١) قطب الدين النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني، ص ٣٩ الرياض ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م) وانظر: د. السيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥، ص ١٤٧-١٦٣ القاهرة ١٩٦٩.

(٢) لتوضيح ذلك، انظر : د. أحمد فؤاد متولي: البحرية العثمانية والبرتغالية فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى) على ضوء الوثائق التركية..

القديس يوحنا الأورشليمي قد تسلموها من الأسبان وتعهدوا بالدفاع عنها والمحافظة عليها، ثم حاصرها حصاراً شديداً حتى سقطت في ١٤ أغسطس ١٥٥١م (٩٥٨هـ).

ومنذ أن أقام فرسان القديس في مالطة بعد أن استولى العثمانيون على جزيرة رودس ١٥٢٢م، وهم يقيمون الاستحكامات فيها، ويجهزون الأساطيل القوية، وكلما لاحت فرصة اقتنصوها واعتدوا على السفن التجارية العثمانية وهاجموا البحارة العثمانيين أو انضموا لأي دولة تحارب العثمانيين وأمدوها بالمساعدة الفعلية، وفضلاً عن ذلك فإن جزيرة مالطه تعد طريقاً هاماً بين مصر وطرابلس الغرب والجزائر التي تقع في حوزة العثمانيين، ودوافع الأمن تقتضي فتحها[1].

تحرك الأسطول العثماني قاصداً مالطة في أبريل ١٥٦٥م (٩٧٢هـ). وحاصر الجزيرة، ثم تمكن من الاستيلاء على قلعة سنتلان، إلا أنه لم يتمكن من فتح الجزيرة التي هب الأسبان والفرنسيون والبابا لنجدتها[2] .

الامتيازات الأجنبية

لم يجد السلطان سليمان القانوني أي ضير في منح بعض الدول الأوربية خاصة فرنسا بعض الامتيازات، فبمقدوره متى شاء أن يلغيها أو يخفف من بنودها أو يقلل من مزاياها. لم ينظر السلطان إلى المستقبل البعيد، ولم يخطر بباله أن الدولة العثمانية قد يعتريها الضعف والاضمحلال، فتصبح غير قادرة على إلغاء هذه الامتيازات أو التخفيف من شروطها والتزاماتها، خاصة وأن هذه

---

(١) انظر خريطة "الامبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني" ضمن قسم الخرائط واللوحات رقم (١٨).

(2) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser , cit 2, s.388-390 انظر:

الدول التي مُنحت الامتيازات، ستعتبرها بمرور الزمن من صميم حقوقها التي لا يمكن التفريط فيها، كما أن هذه الدول ستحاول بمرور الأيام المطالبة بالمزيد من الامتيازات، أو توسيع مجال الامتيازات القديمة..وهذا ما حدث بالفعل..

كانت الدول الأوربية الكبرى لا تنفك عن التدخل في شئون الدولة العثمانية بطرق وأساليب مختلفة، وذلك استناداً إلى الامتيازات الأجنبية Capitulation. إن الامتيازات المذكورة كانت قد نشأت من الفرامين التي أصدرها والمعاهدات التي أبرمها سلاطين آل عثمان في تواريخ مختلفة في شتى الظروف والمناسبات.

لقد أخذت شكل نظم تعهدية لم تعد الدولة العثمانية تملك حق إلغائها أو تعديلها من تلقاء نفسها، ولا سيما بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الضعف والانحطاط. فصارت الدول المذكورة تعتبر تلك الامتيازات بمثابة حقوق مكتسبة لها ولرعاياها، وحتى لكل من تشملهم بنعمة حمايتها من تبعة الدولة العثمانية نفسها. ولهذه الأسباب لعبت الامتيازات المذكورة دوراً هاماً في تاريخ الدولة العثمانية، خلال عهدها الأخير. لقد عرقلت كثيراً جهود التنظيم والتقدم في عهد التنظيمات، وصارت موضوعاً لشتى المساومات في عهد المشروطية، وانتهت إلى نتائج خطيرة قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى[١].

وهذه هي الامتيازات التي منحها السلطان سليمان القانوني لرعايا فرنسا بالممالك المحروسة في فبراير ١٥٣٦م (٩٤٢ هـ)[٢].

(البند الأول): تعاهد المتعاقدان بالنيابة عن جلالة الخليفة الأعظم وملك فرنسا على السلم الأكيد والوفاق الصادق مدة حياتهما وفي جميع الممالك

(١) ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية ط ٢، ص ١٤٢، ١٤٣ بيروت ١٩٦٠.

(٢) نقلا عن: محمد فريد: المرجع السابق، ص ٩١-٩٥

والولايات والحصون والمدن والموانئ والثغور والبحار والجزر وجميع الأماكن المملوكة لهما الآن أو التي تدخل في حوزتهما فيما بعد بحيث يجوز لرعاياهما وتابعيهما السفر بحراً بمراكب مسلحة أو غير مسلحة و التجول في بلاد الطرف الآخر والمجيء إليها والإقامة بها أو الرجوع إلى الثغور والمدن أو غيرها بقصد الاتجار على حسب رغبتهم بكمال الحرية بدون أن يحصل لهم أدنى تعد عليهم أو على متاجرهم.

(**البند الثاني**): يجوز لرعايا وتابعي الطرفين البيع والشراء والمبادلة في كافة السلع الغير ممنوع الاتجار فيها ونقلها براً أو بحراً من مملكة إلى أخرى مع دفع العوائد والضرائب المعتادة قديماً، بحيث يدفع الفرنساوي في البلاد العثمانية ما يدفعه الأتراك، ويدفع الأتراك في البلاد الفرنساوية ما يدفعه الفرنساويون بدون أن يدفع أي الطرفين عوائد أو ضرائب أو مكوساً أخرى.

(**البند الثالث**): عندما يعين ملك فرنسا قنصلاً في مدينة القسطنطينية أو في بيرا أو غيرهما من مدن المملكة العثمانية كالقنصل المعين الآن بمدينة الإسكندرية، يصير قبوله بكيفية لائقة، ويكون له أن يسمع ويحكم ويقطع بمقتضى قانونه وذمته في جميع ما يقع في دائرته من القضايا المدنية أو الجنائية بين رعايا ملك فرنسا بدون أن يمنعه من ذلك حاكم أو قاضٍ شرعي أو صوباشي أو أي موظف آخر. ولكن لو امتنع أحد رعايا الملك عن إطاعة أوامر أو أحكام القنصل، فله أن يستعين بموظفي جلالة السلطان على تنفيذها وعليهم مساعدته ومعاونته. وعلى أي حال ليس للقاضي الشرعي أو أي موظف آخر أن يحكم في المنازعات التي تقع بين التجار الفرنساويين وباقي رعايا فرنسا حتى لو طلبوا منه الحكم بينهم وإن أصدر حكماً في مثل هذه الأحوال يكون حكمه لاغياً لا يعمل به مطلقاً.

(البند الرابع): لا يجوز سماع الدعاوى المدنية التي يقيمها الأتراك أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة السلطان ضد التجار أو غيرهم من رعايا فرنسا أو الحكم عليهم فيها، ما لم يكن مع المدعين سندات بخط المدعى عليهم أو حجة رسمية صادرة من القاضي الشرعي أو القنصل الفرنساوي. وفي حالة وجود سندات أو حجج لا تسمع الدعوى أو شهادة مقدمها إلا بحضور ترجمان القنصل.

(البند الخامس): لا يجوز للقضاة الشرعيين أو غيرهم من مأموري الحكومة العثمانية سماع أي دعوى جنائية أو الحكم ضد تجار ورعايا فرنسا بناء على شكوى من الأتراك أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا الدولة العلية، بل على القاضي أو المأمور الذي ترفع إليه الشكوى أن يدعو المتهمين بالحضور بالباب العالي محل إقامة الصدر الأعظم الرسمي.

وفي حالة عدم وجود الباب المشار إليه (أي إذا حصلت الواقعة في محل غير الآستانة) يدعوهم أمام أكبر مأموري الحكومة السلطانية وهناك يجوز قبول شهادة جابي الخراج والشخص الفرنساوي ضد بعضهما.

(البند السادس): لا يجوز محاكمة التجار الفرنساويين ومستخدميهم وخادميهم فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القاضي أو السنجق بك أو الصوباشي أو غيرهم من المأمورين بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالي ومن جهة أخرى يكون مصرح لهم باتباع شعائر دينهم ولا يمكن جبرهم على الإسلام أو اعتبارهم مسلمين ما لم يقروا بذلك غير مكرهين.

(البند السابع): لو تعاقد واحد أو أكثر من رعايا فرنسا مع أحد العثمانيين أو اشترى منه بضائع أو استدان منه نقوداً ثم خرج من الممالك العثمانية قبل أن

يقوم بما تعهد به فلا يسأل القنصل أو أقارب الغائب أو أي شخص فرنساوي آخر عن ذلك مطلقاً وكذلك لا يكون ملك فرنسا ملزماً بأي شيء بل عليه أن يوفي طلب المدعي من شخص المدعى عليه أو أملاكه لو وجدت بأراضي الدولة الفرنساوية أو كان له أملاك بها.

(البند الثامن): لا يجوز استخدام التجار الفرنساويين أو مستخدميهم أو خدامهم أو سفنهم أو فلائكهم أو ما يوجد بها من اللوازمات أو المدافع أو الذخائر أو التجارة جبراً عنهم في خدمة جلالة السلطان الأعظم أو غيره في البر والبحر ما لم يكن ذلك بطوعهم واختيارهم.

(البند التاسع): يكون لتجار فرنسا ورعاياها الحق في التصرف في كافة متعلقاتهم بالوصية بعد موتهم وعند وفاة أحد منهم وفاة طبيعية أو قهرية عن وصية فتوزع أمواله وباقي ممتلكاته على حسب ما جاء بها ولو توفى ولم يوص فتسلم تركته إلى وارثه أو الوكيل عنه بمعرفة القنصل لو كان في محل وفاته قنصل وإلا فتحفظ التركة بمعرفة قاضي الجهة بعد أن تعمل بها قائمة جرد على يد شهود. أما لو كانت الوفاة في جهة بها قنصل فلا يكون للقاضي أو مأمور بيت المال أو غيرهما حق في ضبط التركة مطلقاً ولو سبق ضبطها بمعرفة أحد منهم يصير تسليمها إلى القنصل أو من ينوب عنه لو طلبها قبل الوارث أو وكيله وعلى القنصل توصيلها وتسليمها إلى صاحب الحق فيها.

(البند العاشر): بمجرد اعتماد جلالة السلطان وملك فرنسا لهذه المعاهدة فجميع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيهم أو على مراكبهم أو سفنهم أو في أي محل أو إقليم تابع لسلطتهما في حالة الرق سواء كان ذلك بشرائهم أو بأسرهم وقت الحرب يصير إخراجهم فوراً من حالة الاسترقاق إلى بحبوحة الحرية بمجرد طلب وتقرير السفير أو القنصل أو أي شخص آخر معين لهذا

الخصوص ولو كان أحدهم قد ـير دينه ومعتقده فلا يكون ذلك مانعاً لإطـــلاق سراحه.

ومن الآن فصاعداً لا يجوز لجلالة السلطان أو ملك فرنسا ولا لقبودانـات البحر ورجال الحرب أو أي شخص آخر تابع لأحدهما أو لمن يستأجرونهم لذلك سواء في البر و البحر أخذ أو شراء أو بيع أو حجز أسراء الحرب بصفة أرقـاء ولو تجاسر قرصان أو غيره من رعايا إحدى الدولتين المتعاقدتين على أخذ أحد رعايا الطرف الآخر أو اغتصاب أملاكه أو أمواله يصير إخبار حـاكم الجهـة وعليه ضبط الفاعل ومعاقبته على مخالفته شروط الصلح عبرة لغيره ورد مـا يوجد عنده من الأشياء المغتصبة إلى من أخذت منه وإذا لم يضبط الفاعل فيمنع هو وجميع شركائه من الدخول في البلاد وتضبط ممتلكاته لجانب الحكومة التابع إليها ويصير التعويض على ما حصل له من الضرر مما يصادر مـن أمـلاك الجاني وهذا لا يمنع من مجازاته لو صار ضبطه فيما بعد وللمجنـي عليـه أن يستعين على الحصول على ذلك بضامني هذا الصلح وهـم السرعسـكر عـن الجانب السلطاني وأكبر القضاة عن ملك فرنسا.

(البند الحادي عشر): لو تقابلت دونانمات إحدى الدولتيـن المتعـاقدتين ببعض مراكب رعايا الدولة الأخرى فعلى هذه المراكب تنزيل قلوعـها ورفـع أعلام دولتها حتى إذا علمت حقيقتها لا تحجزها أو تقاضيها السفن الحربيـة أو أي تابع آخر للدولة صاحبة الدونانمه. وإذا حصل ضرر لأحدهما فعلى الملـك صاحب الدونانمه تعويض هذا الضرر فوراً. وإذا تقابلت سفن رعايا الدولتيـن فعليهما رفع العلم وإبداء السلام بطلقة مدفع والمجاوبة بالصدق لو سئل ربانـها عن الدولة التابع إليها ولما تعلم حقيقتها لا يجوز لإحداها أن تفتـش الأخـرى بالقوة أو تسبب لها أي عائق كان.

(البند الثاني عشر): إذا وصلت إحدى المراكب الفرنساوية سواء بطريق الصدفة أو غيرها إلى إحدى موانئ أو شطوط الدولة العلية تعطى ما يلزمها من المأكولات و غيرها من الأشياء مقابل دفع الثمن المناسب بدون إلزامها تفريغ ما بها من البضائع لدفع الأثمان ثم يباح لها الذهاب أينما تريد. وإذا وصلت إلى الآستانة وأرادت السفر منها بعد الاستحضار على جواز الخروج من أمين الجمرك ودفع الرسم اللازم وتفتيشها بمعرفة الأمين المشار إليه فلا يجوز ولا يمكن تفتيشها في أي محل آخر إلا عند الحصون المقامة بمدخل بوغاز جاليبولي (الدردنيل) بدون دفع شيء مطلقاً لا عند هذا البوغاز ولا في أي مكان آخر عند خروجها خلاف ما صار دفعه سواء كان الطلب باسم جلالة السلطان أو أحد مأموريه.

(البند الثالث عشر): لو كسرت أو أغرقت مراكب إحدى الدولتين بالصدفة أو غيرها عند البلاد التابعة للطرف الآخر فمن ينجو من هذا الخطر يبقى متمتعاً بحريته لا يمانع في أخذ ما يكون له من الأمتعة وغيرها. أما لو غرق جميع من بها فما يكن تخليصه من البضائع يسلم إلى القنصل أو نائبه لتسليمها لأربابها بدون أن يأخذ القبودان باشا أو السنجق بك أو الصوباشي أو القاضي أو غيرهم من مأموري الدولة أو رعاياها شيئاً منها وإلا فيعاقب من يرتكب ذلك بأشد العقاب وعلى هؤلاء المأمورين أن يساعدوا من يخصص لاستلام الأشياء المذكورة.

(البند الرابع عشر): لو هرب أحد الأرقاء المملوكين لأحد العثمانيين واحتمى في بيت أو مركب أحد الفرنساويين فلا يجبر الفرنساوي إلا على البحث عنه في بيته أو مركبه ولو وجد عنده يعاقب الفرنساوي بعرفة قنصله ويرد

الرقيق لسيده. وإذا لم يوجد الرقيق بدار أو مركب الفرنساوي فلا يسأل عن ذلك مطلقاً.

(البند الخامس عشر): كل تابع لملك فرنسا إذا لم يكن أقام بأراضي الدولة العلية مدة عشر سنوات كاملة بدون انقطاع لا يلزم بدفع الخراج أو أي ضريبة أياً كان اسمها ولا يلزم بحراسة الأراضي المجاورة أو مخازن جلالة السلطان ولا بالشغل في الترسانة أو أي عمل آخر وكذلك تكون معاملة رعايا الدولة في بلاد فرنسا.

وقد اشترط ملك فرنسا أن يكون للبابا وملك إنجلترا أخيه وحليفه الأبدي وملك إيقوسيا الحق في الاشتراك بمنافع هذه المعاهدة لو أرادوا بشرط أنهم يبلغون تصديقهم عليها إلى جلالة السلطان ويطلب منه اعتماد ذلك في ظرف ثمانية شهور تمضي من هذا اليوم.

(البند السادس عشر): يرسل كل من جلالة السلطان وملك فرنسا تصديقه للآخر على هذه المعاهدة في ظرف ستة شهور تمضي من تاريخ إمضائها مع الوعد من كليهما بالمحافظة عليها والتنبيه على جميع العمال والقضاة والمأمورين وجميع الرعايا بمراعاة كامل نصوصها بكل دقة ولكي لا يدعي أحد الجهل بهذه المعاهدة يصير نشر صورتها في الآستانة وإسكندرية ومصر ومرسيليا وناربونة وفي جميع الأماكن الأخرى الشهيرة في البر والبحر التابعة لكل من الطرفين. انتهت المعاهدة.

وبذلك صارت فرنسا الدولة الأوربية الوحيدة الحائزة على امتيازات لرعاياها. ولكن هذا الاتفاق كان سبباً في تدخل فرنسا وباقي دول أوربا في شئون الدولة العثمانية الداخلية.

القوانين التي وضعها سليمان القانوني

اشتهر السلطان سليمان بالقانوني، نظرا لما وضعه من قوانين منظمة تحكم بموجبها الإمبراطورية العثمانية.

وقد راعى السلطان في هذه القوانين أن تكون مختلفة إلى حد ما من منطقة إلى أخرى في أرجاء الإمبراطورية، مراعاة للظروف الخاصة لكل منطقة[١].

ومما يسترعي الانتباه مثلا، أن السلطان سليمان أرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا إلى مصر، لدراسة أسباب وقوع العصيان بها عدة مرات. فوجد أن ذلك مرده القوانين العثمانية الجديدة التي تغالي في فرض الضرائب (وهي التي وضعت للشام ومصر في عهد سليم الأول). ووجد إبراهيم باشا العربان والأهالي ينادون بتخفيف الضرائب وإلغاء القوانين العثمانية التي لا تتفق مع ظروف الديار المصرية، وإعادة القوانين المملوكية. فما كان منه إلا أن طلب مجموعة من القوانين التي وضعت في عهد قايتباي المملوكي، ثم توفر على دراستها، وأخذ يبحث موادها، والطريقة التي اتبعها قانصوه الغوري وخاير بك في تطبيقها. ثم أصدر "قانوننامه" مراعيا فيه مصلحة الرعايا والخزينة، وأجرى تعديلا على القوانين العسكرية والقضائية[٢] .

---

(1) لتوضيح ذلك انظر: Dr. Ömer Barkan: xv ve xvi Asırlarda Osmanlı Imparatorluğunda Zirai, Ekonmi, Hukukî ve Mâlî Esasları : 1 Kanunlar Istabul 1954

(٢) لمزيد من التفصيل ، انظر: قانوننامه" مصر "الذي أصدره السلطان القانوني لحكم مصر"، ترجمه وقدم له وعلق عليه، الدكتور أحمد فؤاد متولي.

وفاة السلطان سليمان القانوني:

وعند وفاة السلطان سليمان القانوني ١٥٦٦م (٩٧٤هـ) كانت الإمبراطورية العثمانية قد بلغت أكثر من ضعف اتساعها خلال فترة حكمه التي امتدت ٤٦ عاماً، بالمقارنة بما كانت عليه ساعة وفاة أبيه سليم الأول. أي أنها بلغت ١٤٨٩٣٠٠٠ كم٢: منها ١٩٩٨٠٠٠ كم٢ في أوربا، ٤١٦٩٠٠٠ كم٢ في أسيا، ٨٧٢٦٠٠٠ كم٢ في أفريقيا(١) .

استمرار فترة العصر الذهبي بعد موت سليمان القانوني:

توفى سليمان القانوني ليلة السبت ٢٠ صفر ٩٧٤ هـ (٦-٧ سبتمبر ١٥٦٦م)، فخلفه على العرش ابنه سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤م=٩٧٤-٩٨٢هـ)(٢). والذين يرون بأن الدولة العثمانية انتهى عصرها الذهبي بموت سليمان القانوني، إنما يقارنون هذا السلطان العظيم بمن تبعاه وهما: ابنه سليم الثاني، وحفيده مراد الثالث (أي حفيد سليمان القانوني). والوضع في ظني يختلف كلية، فسليمان القانوني يعتبر أحد عمالقة العثمانيين، أو آخر العمالقة

---

(1) Yılmaz Öztuna: Adigeçen Eser , cit 2, s.239

يمكن مقارنة المساحة التي بلغتها الدولة العثمانية في كل عهد من عهود السلاطين : أورخان، مراد الأول، محمد الفاتح، بايزيد الثاني، سليم الأول، سليمان القانوني (راجع صفحات ٦٨، ١٥٩، ٢٣١).

(٢) كان سليمان القانوني أسير زوجته الروسية روكسلانا، وهي جارية أهدتها إليه أمه، فأحبها وصارت آثر زوجاته إليه. ولقد قتل سليمان لإرضاء هذه الزوجة بطلا من أبطال العثمانيين وهو الصدر الأعظم إبراهيم باشا، صديق السلطان قبل ولايته الملك، والقائد المنتصر على قلندر بن اسكندر، ورفيق السلطان في أكبر معركة خاضها الترك في أوربا وهي معركة مهاج. ولم يقف شر هذه الجارية السابقة، عند هذا الحد، فقد قتلت بموافقة السلطان وباتهامات باطلة ابنه الأكبر مصطفى (من زوجة جركسية) وقتلت أيضا إبراهيم بن مصطفى وهو طفل فى الثانية عشرة من عمره، وذلك ليستأثر ابنها سليم بالعرش (د. أحمد السعيد سليمان: مذكرات في تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٥٠، ٥١).

العثمانيين على حد قول الأوربيين؛ أما هذين السلطانين وأقصد سليم الثاني ومراد الثالث، فلم يكونا على قدر سلفهما من الأهمية والشهرة. إلا أن الإمبراطورية العثمانية ظلت مرهوبة الجانب إلى أواخر عهد مراد الثالث، كما استمرت فتوحاتها. ولم يفتتح عهد الاضطرابات والأزمات، إلا في أواخر عهد السلطان مراد الثالث، ابتداء من سنة ١٥٩٠م (٩٩٨ هـ). لهذا ينبغي علينا أن ندرج هذين السلطانين حتى هذا التاريخ ضمن مرحلة العصر الذهبي للإمبراطورية العثمانية. ولا ينبغي علينا المقارنة بين سليمان العظيم -كما يسميه الأوربيون- من ناحية، وبين ابنه سليم الثاني وحفيده مراد الثالث من ناحية أخرى، فالفرق شاسع وكبير يوقعنا في خطأ اعتبار هذه الفترة الأخيرة ضمن عصر الانحطاط والاضمحلال والضعف.

والإمبراطورية العثمانية -والحق يقال- تمكنت بالكاد في عهد سليم الثاني ومراد الثالث من الاحتفاظ بفتوحاتها السابقة وأمجادها العريقة حتى عام ١٥٩٠م (٩٩٨ هـ) في عهد مراد الثالث. وكانت الفتوحات الجديدة في عهد هذين السلطانين ضئيلة، إلا أنهما حافظا على أملاك الدولة العثمانية وأضافا إليها، خاصة في عهد سليم الثاني الذي لعب فيه الصدر الأعظم محمد باشا صقوللي دوراً كبيراً كسياسي قدير وكمحارب فذ[1].

ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطورية العثمانية بلغت أقصى مدى وصلت إليه في السعة في عهد حفيد القانوني مراد الثالث (تولى ١٥٧٤ - ١٥٩٥م)، فقد

(١) ولد محمد باشا صقوللي في بلدة صوقول بالبوسنة سنة ٩١١هـ. وتولى منصب الصدارة العظمى في أواخر عهد سليمان القانوني وطوال عهد سليم الثاني ولمدة خمس سنوات في عهد مراد الثالث، إلا أنه كان من المغضوب عليهم في عهد الأخير فقتل.

فتح بلاد قفقاسيا الواسعة، وضم إمبراطورية المغرب، ومملكة بولونيا (لهستان) تحت حمايته[١] .

ويعتبر المؤرخ التركي الدكتور خليل اينالجق الإمبراطورية العثمانية إحدى القوى العالمية في الفترة من ١٥٢٦ - ١٥٩٦م، أي خلال عهود سليمان القانوني وسليم الثاني ومراد الثالث[٢] .

فتح جزيرة ساقز:

استولى العثمانيون على الجزر الهامة في البحر الأبيض، بعد أن نمت قوتهم البحرية. إلا أنهم لم يستولوا على جزيرة ساقز المشرفة على ساحل الأناضول، واكتفوا بأخذ الجزية من البنادقة الذين يسيطرون عليها، كما قنعوا بالمعاهدات التجارية التي أبرموها معها. وبمرور الأيام توقفت الجزيرة عن دفع الجزية السنوية، كما أن أمراءها ساعدوا الفرسان أثناء حصار العثمانيين لجزيرة مالطه.

كلف السلطان العثماني سليمان القانوني پياله باشا بالاستيلاء على جزيرة ساقز، أثناء قيامه بالحرب في سگتوار، إلا أن المنية لم تمهل سليمان حتى يرى نتيجة جهود أمير الجزائر وقبطان البحر پياله باشا.

تحرك القبطان في إبريل سنة ١٥٦٦م (٥ رمضان ٩٧٣ هـ)، قاصداً الجزيرة، واستولى عليها بعد وفاة السلطان سليمان، ثم عين مظفر بك أمير سنجق قير شهر حاكماً عليها[٣] .

---

(1) Yilmaz Öztuna: Adigeçen Eser , cit 6, s.240

(2) Dr. Halil Inalcik: Op. Cilt. , p.35

(3) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser , cilt 3, s.6-8 انظر:

الصلح مع النمسا:

عقدت معاهدة للصلح بين الدولة العثمانية و النمسا لمدة ثمان سنوات في ١٧ فبراير ١٥٦٨م (رمضان ٩٧٥ هـ). وكانت شروطها تتلخص في احتفاظ النمسا بأملاكها في بلاد المجر، ودفعها الجزية السنوية المقررة بالعهود السابقة، واعترافها بتبعية أمراء ترانسلفانيا والفلاخ والبغدان إلى الدولة العلية[١].

فتح جزيرة قبرص:

استولى المسلمون على جزيرة قبرص لأول مرة سنة ٢٧هـ (٦٤٨، ٦٤٩م) بينما كانت تحت النفوذ البيزنطي، واكتفوا منها بدفع الجزية. ثم توقفت الجزية بعد مدة من الزمن فقام الخليفة العباسي هارون الرشيد بالاستيلاء عليها. إلا أن الإمبراطور البيزنطي نيكفور فوكس تمكن من استردادها سنة ٧٦٠م. وأثناء الحرب الصليبية استولى ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا على الجزيرة، وطرد البيزنطيين منها، وعين عليها جوي دي لوسجنان ١١٩٢م، وبقيت الجزيرة منذ هذا التاريخ تحكم من قبل سلالة هذا الوالي. ثم وقعت الجزيرة في أيدي الجنويين فترة ومن بعدهم البنادقة، ثم استقرت في يد البنادقة سنة ١٤٨٩م.

وفي سنة ١٤٢٦م (٩٢٨ هـ) استولى برسباي على قبرص، وأسر ملكها جاك، وفرض عليها الجزية، لأن سفنها كانت تهدد الشواطئ المملوكية.

كان تهديد الجزيرة للشواطئ التابعة للدولة العثمانية كشواطئ الأناضول والشام، يزداد من يوم لآخر، وقد دفع هذا بالسلطان سليم الثاني، أن يفكر جدياً في فتحها، للقضاء على الخطر الدائم على شواطئ الدولة العثمانية. ولما أحس

(١) محمد فريد : المرجع السابق: ص ١٠٩

البنادقة أصحاب السيادة على الجزيرة بنية العثمانيين، استنهضوا همة البابا لتحريض أوربا على محاربة العثمانيين.

وعلى الرغم من أن البنادقة نجحوا في عمل حلف مقدس مكون من: فليب الثاني ملك أسبانيا والبابا وفرسان مالطه، إلا أن الأسطول العثماني تحرك في مايو سنة ١٥٧٠م (ذي الحجة ٩٧٧هـ) متوجهاً إلى جزيرة قبرص.

كان من الطبيعي أن يفكر العثمانيون في الاستيلاء على قبرص، فقد استولوا على شرق البحر الأبيض، ولم يعد خارجاً عن نفوذهم في المنطقة سوى جزيرة قبرص، القريبة من سواحل طرابلس الشام والإسكندرونة ومرسين وإيچل. فضلاً عن أن قراصنة مالطه والبندقية كانوا يعتدون على السفن التي تمر من الشام ومصر إلى استانبول والعكس. كما أن القبارصة كانوا يصادرون بضائع التجار الذين تجنح سفنهم على شواطئ الجزيرة بسبب العواصف.

تحرك الأسطول العثماني من استانبول في مايو سنة ١٥٧٠م (ذي الحجة ٩٧٧ هـ) بقيادة قبطان البحر مؤذن زاده علي باشا، ثم عين السردار لالا مصطفى باشا على رأس القوات المتحركة إلى الجزيرة، كما شارك الوزير بياله باشا وهو صهر السلطان في قيادة القوات البحرية. وقد تمكن لالا مصطفى باشا من الاستيلاء على العاصمة لفقوشه في ٩ سبتمبر ١٥٧٠م (٨ ربيع الآخر ٩٧٨ هـ) بعد حصار دام واحداً وخمسين يوماً. وبعد سقوط العاصمة استسلمت المدن الأخرى الواحدة تلو الأخرى، فيما عدا ماغوسه (فماجوسته)، التي استمر حصارها عاماً كاملاً، حتى سقطت في أيدي العثمانيين في ٤ أغسطس ١٥٧١.

وقد اعتبرت قبرص إيالة بعد ضم طرسوس وعلائية وإيچل إليها، حسب نظم الإدارة العثمانية[1]، وعين مظفر باشا أمير سنجق أولونيا والياً عليها.

(١) دفتر المهمة ، رقم ١٦، ص ٣٤٦، بتاريخ جمادى الآخرة ٩٧٩هـ.

وجري تهجير بعض العثمانيين إليها من مدن الأناضول، مثل: قونية وقرامان ونيكده وقيصرية[١].

معركة ليبانت البحرية (اينه بختي):

طلبت البندقية من البابا أن ينادي بعمل حلف مقدس لإنقاذ قبرص من يد العثمانيين. ظل البابا عاماً كاملاً، إلى أن تجمعت حوله أسبانيا ومالطة بالإضافة إلى البندقية بالطبع. ويعتبر هذا التحالف الثاني عشر الذي يقوم به الأوربيون ضد العثمانيين[٢].

قاد دون جوان النمساوي ابن شارلكان وهو ابن أخي فيليب الثاني ملك أسبانيا أسطول التحالف. وترأس مؤذن زاده علي باشا أسطول العثمانيين، وتحرك به إلى ميناء ليبانتو Lepanto حيث تتجمع سفن الحلف. وقد استقر رأي القواد العثمانيين بعد مشاورات طويلة على مباغتة أسطول المتحالفين في الميناء المذكور. بدأت المعركة في صباح ٧ أكتوبر ١٥٧١م (١٧ جمادي الأولى ٩٧٩ هـ)، وانتهت عند المساء بهزيمة الأسطول العثماني هزيمة ساحقة، أغرقت بسببها ١٩٠ سفينة تركية أو أسرت من مجموع ٢٢٤ سفينة، واستشهد قائد الأسطول مؤذن زاده ومجموعة من رفاقه.

ومن الجدير بالذكر أن حسن باشا ابن خير الدين بربروسا كان يشارك في هذه المعركة البحرية.

وقد أطلق العثمانيون على هذه المعركة "اينه بختي" أي الحظ العاثر.

(١) دفتر المهمة ، رقم ١٦، ص ٢٤٦، بتاريخ ٩٧٩هـ، ودفتر المهمة ، رقم ٩، ص ٢٤٦، بتاريخ ٩٧٩هـ

(2) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser , cilt 3, s.6-17

أصبح الوضع حرجاً بالنسبة للعثمانيين بعد أن دمر أسطولهم في موقعة "اينه بختي" البحرية. وقد تضافرت جهود قائد الأسطول الجديد قليج علي باشا مع جهود الصدر الأعظم محمد باشا صقوللي على إنشاء أسطول جديد على جناح السرعة، لتدارك الموقف الحرج الذي أصبح فيه العثمانيون.

وخلال شتاء نفس العام تمكنت هذه الجهود المكثفة بتوجيه من السلطان سليم الثاني نفسه من إنشاء أسطول جديد متكامل، مكون من ٢٥٠ قطعة بحرية، بدأ يجوب البحر الأبيض مع مطلع شهر يونيو ١٥٧٢م (صفر ٩٨٠ هـ) مستعيداً نشاطه السابق.

ويعتبر المؤرخ التركي الدكتور خليل إينالجق هذه المعركة أكبر معركة وقعت في البحر الأبيض بين العثمانيين وأعدائهم، حيث تحطم الأسطول العثماني وقتل ٥٩ ألف جندي من الجانبين[١].

وعلى الرغم من أن معركة ليبانت البحرية كسرت سيطرة العثمانيين التي تحققت لهم منذ معركة پروزه ١٥٣٨م على حد قول المؤرخ الأمريكي پاري Parry؛ إلا أنها يمكن أن تعتبر رمزاً لنصر عسكري مميز، أكثر منه مسألة حيوية في نتائجها الفعلية[٢].

كانت هذه المعركة وسيلة لكي يلتقط الأوربيون أنفاسهم ويتنفسون الصعداء. إلا أن الدول المتحالفة لم تستثمر هذا النصر الذي أحرز. ولم تفقد الدولة العثمانية شيئاً من أملاكها، رغم أن الضربة كانت عنيفة.

---

(1) Dr. Halil Inalcik: Op. Cit., pp.41,42

(2) Pasry: The Successors of Sulaiman 1566-1617. A chapter in : A history of the Tttoman Epire to 1730, by Parry and others, p.109

وقد جعلت هذه الهزيمة الأوربيين يعتقدون في إمكانية هزيمة القوة العثمانية التي كانت لا تهزم في البر أو في البحر. أصبح الاعتقاد عندهم أن أي قوة يمكن أن تهزم كما تهزم قواتهم أمام العثمانيين[١] .

هزت هذه الهزيمة الساحقة الشهرة الكبيرة للدولة العثمانية في البحر الأبيض المتوسط. وتعد الحادثة الثانية بعد حادثة تيمورلنك في نظر نامق كمال[٢] .

الصلح مع البندقية:

تفرق التحالف بعد هذه المعركة، ولم يتمكن المتحالفون من اقتناص الفرصة، ومالت البندقية للصلح، فوقعته مع الدولة العثمانية في أبريل ١٥٧٣م (١٤ ذي القعدة ٩٨٠هـ). وقد اعترفت البندقية بموجب هذا الصلح باستيلاء العثمانيين على قبرص، مع تعهدها بدفع الجزية السنوية المقررة منذ عهد سليمان القانوني[٣] .

قلاقل اليمن:

أرسل الصدر الأعظم صوقوللي باشا جيشاً عظيماً إلى بلاد اليمن في سنة ١٥٦٩م(٩٧٧هـ)، تحت قيادة عثمان باشا ابن اوزدمير، الذي عين عاملاً عليها لقمع ثورة أهاليها الذين أعلنوا العصيان على الدولة العثمانية، اتباعاً لأمر سلطانهم الشريف مهطر بن شرف الدين يحيى. فانتصر عثمان باشا عليهم،

(1) Ismail Hami Danişmend : Adigeçen Eser, Cilt 3, s.409,410
(2) Ismail Hakkı: Adigeçen Eser , cilt 3, s.24-26
(3) Namik Kamal : Osmanlı Tarihi , cilt 3, s.292 Istanbul 1971

بمساعدة سنان باشا والي مصر، ودخلت الجيوش المظفرة مدينة صنعاء بعد أن فتحت جميع القلاع[1] .

إعادة فتح تونس:

توجه أولوج علي باشا أمير الجزائر إلى تونس أثناء حصار قبرص، واستولى عليها، إلا أن هذا الفتح كان ناقصاً، بسبب استمرار وجود الأسبان في حلق الوادي (قالبند أو جوليتا Goletta). وبعد عقد الصلح مع البندقية، توجه دون جوان إلى سواحل إفريقيا واستولى على تونس، فلجأ حامد ابن مولاي حسن إلى الأسبان. ولم يتمكن والي تونس العثماني حيدر باشا من الصمود أمام الأسبان، فانسحب إلى القيروان. وقام دون جوان بتعيين مولاي محمود على تونس.

أمر سردار اليمن السابق سنان باشا وقبطان البحر قليج علي باشا باسترجاع تونس، فتوجها إليها بأسطول كبير في عام ١٥٧٤م (٩٨٢ هـ). وتمكنا من الاستيلاء عليها وطرد الأسبان من حلق الوادي أيضاً في أغسطس ١٥٧٥م[2] .

وفاة سليم الثاني:

توفي السلطان سليم الثاني في ديسمبر ١٥٧٤م (١٨ شعبان ٩٨٢ هـ)، وهو أول سلطان من سلاطين آل عثمان لا يخرج للحرب بنفسه أبداً، مكتفياً من الحياة بعيشة الصفاء والملذات. ولولا الدور البارز الذي لعبه الصدر الأعظم

---

(١) محمد فريد : المرجع السابق، ص ١١٠
وانظر أيضا : أحمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ط ٣ ، ص ٢٦٦-٢٦٨ القاهرة ١٩٨٠
ولمزيد من التفاصيل انظر: د. فاروق عثمان أباظة : الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨، ص٢٠-٢٢ القاهرة ١٩٧٥

(2) Ismail Hakkı: Adigeçen Eser , cilt 3, s.23-30

صقوللي باشا في تدبير شئون السياسة والحرب، لهوت أركان الإمبراطورية العثمانية التي ترامت أطرافها، فهو بحق مدبر أمور الدولة الفعلي في عهد السلطان سليم الثاني.

ثم تولى **مراد الثالث** ابن سليم الثاني عرش الدولة العثمانية (١٥٧٤-١٥٩٥م=٩٨٢-١٠٠٣هـ)، وقد ازدادت في عهده الأحقاد على الصدر الأعظم الناجح صقوللي باشا، حتى فتكت به بعد خمس سنوات من ولاية السلطان الجديد.

تجديد الامتيازات الأجنبية:

كانت علاقات هذا السلطان مع فرنسا حسنة جداً وكذلك مع جمهورية البندقية، فجدد لهما الامتيازات القنصلية والتجارية، مع زيادة بعض بنود في صالحهما، أهمها أن يكون سفير فرنسا مقدماً على كافة سفراء الدول الأخرى في المقابلات والاحتفالات الرسمية، حيث كثر توارد السفراء على بابه العالي، للسعي في إبرام معاهدات تجارية، تكون ذريعة في المستقبل للتدخل الفعلي. وفي أيامه حصلت إيزابيلا ملكة إنجلترا على امتياز خصوصي لتجار بلادها، وهي أن تحمل مراكبها العلم الإنجليزي، و كان لا يجوز لها ذلك قبلاً، بل كانت السفن على اختلاف أجناسها ما عدا سفن البندقية لا تدخل إلى موانى الدولة العلية إلا تحت ظل العلم الفرنساوي ليس إلا، كما قضت بذلك العهود التي أبرمت مع السلطان سليمان القانوني وابنه السلطان سليم الثاني، وتجددت في أوائل حكم هذا السلطان[١] .

(١) محمد فريد : المرجع السابق، ص ١١٣

الحرب مع إيران وقفقاسيا:

مرت الحرب مع إيران في عهد مراد الثالث بثلاث مراحل: أولاها بدأت سنة ١٥٧٧م وانتهت ١٥٨٩م (٩٨٥ – ٩٩٧ هـ)، واستمرت اثنا عشر عاماً.

قاد لالا مصطفى باشا الجيش العثماني الزاحف على إيران، وتمكن بسهولة من الاستيلاء على كرجستان "بلاد الكرج" ١٥٧٨م (٩٨٦ هـ)، ثم فتح تفليس فشيروان.

واستطاع القائد العثماني عثمان باشا ابن اوزدمير من استرجاع شماخي فيما بعد، واستولى على باكو، ثم توجه إلى كفه لتأديب خان القرم محمد گيراي. وقد تمكن من القبض عليه وقتله، وتعيين إسلام گيراي مكانه، ثم قفل راجعاً إلى استانبول. ومن الجدير بالذكر أن القلاقل كانت تطل برأسها من حين لآخر في هذه البقاع، وكان الجيش العثماني يعاود الزحف إليها كلما دعت الضرورة.

وقد نجح عثمان باشا في دخول تبريز ١٥٨٥م (٩٩٣ هـ)، كما وفق فرهاد باشا في فتح كنجه ومنطقة قره باغ، ثم ضمت نهاوند من قبل چغالة باشا. وفي النهاية طلب الشاه عباس الصلح مع العثمانيين في سنة ١٥٩٠م (٩٩٨ هـ)[١].

وهكذا تنتهي مرحلة العصر الذهبي، لكي تبدأ فترة الأزمات والاضطرابات والقلاقل التي أصابت الدولة العلية في الصميم[٢].



(1) Ismail Hakkı: Adigeçen Eser , cilt 3, s.57-62

(٢) انظر خريطة "الامبراطورية العثمانية في أقصى اتساعها" ضمن قسم الخرائط واللوحات رقم (١٩).

الخاتمة

تاريخ الدولة العثمانية تاريخ طويل ومتشعب تكتنفه الصعوبات نظرا لامتداد هذه الإمبراطورية على مساحة زمنية طويلة، فهي أطول الإمبراطوريات عمرا بعد الإمبراطورية الرومانية. وقد امتدت أملاكها فى ثلاث قارات، هي: أوربا وآسيا وأفريقيا، وشملت منطقة استراتيجية هامة من العالم تتكون من أجناس عديدة ولغات متنوعة وديانات كثيرة وثقافات مختلفة وحضارات عريقة. وقد كانت الإمبراطورية رغم اتساعها وتفرعها تحكم كل هذه المناطق وتديرها بقوة وعزيمة أيام أن كانت قوية مرهوبة الجانب. أما عندما بدأ الضعف يدب في أوصالها وتتهال عليها الأزمات من كل حدب وصوب، فقد أخذت في الانهيار والتدهور تدريجيا، وتوالت عليها الهزائم والكوارث، وتقلصت أملاكها رويدًا رويدًا. وتحالفت ضدها الدول الأوربية حتى سموها بالرجل المريض الذي يعيش في النزع الأخير من مراحل عمره الممتدة. وبدخول الدولة العثمانية معمعة الحرب العالمية الأولى في صف الدول التي انهزمت وانهارت، وتتفكك أوصالها وتتهاوى لكى تقوم على أنقاضها الجمهورية التركية.

عمرت الإمبراطورية العثمانية منذ نشأتها سنة ١٢٩٩م حتى انتهائها وقيام الجمهورية سنة ١٩٢٣م مدة طويلة من الزمن تقدر بستة قرون وربع القرن تقريبا. وقد حفلت بأحداث وحروب وفتوحات كثيرة طوال هذه المدة الكبيرة. ورغم أن أسرة واحدة هي أسرة آل عثمان حكمتها، إلا أنه لابد لنا من أن نقسم

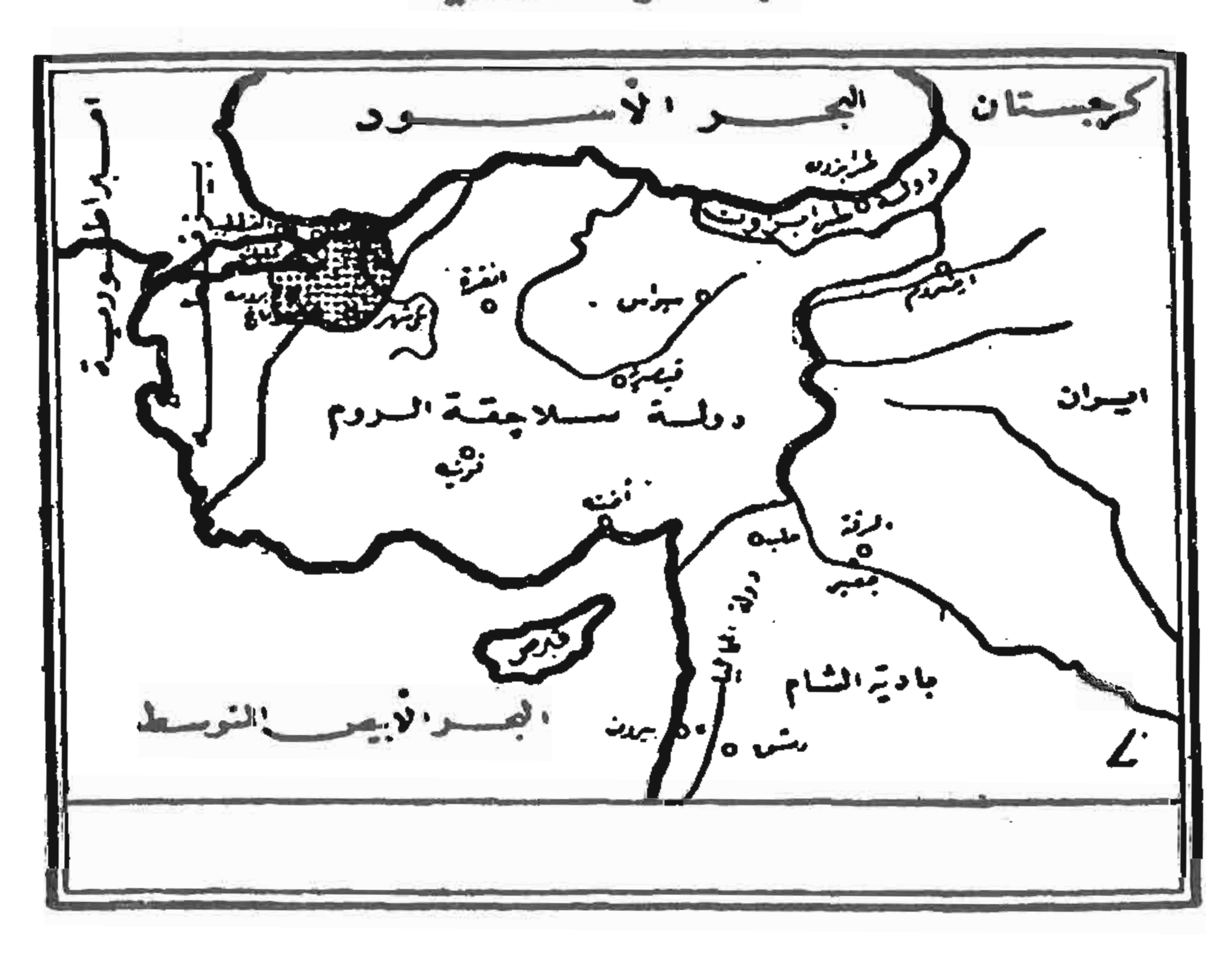
هذه المدة الزمنية الطويلة إلى فترات أو مراحل حسب الأوضاع والأحوال والظروف ومجريات الأحداث وانعكاساتها المتعددة، طبقا لما تقتضيه الدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة.

والمراحل التي مرت بها الدولة العثمانية هي سبع مراحل، تناولتُ أربعا منها بالبحث والدراسة، أما الثلاثة الأخر فهي تخرج عن نطاق هذه الدراسة ولهذا لم أتناولها في هذا الكتاب لأن موضوعه ينتهي بانتهاء العصر الذهبي. والمرجو أن يمد الله في العمر لإكمال المراحل المتبقية وإلقاء الضوء عليها.



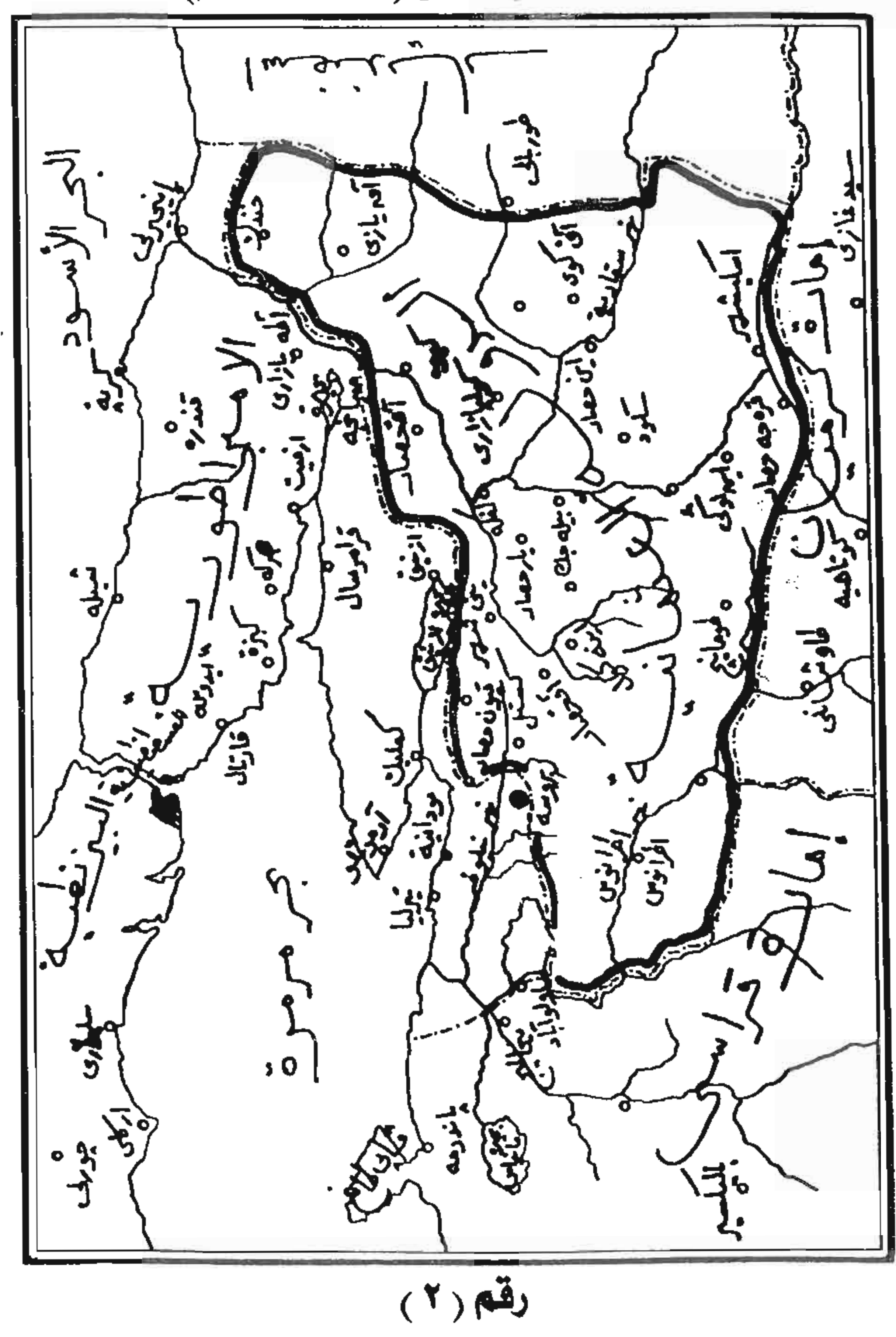
الخرائط واللوحات

مهد الدولة العثمانية



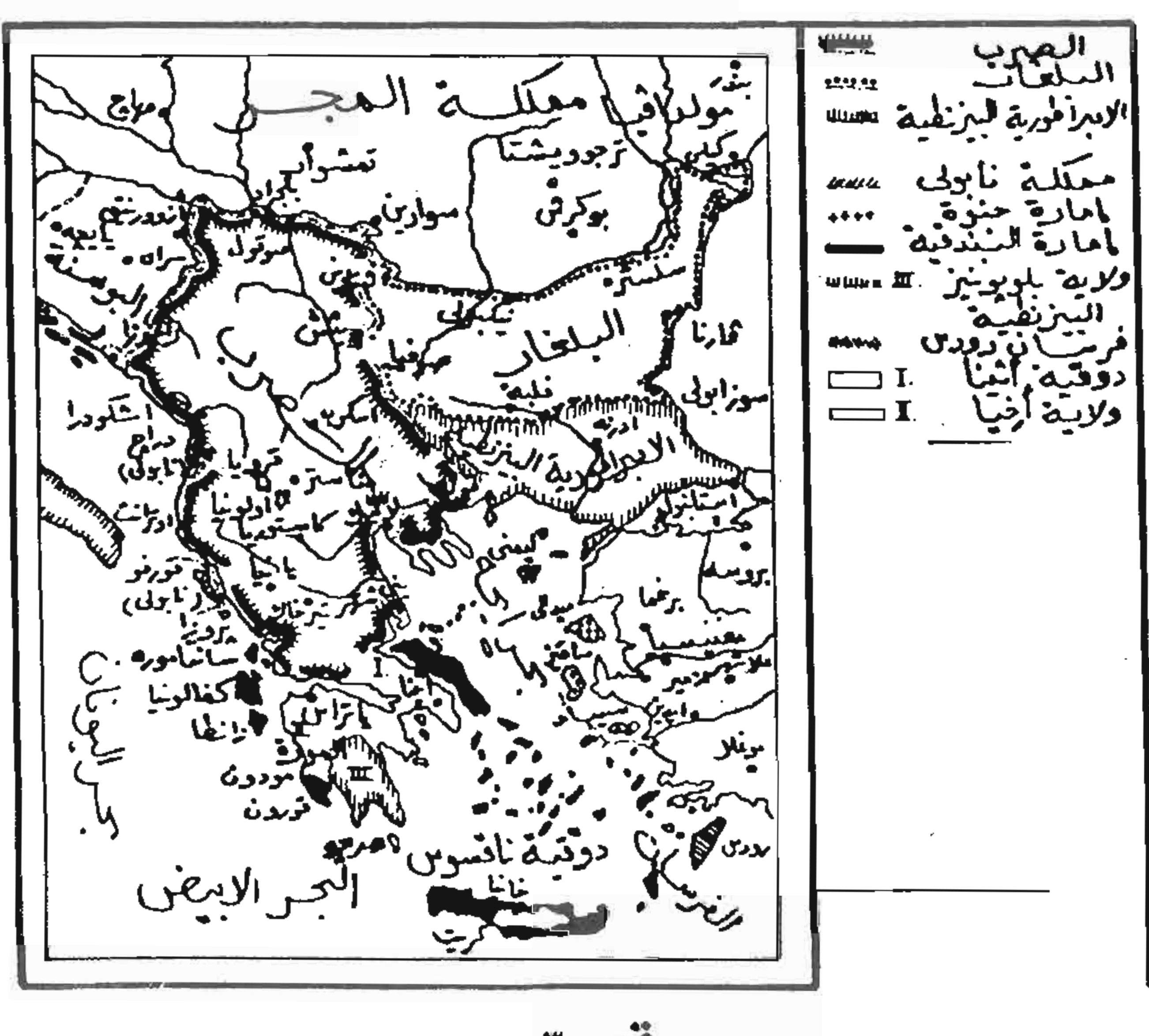
رقم (١)

عهد السلطان عثمان (١٢٩٩ - ١٣٢٦م)



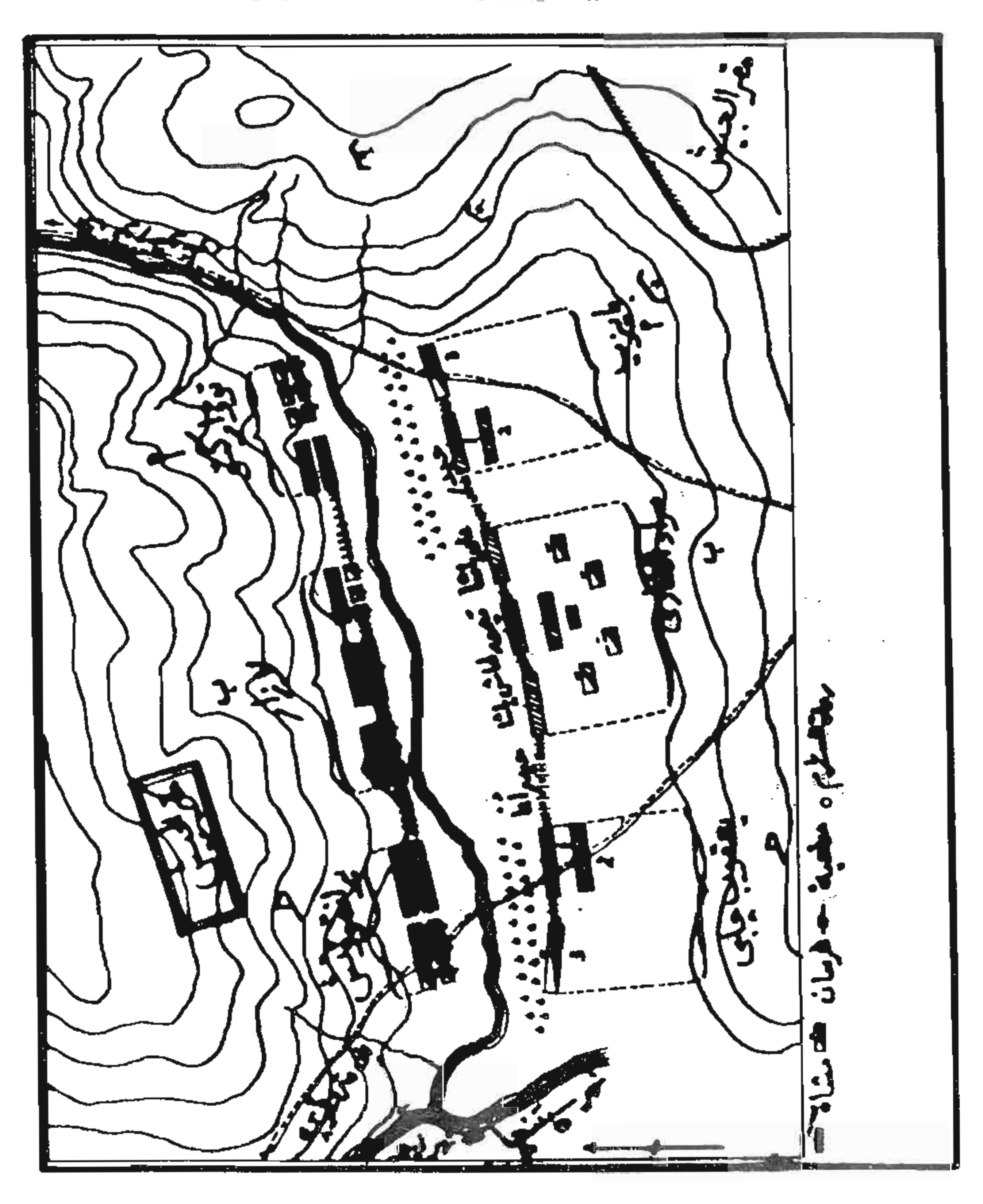
رقم (٢)

دول البلقان : ١٣٥٥ م



رقم (٣)

مخطط ميدان معركة قوصوه الأولى



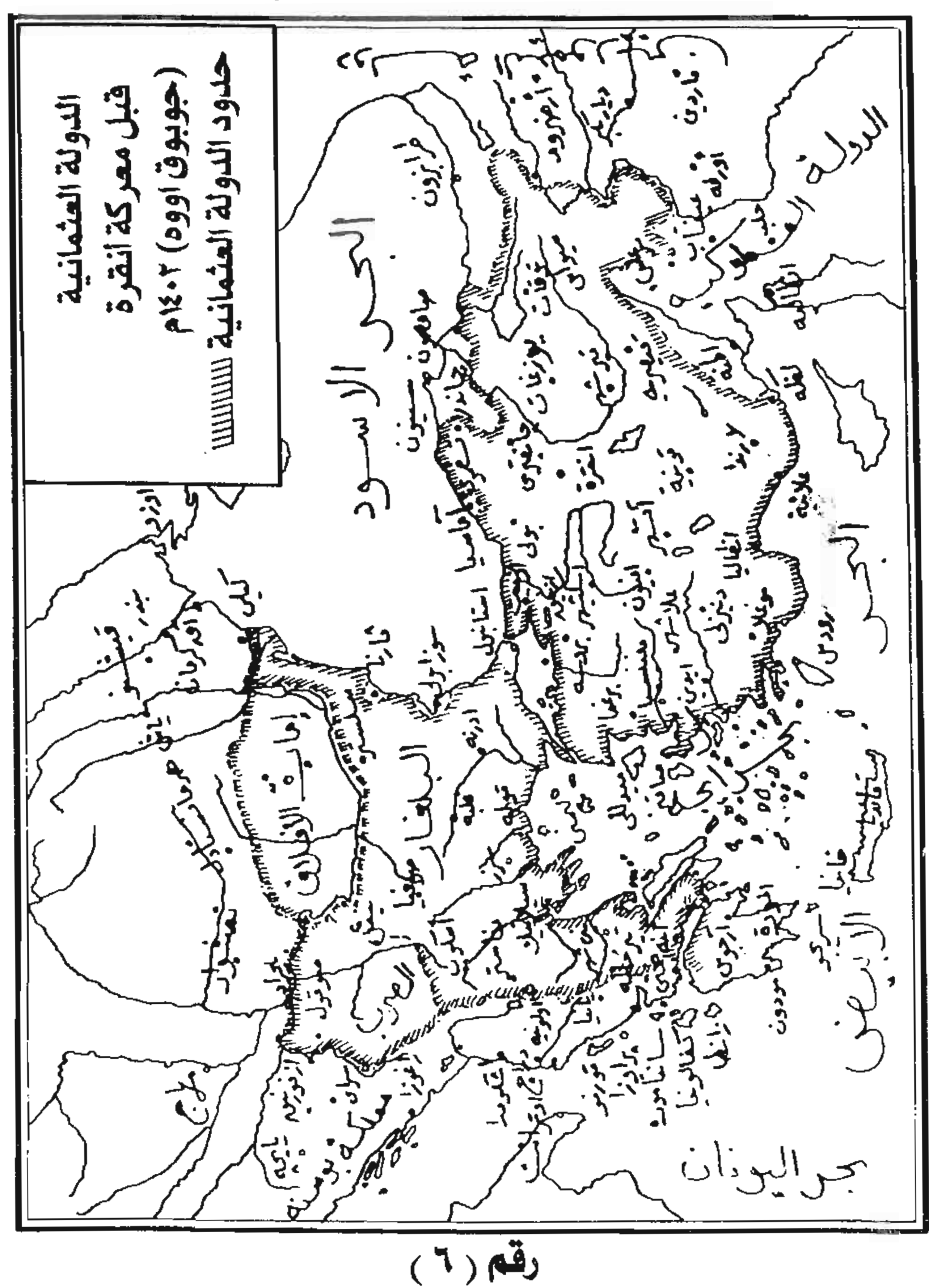
رقم (٤)

قلعة الأناضول



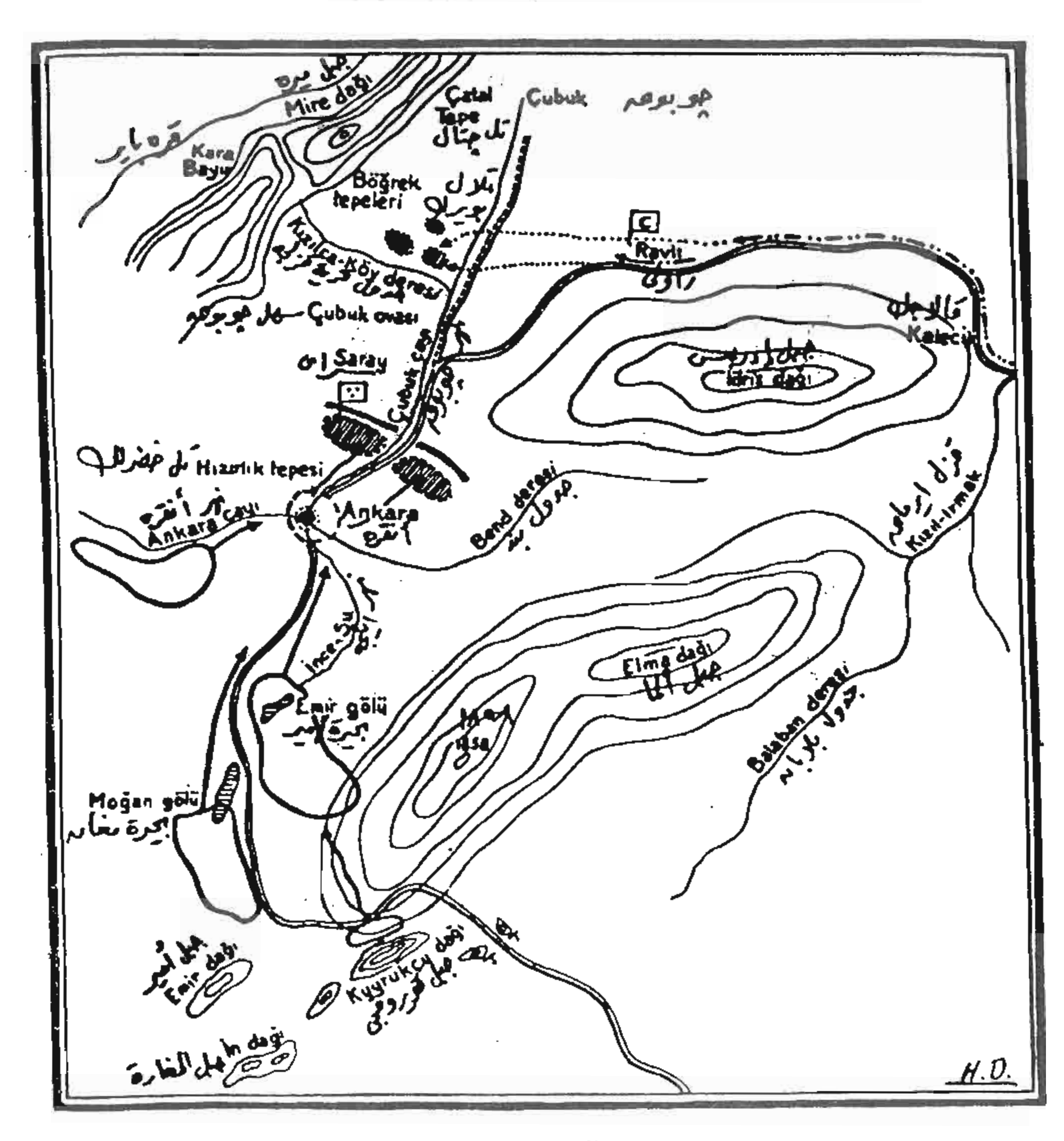
رقم (٥)

حدود الدولة العثمانية قبل معركة چوبوق اووه



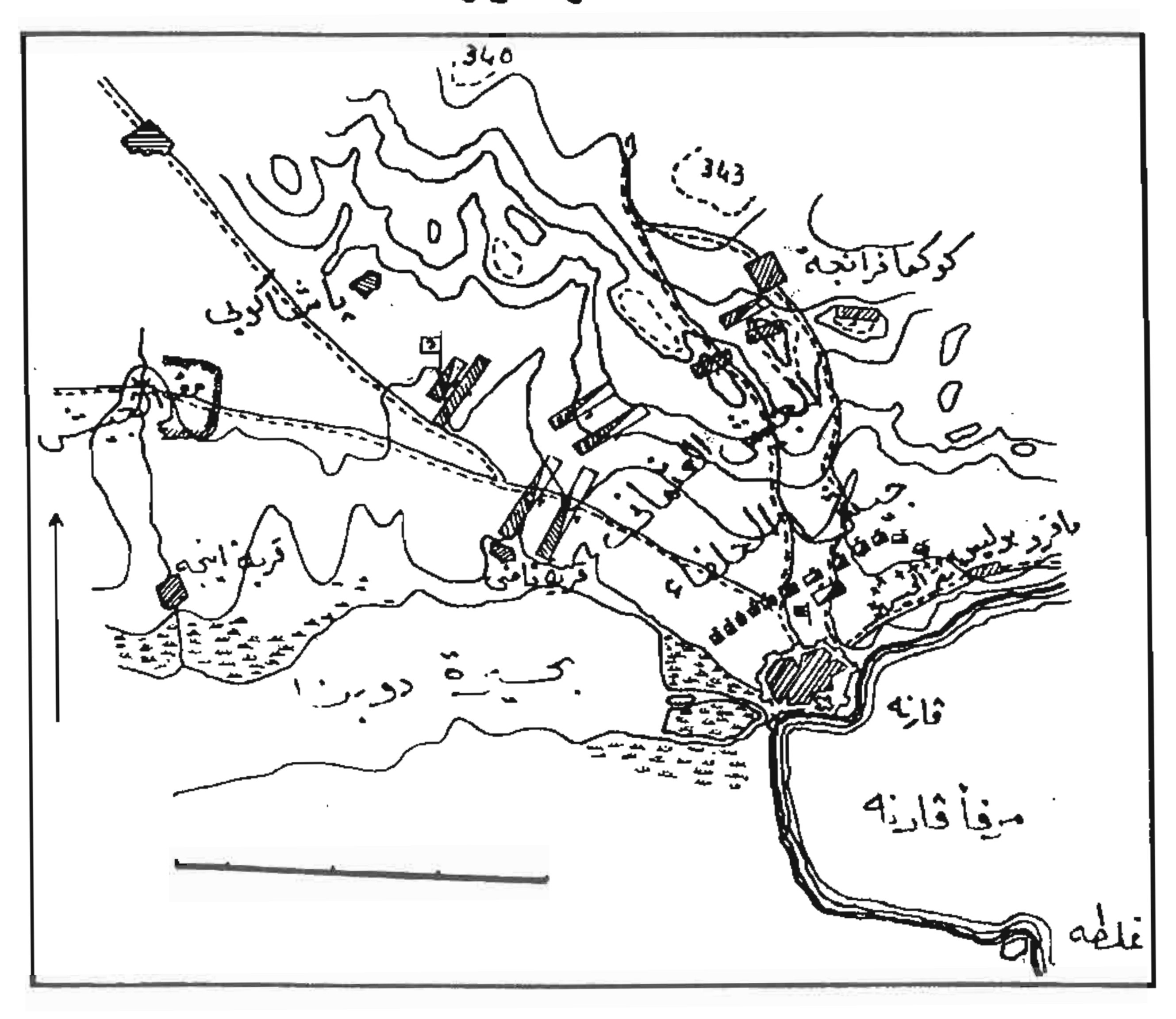
رقم (٦)

مخطط ميدان معركة چوبوق اووه Çubuk Ova



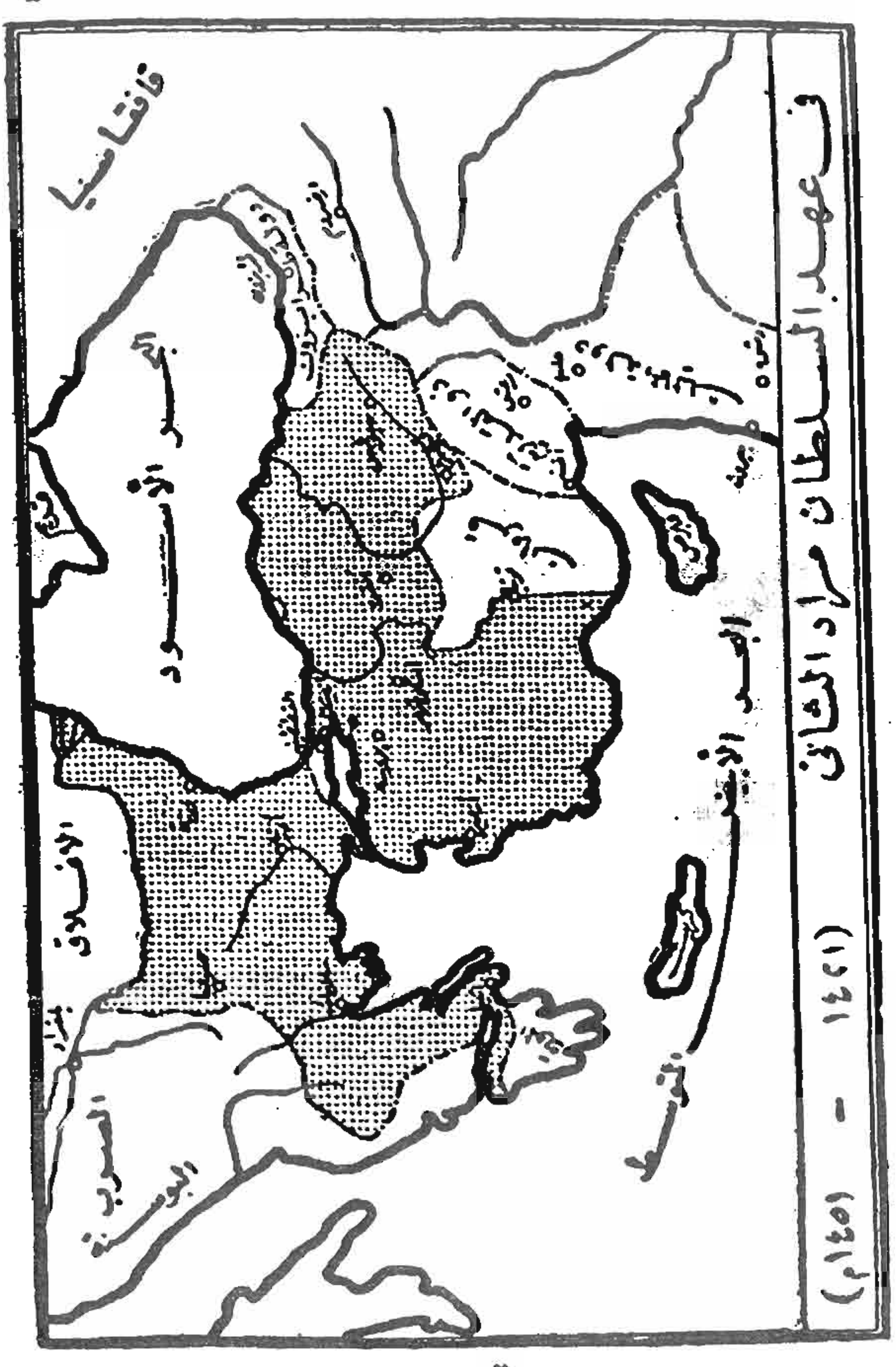
رقم (٧)

مخطط معركة ڤارنه



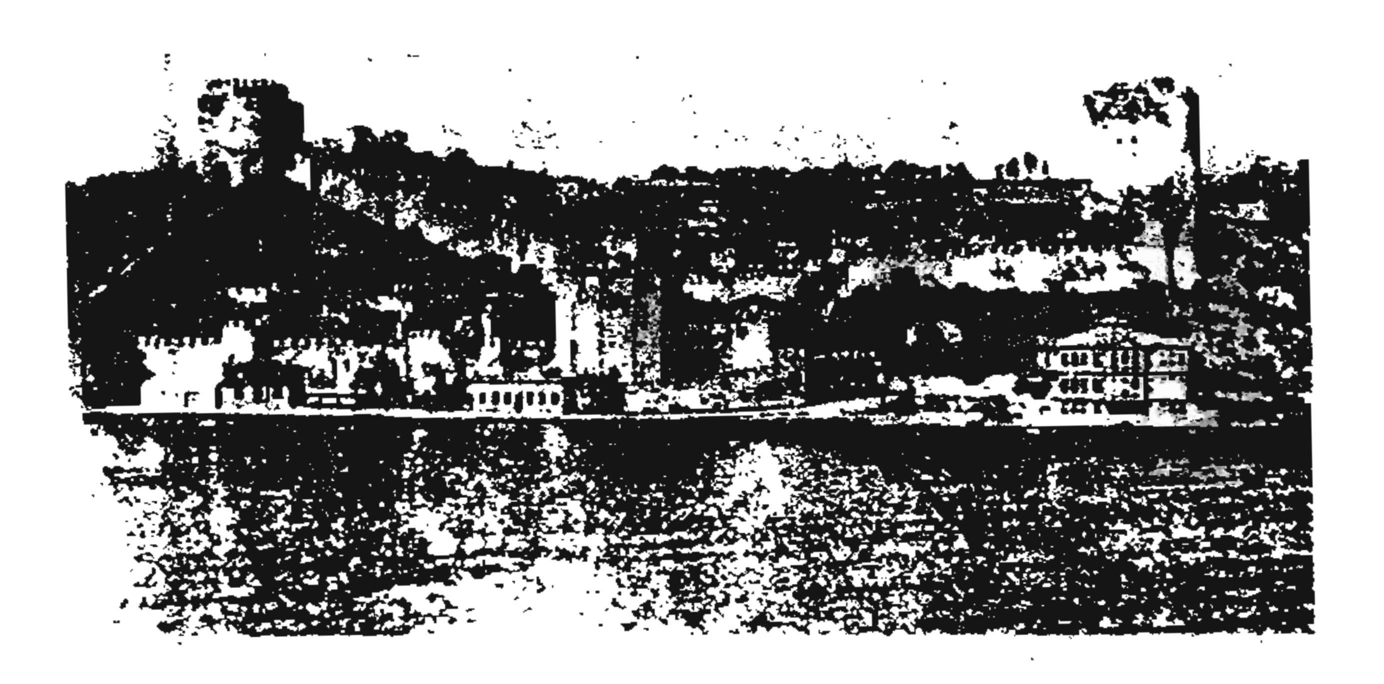
رقم (٨)

الدولة العثمانية فى عهد السلطان السادس : مراد الثاني



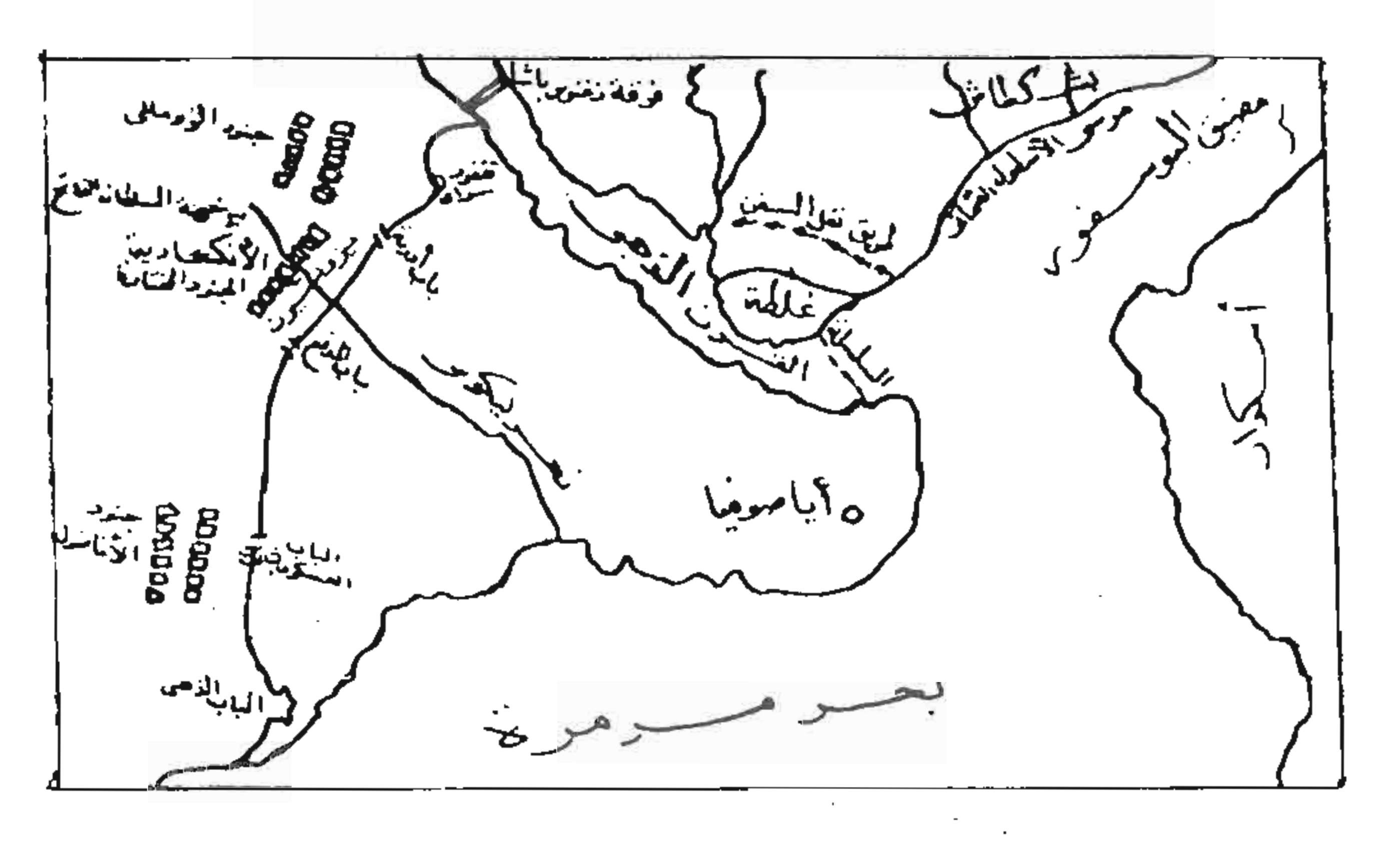
رقم (٩)

قلعة الروملى



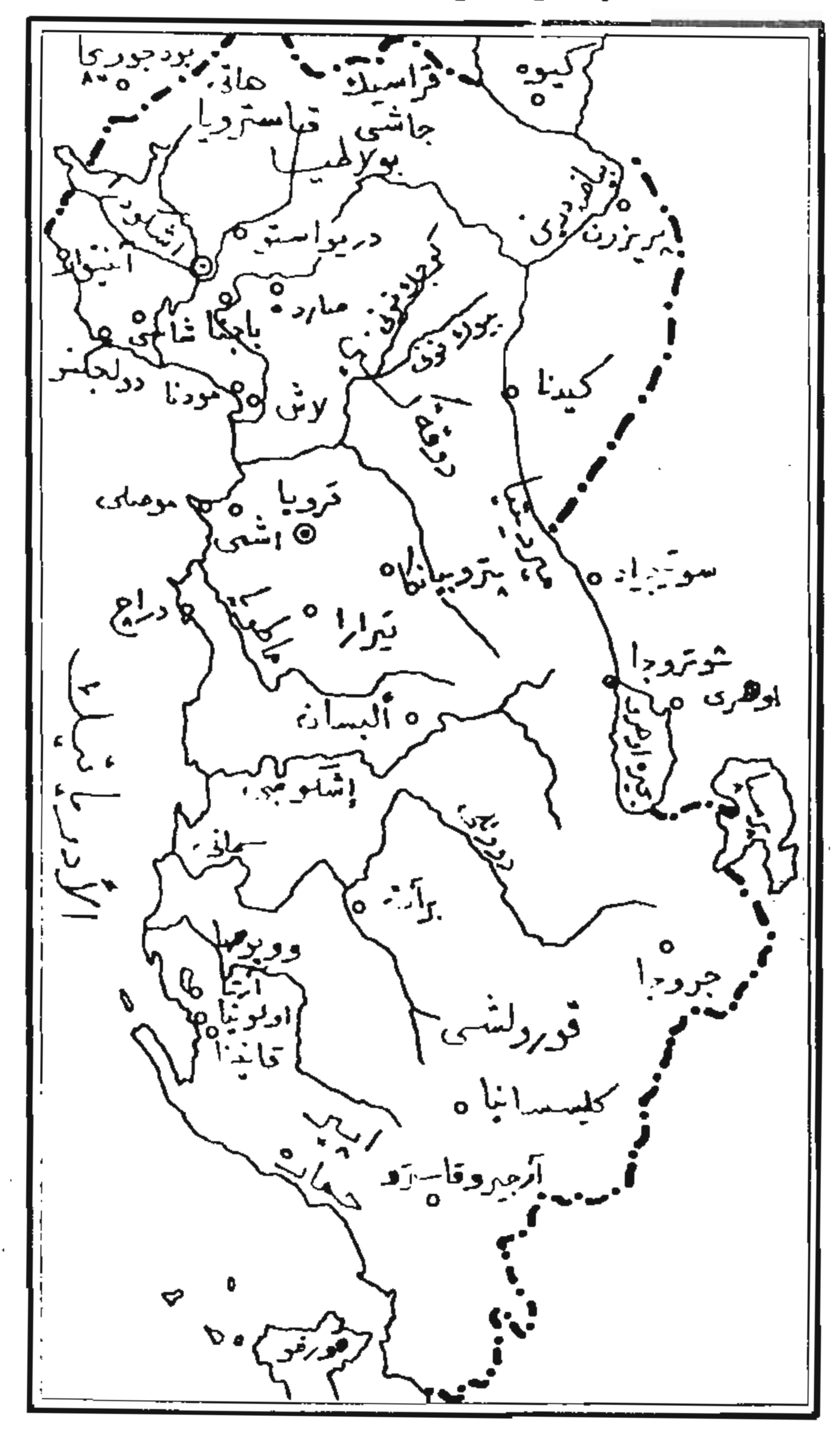
رقم (١٠)

أهمية موقع القسطنطينية وحصار الفاتح لها



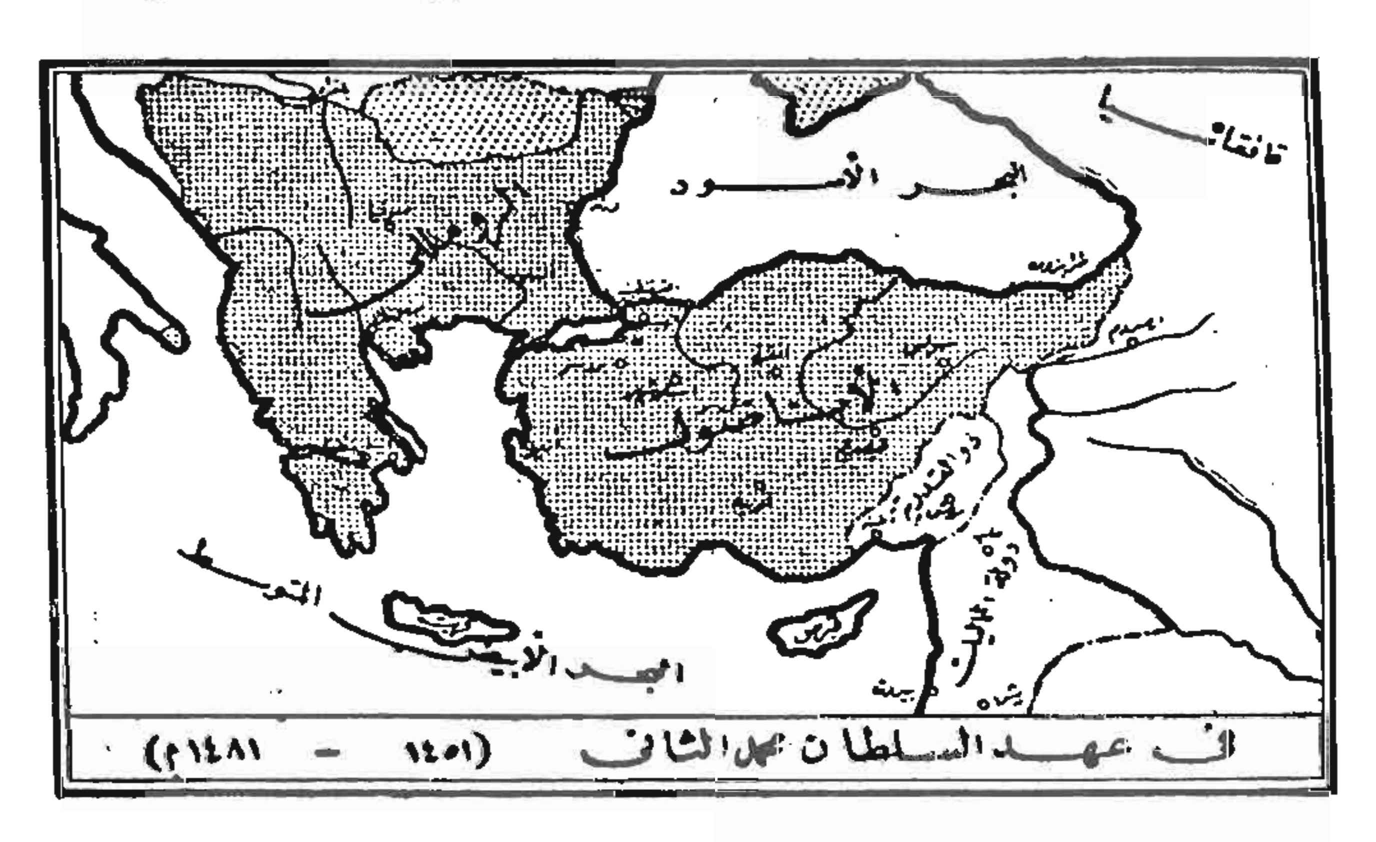
رقم (١١)

الأرناؤوط فى العصور الوسطى



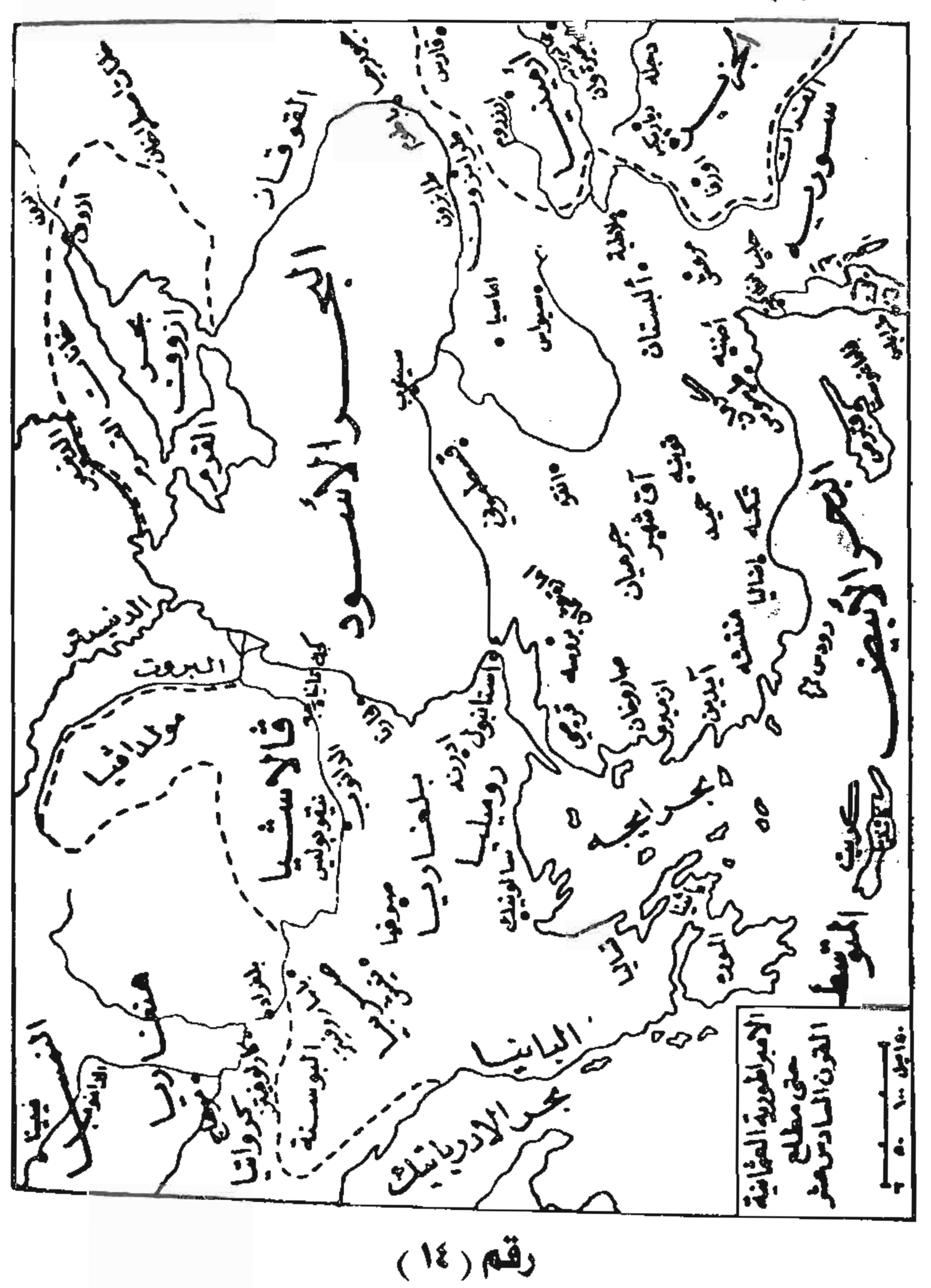
رقم (١٢)

الدولة العثمانية فى عهد السلطان السابع : محمد الثاني



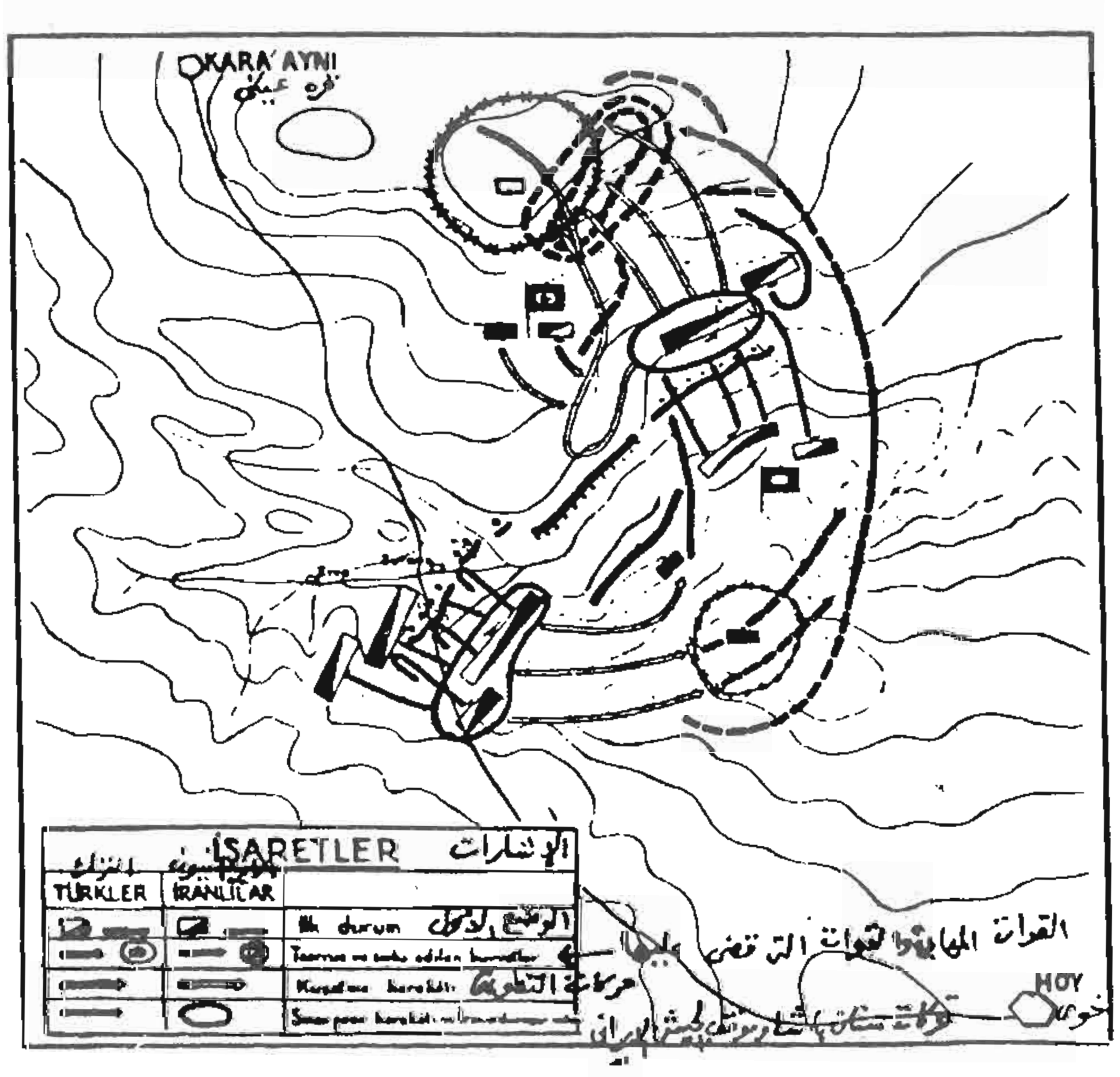
رقم (١٣)

الإمبراطورية العثمانية حتى مطلع القرن السادس عشر



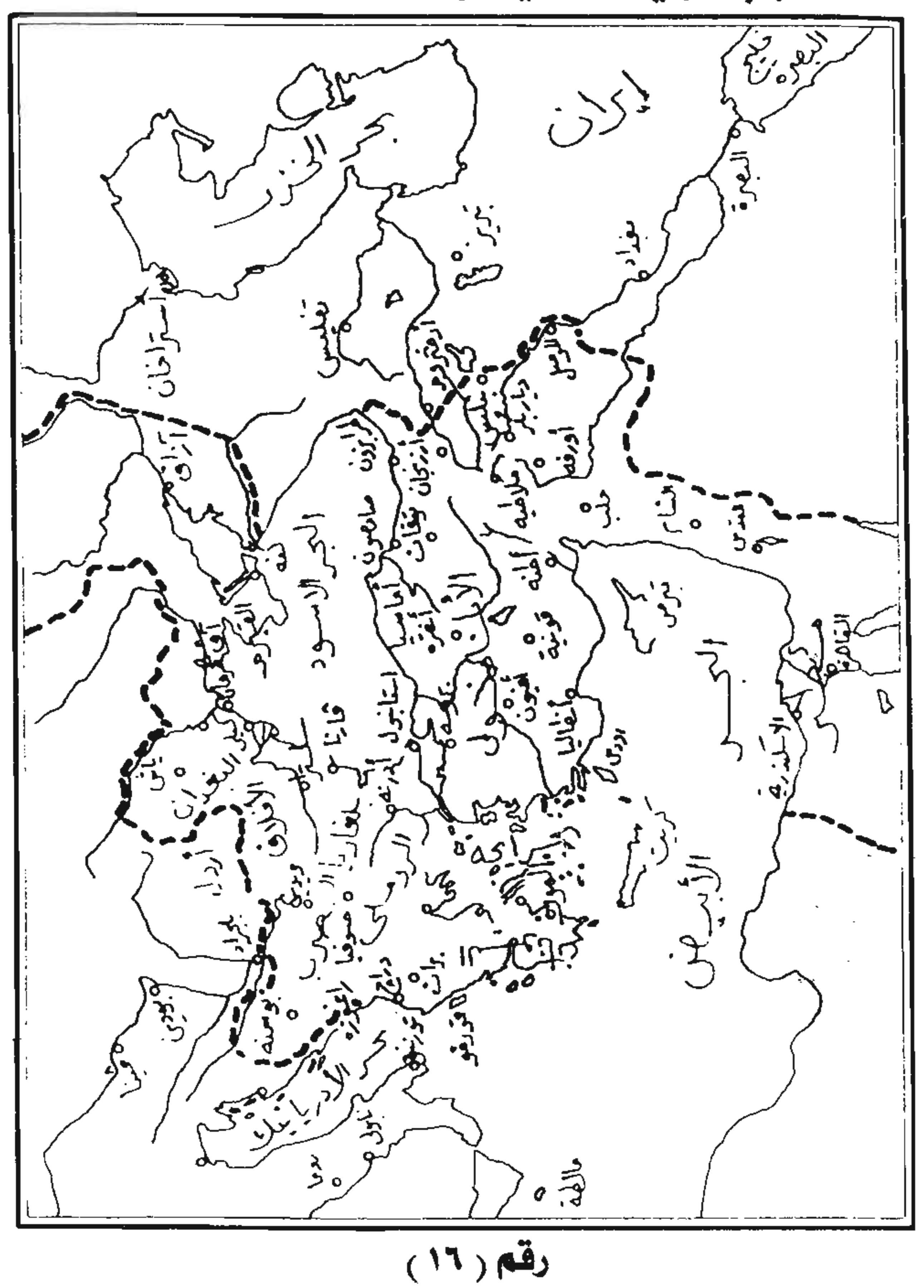
رقم (١٤)

مخطط ميدان معركة چالديران



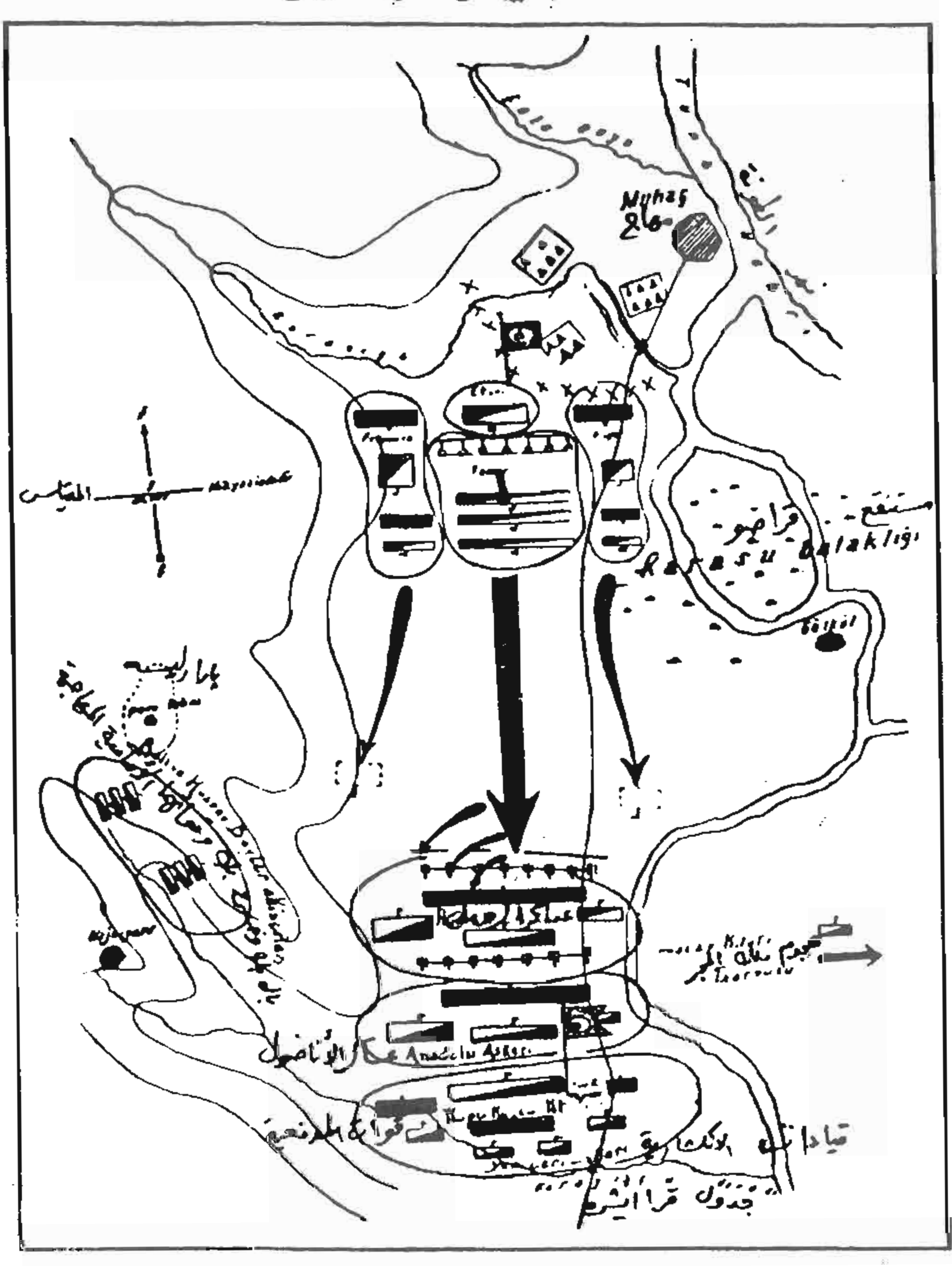
رقم (١٥)

الإمبراطورية العثمانية فى عهد السلطان سليم الأول



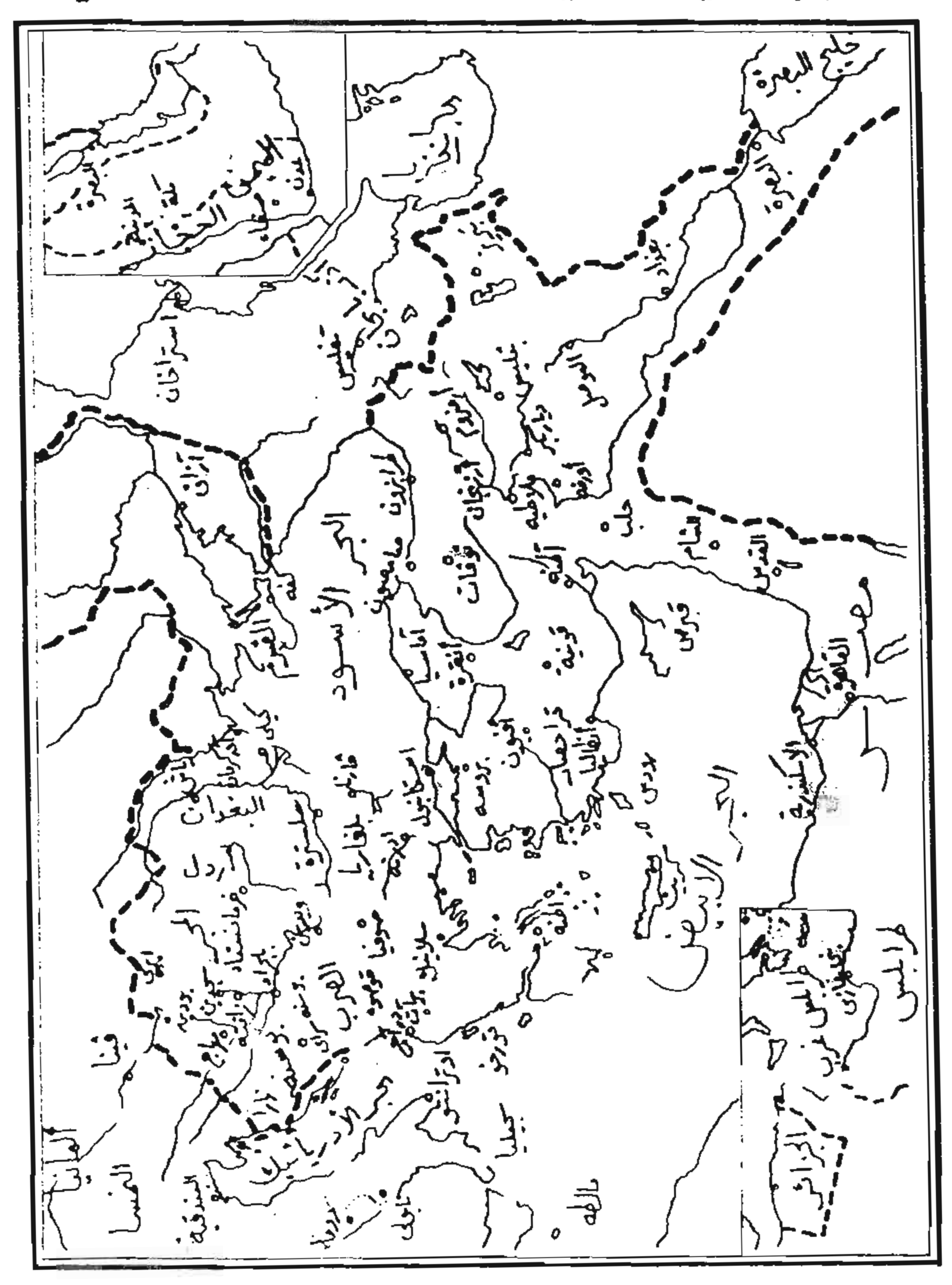
رقم (١٦)

مخطط ميدان معركة مهاج



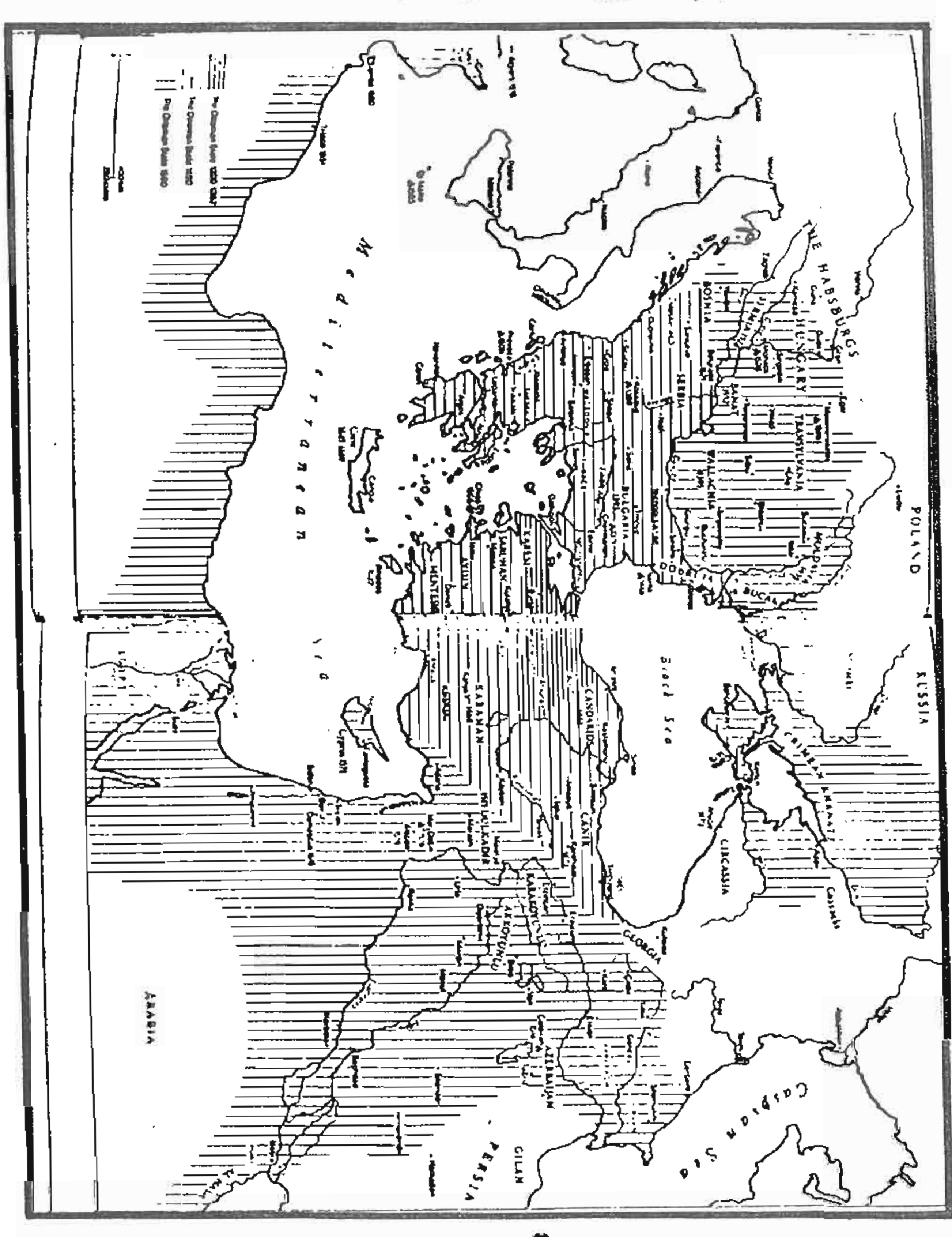
رقم (١٧)

الإمبراطورية العثمانية فى عهد السلطان سليمان القانوني



رقم (١٨)

الإمبراطورية العثمانية فى أقصى اتساعها



رقم (١٩)



المصادر

(١) المصادر العربية

(أ) المخطوطات العربية:

(١) مخطوط مجهول المؤلف: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب. مخطوط بمكتبة متحف طوبقبو سرايي باستانبول، تحت رقم A 5550.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، مخطوط بمكتبة أياصوفيا باستانبول، تحت رقم ٣١٨٥.

(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم ١١٦ تاريخ (م).

(٤) السخاوي: التبر المسبوك ذيل السلوك، مخطوط بمكتبة أياصوفيا باستانبول، تحت رقم ٣١١٣.

(٥) العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ.

(ب) المقالات والبحوث:

(١) د. أحمد فؤاد متولي: البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، على ضوء الوثائق التركية (بحث في حولية كلية العلوم الاجتماعية بالرياض، العدد الرابع سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٢) د. محمد مصطفى زياده: نهاية السلاطين المماليك في مصر، المجلة التاريخية المصرية، م ٤، ع ١، مايو ١٩٥١.

(ج) الكتب العربية:

(١) مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، مكتبة المتنبي ببغداد ١٩٦٩.

(٢) د. إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة الخرطوم ١٩٥٩.

(٣) د. إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون القاهرة ١٩٥٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ القاهرة ١٢٧٤ هـ.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٩٦٠.

(٦) ابن زنبل: آخرة المماليك "واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني" تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦٢.

(٧) ابن طولون: إعلام الورى، تحقيق عبد العظيم خطاب القاهرة ١٩٧٣.

(٨) أحمد جودت: تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا بيروت ١٣٠٨هـ.

(٩) أحمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ القاهرة ١٩٨٠.

(١٠) د. أحمد السعيد سليمان: انتشار الإسلام في آسيا الرياض ١٣٩٧هـ.

(١١) د. أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة القاهرة ١٩٧٢.

(١٢) د. أحمد السعيد سليمان: التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة القاهرة ١٩٦١.

(١٣) د. أحمد السعيد سليمان: مذكرات في تاريخ الدولة العثمانية الرياض ١٣٩٧هـ.

(١٤) أحمد فؤاد متولي: الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته، من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له القاهرة ١٩٧٦.

(١٥) د. أرجمند كوران: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمي تونس ١٩٧٤.

(١٦) د. بديع جمعه، و الدكتور أحمد الخولي: تاريخ الصفويين وحضارتهم القاهرة ١٩٧٦.

(١٧) البلاذري: فتوح البلدان القاهرة ١٣١٨ هـ.

(١٨) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرين القاهرة ١٩٧١.

(١٩) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي القاهرة ١٩٧٤.

(٢٠) زكريا كتابجي: الترك في مؤلفات الجاحظ، ومكانتهم في التاريخ الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري بيروت ١٩٧٢.

(٢١) ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية بيروت ١٩٦٠.

(٢٢) د. سالم الرشيدي: محمد الفاتح القاهرة ١٩٥٦.

(٢٣) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام القاهرة ١٩٦٥.

(٢٤) د. سيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول لليمن (١٥٣٨-١٦٣٥) القاهرة ١٩٦٩.

(٢٥) د. شاكر مصطفى: دولة بني العباس بغداد ١٩٧٠.

(٢٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك القاهرة ١٣٣٦ هـ.

(٢٧) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين بغداد ١٩٤٩.
(٢٨) د. عبد الرحمن جايجي: المسألة التونسية والسياسة العثمانية تونس ١٩٧٣.
(٢٩) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث، من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا القاهرة ١٩٦٨.
(٣٠) د. عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية بيروت ١٩٦٦.
(٣١) د. عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، من الفتح العثماني إلى حملة نابليون دمشق ١٩٦٨.
(٣٢) د. عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون (١٥١٦-١٩١٦) دمشق ١٩٧٤.
(٣٣) د. علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام القاهرة ١٩٧١.
(٣٤) د. عمر عبد العزيز: دراسات في تاريخ العرب الحديث بيروت ١٩٧٨.
(٣٥) د. فاروق أباظه: الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٢- ١٩١٨) القاهرة ١٩٧٥.
(٣٦) قطب الدين النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني الرياض ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م).
(٣٧) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي بيروت ١٩٧٧.
(٣٨) د. محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي القاهرة ١٩٧٧.
(٣٩) محمد بن عبد الله آل عبد القادر الأنصاري الإحسائي: تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد الرياض ١٩٦٠.
(٤٠) د. محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري مصر ١٩٦٥.
(٤١) محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني بيروت ١٩٥٤.

(٤٢) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، نسخة بالأوفست تصوير دار الجيل بيروت ١٩٧٧.

(٤٣) محمد فؤاد كوبريلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان القاهرة ١٩٦٧.

(٤٤) المسعودي (أبو الحسن): مروج الذهب ومعادن الجوهر القاهرة ١٠٣٣هـ.

(٤٥) منجم باشي أحمد دده: صحايف الأخبار في وقائع الأعصار، مخطوط بمكتبة طوبقبو سرايى، برقم A2954.

(٤٦) هاملتون جب وهارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى القاهرة ١٩٧١.

(٢) المصادر التركية

(أ) الوثائق التركية:

٣٥ وثيقة تركية تحت أرقام: ٦٢٠١- ٦٦٧١- ٥٦٩٣- ٥٤٨٣- ٦٣٢٢- ١/٥٨٥٠- ٣/٦١٨٥- ٥/٦١٨٥- ٧/٦١٨٥- ٨/٦١٨٥- ١٧/٦١٨٥- ٦٢٦٥- ٥٩٦٠- ٦٢٠١- ٥٩٦١- ١٢١٠٥- ١٢٢٨٢- ٥٥٥٢- ٩٦٥٤- ١١٦٣٤- ٩٦٨٢- ٥٤٦٩- دفتر المهمة رقم ١٦ جمادي الآخرة ٩٧٩هـ- دفتر المهمة رقم ٩ سنة ٩٧٩هـ.

(ب) المخطوطات التركية:

(١) أحمد فريدون: منشآت الملوك والسلاطين ، مخطوط بمكتبة طوبقبو سرايي، تحت رقم R.1960.

(٢) جلال زاده قوجه نشانجي مصطفى: مآثر سليم خاني طاب ثراه، مخطـوط بمكتبة طوبقبو سرايي، تحت رقم 415.
(٣) حيدر چلبي: روزنامه حيدر جلبي، ضمن مخطوط برقم R.1955 في مكتبـة طوبقبو سرايي، بعنوان: سلطان سليمك ايران سفرينه دائر مخابرات.
(٤) مترقجي نصوح: فتح نامة ديار عرب، مخطوط وحيد فـي مكتبـة نـور عثمانية في استانبول، تحت رقم ٤٠٨٧.

(ج) المقالات والبحوث:

1- Barbaros Hayreddin Pasanin Hatiralari (Tarih Mecmuasinda bir Makale), sayi 6,Temmuz 1965, S. 49.

(د) الكتب التركية:

(١) ابن كمال: تواريخ آل عثمان استانبول ١٩٣٢.
(٢) أحمد راسم: عثمانلي تاريخي استانبول ١٣٢٦ هـ.
(٣) أحمد مختار باشا: فتح جليل قسطنطينية استانبول ١٣١٦ هـ.
(٤) إسماعيل غالب بك: تقويم مسكوكات عثمانية استانبول ١٣٠٧ هـ.
(٥) سعد الدين: تاج التواريخ استانبول ١٣٠٥ هـ.
(٦) صولاق زاده: صولاق زاده تاريخي استانبول ١٢٩٧ هـ.
(٧) عاشق باشا زاده: تواريخ آل عثمان استانبول ١٩٣٢.
(٨) عمر فاروق: تاريخ أبو الفوارق استانبول ١٣٢٥ هـ.
(٩) قريتو ولوس: تاريخ سلطان محمد خان ثاني، ترجمة قـاروليدي أفنـدي استانبول ١٣٢٩هـ.
(١٠) لطفي: تاريخ لطفي استانبول ١٢٩٠ هـ.
(١١) هامر: دولت عثمانية تاريخي: ترجمة عطا بك استانبول ١٣٢٩هـ.

12- Abdulkadir altunsu: Osmanli Şeyhulislamlari Ankara 1972.
13- Ahmet Asrar: Osmanli Develtinin Dini Siyaseti ve Islam Alem Istanbul 1972.
14- Cavid Baysun: Cem Sultan Istanbul 1946.
15- Bir Heyet: Mufassal Osmanli Tarrhi 1958.
16- Ducas: Rum Tarihcisi, Mirmiroğlu Tercumesi Istanbul 1940.
17- Feridun Dirimtekin: Istanbul'un Fethi Istanbul 1980.
18- Dr. Hakki Dursun Yildiz: Islamiyet ve Türkler Istanbul 1980.
19- Dr. Ismail Hakki Uzunçarşili: Anadolu Beylikleri Ankara 1969.
20- Osmanli Tarihi Ankara 1972
21- Kemal Çiğ: Topkapi Muzesi Mukaddes Emanetler Resimli Rehberi Is tanbul 1950
22- Köprüllü zade Mehmet Faut: Turk Edebiytinde ILK Mutasavviflar Istanbul 1952.
23- Mehmet Zeki Pakalin: Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü Istanbul 1971.
24- Muallim Faut Gücüyener: Yavuz Sultan Selim Istanbul 1945.
25- Naim Hazim Onat: arapçanin Türk Diliyle Kuruluşu. Ankara 1935.
26- Nikola Barbaru: Kostantiniyye, nin Muhasara Jurnali (TD).
27- Ömer Barkan: xv ve xvi Asirlard Osmnli Imparator luğunde Ziraî, Ekonomi, Hukukî ve Mâlî Esaslari, 1 kanunlr Istanbul 1945.
28- Pachyameres: Istanbul Tarihi, Ali Sevket Tercumesi Istanbul 1872.
29- Reşad Ekrem Kocu: Yeniçeriler Istanbul 1964.
30- Samih Aziz Ilter: Şimali afrikada Türkler Istanbul 1936-1937
31- Yilmaz Oztuna: Türkiye Tarihi Istanbul 1964.
32- Ziya Kazici ve Mehmet Şeker: Islam – Türk Medeniyeti Tarihi Istanbul 1981.
33- Zuhuri Danişmend: Osmanli Imparatorlugu Tarihi Istanbul 1964.

(٣) المصادر الأوربية:

(أ) بالإنجليزية:

1- Gibbon (Edward): The Decline and Fall of the Roman Empire London 1900.

2- Halide Edib: The conflict of East and West in Turkey Lahore 1963.

3- Dr. Halil Inalcik: the Ottoman Empire The Classic Age 1300-1600, tra nslated by Itzkovitz and Colen Imber London 1975.

4- The Rise of the Ottoman Empire, A chapter in: History of the Ottoman Empire to 1730, by Parry and others Cambridge 1976.

5- Kinross (Lord): The Ottoman Centuries, the Rise and fall of the Turkis h Empire London 1977.

6- Lewis (Bernard): the Emergence of Modern Turkey London 1968.

7- Parry: the Successors of Sulaiman 1566-1617, A chapter in: A history of the Ottoman Empire, by Parry and others London 1977.

8- Price (Philips): A history of Turkey, from Empire to Republic London 1961.

9- Shaw (Stanford) History of the Ottoman Empire New York 1976.

10- Toynbee: A Study of History Oxford 1945.

(ب) بالفرنسية:

Chalcondyle: Histoire de la Decadence de l'Empire Grec et l'Etablissment de Celui des Turc paris 1632



فهرس الكتاب

الفصل الأول

فترة ما قبل تركيا العثمانية

(١٠٧١- ١٣٠٠م = ٤٦٤- ٦٩٩هـ).

الفصل الثاني

فترة الإمارة في الأناضول

(١٣٠٠- ١٣٧٠م = ٦٩٩-٧٧٢هـ)

الفصل الثالث

فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

(١٣٧٠- ١٤٨١م = ٧٧٢- ٨٨٦هـ)

فتح القسطنطينية

الفصل الرابع

فترة العصر الذهبي

(١٤٨١- ١٥٩٠م = ٨٨٦- ٩٩٨هـ)

فتح الشام ومصر وضم الحجاز

الثورة الأولى للشام ومصر ضد الحكم العثماني

فتح جزيرة رودس

الحرب مع المجر ومعركة مهاج

حرب البغدان

عصيان العلويين وحرب إيران

النشاط البحري للدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني

محاولة فتح جزيرة مالطة

الامتيازات الأجنبية

القوانين التي وضعها سليمان القانوني

هذا الكتــــاب

يتناول هذا الكتاب تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حـــتى نهاية العصر الذهبي بمنظور علمى جديد يتمشى مع الدراسات التاريخية الحديثة التى تهتم بتقسيم التاريخ إلى مراحـــل وفترات طبقا لمجريات الأحداث وتطور الأوضاع الداخلية والخارجية.

ويركز الكتاب على أعمال السلاطين وعلى ما أحدثوه من تحول في تاريخ المسلمين بل وفي تاريخ البشرية جمعاء. فبنظرة إلى فتح القسطنطينية ١٤٥٣م مثلا نجد أنه حدث ضخم يعتبر من العلامات البارزة التى غيرت مجرى التاريخ. كما أن فتح الشام ومصر ١٥١٧م يعتبر علامة أخرى بارزة تدل على تغير استراتيجية الإمبراطورية العثمانية فى مجال الفتح.

وإذا أردنا فهم تاريخ العرب الحديث وتاريخ الشرق الأوسط أو تاريخ البلقان أو تاريخ القوقاز، فلا غنى لنا عن دراسة تاريخ الدولة العثمانية بأبعاده المختلفة لأنها حـــكمت هذه الديار جميعها.

والكتاب مزود بالخرائط والصور واللوحات، وملئ بالوثائق التى تنشر لأول مرة، كما أنه مزود ولأول مرة أيضا بمخططات المعارك العســـكرية الحاسمة التى دارت بـــين الدولة العثمانية وخصومها، والتى رسمها الخبراء العسكريون الكبار عن أرض المعارك موضحـــين موقع كل جانب من الجوانب فى مواجهة الجانب الآخر.

إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع

طريق غرب الماظة عمارة (١٢) شقة (٢) ص.ب: ٥٦٦٢
هليوبوليس غرب - مصر الجديدة
القاهرة ت: ٤١٧٢٧٤٩ فاكس: ٤١٧٢٧٤٩
ص.ب: ٥٦٦٢ رمز بريدى ١١٧٧١